سلسلة تفسير القرآن

١٧

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الأوّل

ندقيق

أسعد جمعة

دار كيرانيس للطباعة والنّشر والتّوزيع

2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الأوّل

المـقـدّمـة

المقدّمة

1 – المؤلّف:

أ – التّعريف به:

أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزّمخشري.

ولد في زَمَخْشَر يوم الأربعاء السّابع والعشرين من شهر رجب سنة 467 هـ / 1074 م، وتوفّي[2] ليلة عرفة سنة 538 هـ /. 1143 م في جرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكّة.

يقول السّمعاني في ترجمته[2]: "برع في الآداب، وصنف التصانيف، وَرَدَ العراق وخراسان، ما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه، وتتلمذوا له، وكان علامة نسابة".

ب – اعتزاله:

كان الزّمخشري معتزليًّا في الأصول (العقيدة)، حنفيًّا في الفروع (الفقه)، وكان يجاهر بمذهبه (الاعتزال)، ويدونه في كتبه، ويصرح به في مجالسه. وكان إذا قصد صاحباً له استأذن عليه في الدخول ويقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب.

وقد بذل الزّمخشري مجهوداً كبيراً في تفسيره في سبيل تفسير الآيات القرآنية على مقتضى مذهب الاعتزال وأصوله الخمسة، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ج – ثناء العلماء عليه:

وقد اشتهر الزّمخشري في عصره، ومدحه الشعراء والأدباء، وطلب العلماء أن يعطيهم الإجازة في رواية كتبه. ومن لطيف ذلك أنّ الحافظ أبا الطاهر السِلَفي كتب إليه من الإسكندرية يستجيزه.

وكان الزّمخشري مجاورًا بمكة، فكتب إليه جواباً طويلاً يقول في مطلعه: ((ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السُّها (نجم صغير) مع مصابيح السماء.. والجهام الصُفر

والرّهام (المطر الخفيف) مع الغوادي (المطر الغزير) الغامرة للقيعان والآكام، والسُّكيت المخلَّف مع خيل السباق، والبُغاث (طائر صغير) مع الطير العَناق.. وما التّلقيب بالعلامة، إلا شبه الرقم بالعلامة.. والعلم مدينة أحد بابيها الدّراية، والثّاني الرواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلي فيها أقلص من ظلّ حصاة، أمّا الرواية فحديثة الميلاد، قريبة الإسناد، لم تستند إلى علماء نحرير ولا إلى أعلام مشاهير، وأمّا الدراية فثمد لا يبلغ أفواهًا، وبرض (الماء القليل) ما يبلّ شفاهاً.. ولا يغرنّكم قول فلان وفلان في.. (وعدّد قوماً من الشّعراء والأدباء)؛ فإنّ ذلك اغترار منهم بالظّاهر المموّه، وجهل بالباطن المشوَّه..".

ويظهر في هذا المقطع جزالة ألفاظ الزّمخشري ورقي لغته، كما يظهر مدى تواضعه وبعده عن الاعتداد بالنفس.

ذكر التّاج الكندي أنّه رأى الزمخشري على باب الإمام أبي منصور بن الجواليقي.

وقال الكمال الأنباري لما قدم الزّمخشري للحج، أتاه شيخنا أبو السّعادات بن الشّجري مهنئا بقدومه، قائلاً:

عنْ أحمدَ بنِ عليٍّ أطيبَ الخَبــرِ كانَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِــي
أُذْنِي بأحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَي بَصَرِي حتّى التَقَيْنَا فلا واللهِ ما سَمِعَتْ

2 - مؤلفاته:

يوجد في ويكي مصدر كتب أو مستندات أصلية تتعلق بـ: *مؤلف:الزمخشري*

الزمخشري إمام كبير في الحديث، والتفسير، والنحو، والبلاغة .وصاحب تآليف عظيمة في كل ذلك. ومن مؤلفاته:

– في اللّغة والبلاغة: رغم أن الزمخشري كان فارسياً إلا أنه كان يفضل اللغة العربية، وألف فيها تآليف غنيّة، جاء في دائرة المعارف البريطانية[4] في مادة الزمخشري: رغم أن بعض أعماله بالفارسيّة، إلّا أنّه كان من المؤمنين بتفوّق اللّغة العربية ومن المعارضين للشّعوبيّة. ومن مؤلفاته في اللغة: أساس البلاغة، والمستقصى في الأمثال، والفائق في غريب الحديث، ومقدّمة الأدب، وهو قاموس من العربية للفارسية، والقسطاس في علم العروض.

– في النّحو :المفصل في صنعة الإعراب، والأنموذج، والمفرد المؤلف.

– في **الحديث**: مشتبه أسامي الرواة.

– في **التّفسير**: تفسير **الكشاف** المشهور.

– في **الفقه**: الرائض في علم الفرائض

– في **الزّهد**: أطواق الذهب في المواعظ، وكتاب النصائح.

– في **الجغرافيا**: كتاب الامكنه والجبال والمياه.

– في **الأدب**: له مقامات يطلق عليها مقامات الزمخشري: تتكوّن من مقدّمة، وخطبة، وخمسين مقالة.

في المقدّمة: قدّم نصائح لمن يتناول الكتاب بالتّأنّي في قراءته، والوقوف علي كلّ لفظ وتفهّم المعاني الواردة. كما نصح بألّا يقدّم الكتاب إلّا لعالم أو متديّن أو أديب . كذلك طلب ممّن يريد نسخ الكتاب أن ينسخه بخطّ جيّد، وأن يضع عليه اسم المؤلّف، كما طلب الدّعاء له بالرّحمة والرّضوان.

وفي الخطبة: صنع مدخلًا للمقاما،ت وجعلها أساسها هو نصيحة نفسه، وذلك عندما أصابه مرض في شهر رجب سنة **512** هـ، فأخذ عهدا علي نفسه إن شفاه الله من المرض، أن يسلك مسلك الجدّ، وأن يبتعد عن السّلاطين والأمراء، ويقلع عن مدحهم والتماس العطايا منهم؛ وفي آخر الخطبة أخذ العهد علي نفسه أن يتعلّم علوم القرآن والحديث والعلوم الشّرعيّة.

أمّا المقامات، فقد نوّع موضوعاتها بين الحكمة والوصايا والأدب والتّاريخ.

إلى غير ذلك من الكتب القيّمة..

وأشهر كتبه على الإطلاق هما: تفسير **الكشّاف**، وأساس البلاغة.

3 - من شعره:

من شعره ما رواه السّمعاني[2]، قال: أنشدنا إسماعيل بن عبد الله، أنشدني الزّمخشري لنفسه يرثي أستاذه مُضر النّحوي:

وقَائِلَةٍ ما هذه الدُّرَرُ التِـــي تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ

فَقُلْتُ هو الدُّرُّ الذي قَدْ حَشَا بِهِ أبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي

وقال أيضاً[2]: أنبأني عدة عن أبي المظفر بن السمعاني، أنشدنا أحمد بن محمود القاضي بسمرقند، أنشدنا أستاذي محمود بن عمر:

أَلاَ قُلْ لِسُعْدَى ما لنَا فِيكِ مِنْ وَطَرْ ومَا تَطَّبِينَا النُّجْلُ مِن أَعْيُنِ البَقَرْ

فإنَّا اقْتَصَرْنَا بالذين تضَايَقَـــــتْ عُيُونُهُم واللهُ يَجْزِي مَنِ اقْتَصَـــرْ
مَلِيحٌ ولكنْ عِندهُ كُلُّ جَفْـــــوَةٍ ولمْ أرَ في الدُّنْيَا صَفَاءً بِلا كَـــدَرْ
ولمْ أَنْسَ إِذْ غَازَلْتُهُ قُرْبَ رَوْضَـــةٍ إلى جَنْبِ حَوْضٍ فِيْهِ للماءِ مُنْحَدَرْ
فقلتُ له جِئْنِي بِوَرْدٍ وإِنَّمَـــــــا أَرَدْتُ به وَرْدَ الخُدُودِ ومَا شَعَـــرْ
فَقَالَ انْتَظِرْنِي رَجْعَ طَرْفٍ أَجِيءْ بِهِ فَقُلْتُ لهُ هَيْهَاتَ مَا في مُنْتَظَـــرْ
فقَالَ ولا وَرْدٌ سِوَى الخَدِّ حَاضِـــرٌ فقُلْتُ له إِنِّي قَنَعْتُ بِمَا حَضَـــرْ

4 - التعريف بالكتاب:

اسمه الكامل: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل.

وعادة ما يقرن تفسير الكشّاف بكتابين هما:

1- (الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال (لابن المنير الإسكندري، وهو ردّ علمي على بعض المسائل الخلافيّة التي تعدّى فيها الزمخشري على الأشاعرة، وكان ابن المنير ينسب آراءه إلى أهل السنّة –كما هي عادة الأشاعرة في ذلك الزّمان من نسبة أنفسهم إلى أهل السنة–.

وخرجت رسالة علمية ثمينة في العصر الحاضر للمحاكمة بينهما وفق منهج السّلف، بعنوان (المسائل الاعتزاليّة في تفسير الكشّاف في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف لابن المنير)، للدّكتور الغامدي.

2 – كتاب (الكافِ الشّافِ في تخريج أحاديث الكشّافِ (لابن حجر العسقلاني، وهو تخريج لمَا ورد في الكشّاف من أحاديث وآثار.

المصادر والمراجع:

– الأنساب، السّمعاني
– وفيات الأعيان، ابن خلكان

كتب أخرى يمكن الرّجوع إليها:
– الزّمخشري من موقع الشبكة الإسلامية
– المسائل الاعتزاليّة في تفسير الكشّاف للزّمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف لابن المنير

أبو القاسم الزّمخشري

الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الأوّل

مقدمة التشريع

تعريف التشريع

مقدمة التفسير
للعلامة الزمخشري

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ كَلَامًا مُؤَلَّفًا مُنَظَّمًا، وَنَزَّلَهُ بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ مُنَجَّمًا، وَجَعَلَهُ بِالتَّحْمِيدِ مُفْتَتَحًا، وَبِالِاسْتِعَاذَةِ مُخْتَتَمًا، وَأَوْحَاهُ عَلَى قِسْمَيْنِ مُتَشَابِهًا وَمُحْكَمًا، وَفَصَّلَهُ سُورًا وَسُورَهُ آيَاتٍ، وَمَيَّزَ بَيْنَهُنَّ بِفُصُولٍ وَغَايَاتٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا صِفَاتُ مُبْتَدِئٍ مُبْتَدِعٍ، وَسِمَاتُ مُنْشِئٍ مُخْتَرِعٍ، فَسُبْحَانَ مَنِ اسْتَأْثَرَ بِالْأَوَّلِيَّةِ وَالْقِدَمِ، وَوَسَمَ كُلَّ شَيْءٍ سِوَاهُ بِالْحُدُوثِ عَنِ الْعَدَمِ، أَنْشَأَهُ كِتَابًا سَاطِعًا تِبْيَانُهُ، قَاطِعًا بُرْهَانُهُ، وَحْيًا نَاطِقًا بِبَيِّنَاتٍ وَحُجَجٍ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ، مِفْتَاحًا لِلْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، مِصْدَاقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، عَجْزًا بَاقِيًا دُونَ كُلِّ مُعْجِزٍ عَلَى وَجْهِ كُلِّ زَمَانٍ، دَائِرًا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكُتُبِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ، أَفْحَمَ بِهِ مَنْ طُولِبَ بِمُعَارَضَتِهِ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرْبَاءِ، وَأَبْكَمَ بِهِ مَنْ تَحَدَّى بِهِ مِنْ مَصَاقِعِ الْخُطَبَاءِ، فَلَمْ يَتَصَدَّ لِلْإِتْيَانِ بِمَا يُوَازِيهِ أَوْ يُدَانِيهِ وَاحِدٌ مِنْ فُصَحَائِهِمْ، وَلَمْ يَنْهَضْ لِمِقْدَارِ أَقْصَرَ مِنْ سُورَةٍ مِنْهُ نَاهِضٌ مِنْ بُلَغَائِهِمْ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ حَصَى الْبَطْحَاءِ، وَأَوْفَرَ عَدَدًا مِنْ رِمَالِ الدَّهْنَاءِ، وَلَمْ يَنْبِضْ مِنْهُمْ عِرْقُ الْعَصَبِيَّةِ مَعَ اشْتِهَارِهِمْ بِالْإِفْرَاطِ فِي الْمُضَادَّةِ وَالْمُضَارَّةِ، وَإِلْقَائِهِمُ الشَّرَاشِرَ عَلَى الْمُعَازَّةِ وَالْمُعَارَّةِ، وَلِقَائِهِمْ دُونَ الْمُنَاضَلَةِ عَنِ أَحْسَابِهِمُ الْخُطَطَ، وَرُكُوبِهِمْ فِي كُلِّ يَرُومُونَهُ الشَّطَطَ، إِنْ أَتَاهُمْ أَحَدٌ بِمَفْخَرَةٍ أَتَوْهُ بِمَفَاخِرَ، وَإِنْ رَمَاهُمْ بِمَأْثُرَةٍ رَمَوْهُ بِمَآثِرَ، وَقَدْ جَرَّدَ لَهُمُ الْحُجَّةَ أَوَّلًا، وَالسَّيْفَ آخِرًا، فَلَمْ يُعَارِضُوا إِلَّا السَّيْفَ وَحْدَهُ، عَلَى أَنَّ السَّيْفَ الْقَاضِبَ مِخْرَاقُ لَاعِبٍ إِنْ لَمْ تَمْضِ الْحُجَّةُ حَدَّهُ، فَمَا أَعْرَضُوا عَنْ مُعَارَضَةِ الْحُجَّةِ إِلَّا لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْبَحْرَ قَدْ زَخَرَ فَطَمَّ عَلَى الْكَوَاكِبِ، وَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ أَشْرَقَتْ فَطَمَسَتْ نُورَ الْكَوَاكِبِ.

وَالصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ] عَلَى خَيْرِ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ حَبِيبِ اللَّهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، ذِي اللِّوَاءِ الْمَرْفُوعِ فِي بَنِي لُؤَيٍّ، وَذِي الْقَرْعِ الْمُنِيفِ

فِي عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ ، الْمُثَبَّتِ بِالْعِصْمَةِ، الْمُؤَيَّدِ بِالْحِكْمَةِ، الشَّادِخِ الْغُرَّةِ، الْوَاضِحِ التَّحْجِيلِ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَعَلَى آلِهِ الْأَطْهَارِ، وَخُلَفَائِهِ مِنَ الْأَخْتَانِ وَالْأَصْهَارِ، وَعَلَى جَمِيعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

اعْلَمْ: أَنَّ مَتْنَ كُلِّ عِلْمٍ وَعَمُودَ كُلِّ صِنَاعَةٍ– طَبَقَاتُ الْعُلَمَاءِ فِيهِ مُتَدَانِيَةٌ، وَأَقْدَامُ الصُّنَّاعِ فِيهِ مُتَقَارِبَةٌ أَوْ مُتَسَاوِيَةٌ، إِنْ سَبَقَ الْعَالِمُ الْعَالِمَ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَّا بِخُطًا يَسِيرَةٍ، أَوْ تَقَدَّمَ الصَّانِعُ الصَّانِعَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ إِلَّا بِمَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ، وَإِنَّمَا الَّذِي تَبَايَنَتْ فِيهِ الرُّتَبُ، وَتَحَاكَّتْ فِيهِ الرِّكَبُ، وَوَقَعَ فِيهِ الِاسْتِبَاقُ وَالتَّنَاضُلُ، وَعَظُمَ فِيهِ التَّفَاوُتُ وَالتَّفَاضُلُ، حَتَّى انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى أَمَدٍ مِنَ الْوَهْمِ مُتَبَاعِدٍ، وَتَرَقَّى إِلَى أَنْ عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ – مَا فِي الْعُلُومِ وَالصِّنَاعَاتِ مِنْ مَحَاسِنِ النُّكَتِ وَالْفِقَرِ، وَمِنْ لَطَائِفِ مَعَانٍ يَدُقُّ فِيهَا مَبَاحِثٌ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ غَوَامِضِ أَسْرَارٍ مُحْتَجِبَةٍ وَرَاءَ أَسْتَارٍ، لَا يَكْشِفُ عَنْهَا مِنَ الْخَاصَّةِ إِلَّا أَوْحَدُهُمْ وَأَخَصُّهُمْ، وَإِلَّا وَاسِطَتُهُمْ وَفَصُّهُمْ، وَعَامَّتُهُمْ عُمَاةٌ عَنْ إِدْرَاكِ حَقَائِقِهَا بِأَحْدَاقِهِمْ، عُنَاةٌ فِي يَدِ التَّقْلِيدِ لَا يُمَنُّ عَلَيْهِمْ بِجَزِّ نَوَاصِيهِمْ وَإِطْلَاقِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ أَمْلَأَ الْعُلُومِ بِمَا يَغْمُرُ الْقَرَائِحَ، وَأَنْهَضَهَا بِمَا يَبْهَرُ الْأَلْبَابَ الْقَوَارِحَ، مِنْ غَرَائِبِ نُكَتٍ يَلْطُفُ مَسْلَكُهَا، وَمُسْتَوْدَعَاتِ أَسْرَارٍ يَدِقُّ سِلْكُهَا – عِلْمُ التَّفْسِيرِ الَّذِي لَا يَتِمُّ لِتَعَاطِيهِ وَإِجَالَةِ النَّظَرِ فِيهِ كُلُّ ذِي عِلْمٍ كَمَا ذَكَرَ الْجَاحِظُ فِي كِتَابِ *نَظْمِ الْقُرْآنِ*، فَالْفَقِيهُ وَإِنْ بَرَزَ عِلْمَ الْأَقْرَانِ فِي عِلْمِ الْفَتَاوِي وَالْأَحْكَامِ، وَالْمُتَكَلِّمُ وَإِنْ بَرَزَ أَهْلَ الدُّنْيَا فِي صِنَاعَةِ الْكَلَامِ، وَحَافِظُ الْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ وَإِنْ كَانَ مِنِ ابْنِ الْقَرْيَةِ أَحْفَظَ، وَالْوَاعِظُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَوْعَظَ، وَالنَّحْوِيُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ سِيبَوَيْهِ، وَاللُّغَوِيُّ وَإِنْ عَلَكَ اللُّغَاتِ بِقُوَّةِ لَحْيَيْهِ– لَا يَتَصَدَّى مِنْهُمْ أَحَدٌ لِسُلُوكِ تِلْكَ الطَّرَائِقِ، وَلَا يَغُوصُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْحَقَائِقِ، إِلَّا رَجُلٌ قَدْ بَرَعَ فِي عِلْمَيْنِ مُخْتَصَّيْنِ بِالْقُرْآنِ، وَهُمَا عِلْمُ الْمَعَانِي وَعِلْمُ الْبَيَانِ، وَتَمَهَّلَ فِي ارْتِيَادِهِمَا آوِنَةً، وَتَعَبَ فِي التَّنْقِيرِ عَنْهُمَا أَزْمِنَةً، وَبَعْثَتْهُ عَلَى تَتَبُّعِ مَظَانِّهِمَا هِمَّةٌ فِي مَعْرِفَةِ لَطَائِفِ حُجَّةِ اللَّهِ، وَحِرْصٌ عَلَى اسْتِيضَاحِ مُعْجِزَةِ رَسُولِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ آخِذًا مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ بِحَظٍّ، جَامِعًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ تَحْقِيقٍ وَحِفْظٍ، كَثِيرَ الْمُطَالَعَاتِ، طَوِيلَ الْمُرَاجَعَاتِ، قَدْ رَجَعَ زَمَانًا وَرُجِعَ إِلَيْهِ، وَرَدَّ وَرُدَّ عَلَيْهِ، فَارِسًا فِي عِلْمِ الْإِعْرَابِ، مُقَدَّمًا فِي حَمَلَةِ الْكِتَابِ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَرْسِلَ الطَّبِيعَةِ مِنْقَادَهَا، مُشْتَعِلَ الْقَرِيحَةِ وَقَّادَهَا، يَقْظَانَ النَّفْسِ، دَرَّاكًا لِلْمُحَةِ وَإِنْ لَطُفَ شَأْنُهَا، مُنْتَبِهًا عَلَى الرَّمْزَةِ وَإِنْ خَفِيَ مَكَانُهَا، لَا كَزًّا جَاسِيًا، وَلَا غَلِيظًا جَافِيًا، مُتَصَرِّفًا ذَا دِرَايَةٍ بِأَسَالِيبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ، مُرْتَاضًا غَيْرَ رَيِّضٍ بِتَلْقِيحِ بَنَاتِ الْفِكْرِ، قَدْ

عَلِمَ كَيْفَ يُرَتَّبُ الْكَلَامُ وَيُؤَلَّفُ، وَكَيْفَ يُنْظَمُ وَيُرْصَفُ، طَالَمَا دُفِعَ إِلَى مَضَايِقِهِ، وَوَقَعَ فِي مَدَاحِضِهِ وَمَزَالِقِهِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا فِي الدِّينِ مِنْ أَفَاضِلِ الْفِئَةِ النَّاجِيَةِ الْعَدْلِيَّةِ، الْجَامِعِينَ بَيْنَ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأُصُولِ الدِّينِيَّةِ، كُلَّمَا رَجَعُوا إِلَيَّ فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ فَأَبْرَزْتُ لَهُمْ بَعْضَ الْحَقَائِقِ مِنَ الْحُجُبِ، أَفَاضُوا فِي الِاسْتِحْسَانِ وَالتَّعَجُّبِ، وَاسْتُطِيرُوا شَوْقًا إِلَى مُنْصِفٍ يَضُمُّ أَطْرَافًا مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى اجْتَمَعُوا إِلَيَّ مُقْتَرِحِينَ أَنْ أُمْلِيَ عَلَيْهِمُ *الْكَشْفَ عَنْ حَقَائِقِ التَّنْزِيلِ وَعُيُونِ الْأَقَاوِيلِ فِي وُجُوهِ التَّأْوِيلِ* فَاسْتَعْفَيْتُ، فَأَبَوْا إِلَّا الْمُرَاجَعَةَ وَالِاسْتِشْفَاعَ بِعُظَمَاءِ الدِّينِ وَعُلَمَاءِ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالَّذِي حَدَانِي عَلَى الِاسْتِعْفَاءِ عَلَى عِلْمِي، أَنَّهُمْ طَلَبُوا مَا الْإِجَابَةُ إِلَيْهِ عَلَيَّ وَاجِبَةٌ، لِأَنَّ الْخَوْضَ فِيهِ كَفَرْضِ الْعَيْنِ مَا أَرَى عَلَيْهِ الزَّمَانَ مِنْ رَثَاثَةِ أَحْوَالِهِ، وَرَكَاكَةِ رِجَالِهِ، وَتَقَاصُرِ هِمَمِهِمْ عَنْ أَدْنَى عَدَدِ هَذَا الْعِلْمِ، فَضْلًا أَنْ تَتَرَقَّى إِلَى الْكَلَامِ الْمُؤَسِّسِ عَلَى عِلْمَيِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، فَأَمْلَيْتُ عَلَيْهِمْ مَسْأَلَةً فِي الْفَوَاتِحِ، وَطَائِفَةً مِنَ الْكَلَامِ فِي حَقَائِقِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَكَانَ كَلَامًا مَبْسُوطًا، كَثِيرَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، طَوِيلَ الذُّيُولِ [وَالْأَذْنَابِ].

وَإِنَّمَا حَاوَلْتُ بِهِ التَّنْبِيهَ عَلَى غَزَارَةِ نُكَتِ هَذَا الْعِلْمِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَنَارًا يَنْتَحُونَهُ وَمِثَالًا يَحْتَذُونَهُ، فَلَمَّا صَمَّمَ الْعَزْمُ عَلَى مُعَاوَدَةِ جِوَارِ اللَّهِ وَالْإِنَاخَةِ بِحَرَمِ اللَّهِ فَتَوَجَّهْتُ تِلْقَاءَ مَكَّةَ، وَجَدْتُ فِي مُجْتَازِي بِكُلِ بَلَدٍ مَنْ فِيهِ مُسْكَةٌ مِنْ أَهْلِهَا –وَقَلِيلٌ مَا هُمْ– عَطْشَى الْأَكْبَادِ إِلَى الْعُثُورِ عَلَى ذَلِكَ الْمُمَلَّى، مُتَطَلِّعِينَ إِلَى إِينَاسِهِ، حُرَّاصًا عَلَى اقْتِبَاسِهِ، فَهَزَّ مَا رَأَيْتُ مِنْ عِطْفِي، وَحَرَّكَ السَّاكِنَ مِنْ نَشَاطِي، فَلَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ بِمَكَّةَ إِذَا أَنَا بِالشُّعْبَةِ السَّنِيَّةِ، مِنَ الدَّوْحَةِ الْحَسَنِيَّةِ: الْأَمِيرِ الشَّرِيفِ الْإِمَامِ شَرَفِ آلِ رَسُولِ اللَّهِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ وَهَاسٍ –أَدَامَ اللَّهُ مَجْدَهُ–، وَهُوَ النُّكْتَةُ وَالشَّامَةُ فِي بَنِي الْحَسَنِ مَعَ كَثْرَةِ مَحَاسِنِهِمْ وَجُمُومِ مَنَاقِبِهِمْ، أَعْطَشُ النَّاسِ كَبِدًا، وَأَلْهَبُهُمْ حَشًى، وَأَوْفَاهُمْ رَغْبَةً، حَتَّى ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ– فِي مُدَّةِ غَيْبَتِي عَنِ الْحِجَازِ مَعَ تَزَاحُمِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْمُشَادَّةِ بِقَطْعِ الْفَيَافِي وَطَيِّ الْمَهَامِهِ وَالْوِفَادَةِ عَلَيْنَا بِخَوَارِزْمَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى إِصَابَةِ هَذَا الْغَرَضِ.

فَقُلْتُ: قَدْ ضَاقَتْ عَلَى الْمُسْتَعْفِي الْحِيَلُ، وَعَيْتَ بِهِ الْعِلَلُ، وَرَأَيْتَنِي قَدْ أَخَذَتْ مِنِّي السِّنُّ، وَتَقَعْقَعَ الشَّنُّ، وَنَاهَزْتُ الْعَشْرَ الَّتِي سَمَّتْهَا الْعَرَبُ دَقَّاقَةَ الرِّقَابِ، فَأَخَذْتُ فِي طَرِيقَةٍ أَخْصَرَ مِنَ الْأُولَى مَعَ ضَمَانِ التَّكْثِيرِ مِنَ الْفَوَائِدِ، وَالْفَحْصِ عَنِ السَّرَائِرِ، وَوَفَّقَ اللَّهُ وَسَدَّدَ، فَفُرِغَ [مِنْهُ] فِي مِقْدَارِ مُدَّةِ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَكَانَ يُقَدَّرُ تَمَامُهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمَا هِيَ إِلَّا آيَةٌ مِنْ آيَاتِ هَذَا الْبَيْتِ الْمُحَرَّمِ، وَبَرَكَةٍ أُفِيضَتْ عَلَيَّ مِنْ

بَرَكَاتِ هَذَا الْحَرَمِ الْمُعَظَّمِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَعِبْتُ فِيهِ مِنْهُ سَبَبًا يُنْجِينِي، وَنُورًا [لِي] عَلَى الصِّرَاطِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيَّ وَبِيَمِينِي، وَنِعْمَ الْمَسْؤُولُ.

سَوَمَةُ ـَاةَمَة اّلكتمابو

سُورَةُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ

مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: مَكِّيَّةٌ وَمَدَنِيَّةٌ، لِأَنَّهَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ مَرَّةً وَبِالْمَدِينَةِ أُخْرَى، وَتُسَمَّى: أُمَّ الْقُرْآنِ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى الْمَعَانِي الَّتِي فِي الْقُرْآنِ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ –تَعَالَى– بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَمِنَ التَّعَبُّدِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَمِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَسُورَةَ الْكَنْزِ وَالْوَافِيَةَ لِذَلِكَ، وَسُورَةَ الْحَمْدِ وَالْمَثَانِي، لِأَنَّهُ تُثَنَّى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَسُورَةَ الصَّلَاةِ، لِأَنَّهَا تَكُونُ فَاضِلَةً أَوْ مُجْزِئَةً بِقِرَاءَتِهَا فِيهَا، وَسُورَةَ الشِّفَاءِ، وَالشَّافِيَةَ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ بِالِاتِّفَاقِ، إِلَّا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ عَدَّ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[1] دُونَ التَّسْمِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَذْهَبُهُ عَلَى الْعَكْسِ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[2]

قُرَّاءُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَالشَّامِ وَفُقَهَاؤُهَا عَلَى أَنَّ التَّسْمِيَةَ لَيْسَتْ بِآيَةٍ مِنَ الْفَاتِحَةِ، وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ السُّورِ؛ وَإِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ وَالتَّبَرُّكِ بِالِابْتِدَاءِ بِهَا، كَمَا بُدِئَ بِذِكْرِهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ– وَمَنْ تَابَعَهُ، وَلِذَلِكَ لَا يُجْهَرُ بِهَا عِنْدَهُمْ فِي الصَّلَاةِ .

وَقُرَّاءُ مَكَّةَ وَالْكُوفَةِ وَفُقَهَاؤُهُمَا عَلَى أَنَّهَا آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَمِنْ كُلِّ سُورَةٍ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ –رَحِمَهُمُ اللَّهُ– وَلِذَلِكَ يَجْهَرُونَ بِهَا.

وَقَالُوا: قَدْ أَثْبَتَهَا السَّلَفُ فِي الْمُصْحَفِ مَعَ تَوْصِيَتِهِمْ بِتَجْرِيدِ الْقُرْآنِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُثْبِتُوا (آمِينَ)، فَلَوْلَا أَنَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ لَمَا أَثْبَتُوهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ تَرَكَ مِائَةً وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ –تَعَالَى–".

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَتِ الْبَاءُ؟ قُلْتُ: بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ أَوْ أَتْلُو، لِأَنَّ الَّذِي يَتْلُو التَّسْمِيَةَ مَقْرُوءٌ، كَمَا أَنَّ الْمُسَافِرَ إِذَا حَلَّ أَوِ ارْتَحَلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ، كَانَ

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية 7.

[2] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية 1.

الْمَعْنَى: بِسْمِ اللَّهِ أَحِلُّ وَبِسْمِ اللَّهِ أَرْتَحِلُ، وَكَذَلِكَ الذَّابِحُ وَكُلُّ فَاعِلٍ يَبْدَأُ فِي فِعْلِهِ، بِـ "بِسْمِ اللَّهِ" كَانَ مُضْمِرًا مَا جَعَلَ التَّسْمِيَةَ مَبْدَأً لَهُ، وَنَظِيرُهُ فِي حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الْجَارِّ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾[1]، أَيِ: اذْهَبْ فِي تِسْعِ آيَاتٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْعَرَبِ فِي الدُّعَاءِ لِلْمُعَرِّسِ: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، وَقَوْلُ الْأَعْرَابِيِّ: بِالْيُمْنِ وَالْبَرَكَةِ، بِمَعْنَى: أَعْرَسْتَ، أَوْ نَكَحْتَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ: نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَدَّرْتَ الْمَحْذُوفَ مُتَأَخِّرًا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَهَمَّ مِنَ الْفِعْلِ وَالْمُتَعَلِّقِ بِهِ هُوَ الْمُتَعَلِّقُ بِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَبْدَءُونَ بِأَسْمَاءِ آلِهَتِهِمْ، فَيَقُولُونَ: بِاسْمِ اللَّاتِ، بِاسْمِ الْعُزَّى، فَوَجَبَ أَنْ يَقْصِدَ الْمُوَحِّدُ مَعْنَى اخْتِصَاصِ اسْمِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– بِالِابْتِدَاءِ؛ وَذَلِكَ بِتَقْدِيمِهِ وَتَأْخِيرِ الْفِعْلِ، كَمَا فُعِلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[2] حَيْثُ صُرِّحَ بِتَقْدِيمِ الِاسْمِ؛ إِرَادَةً لِلِاخْتِصَاصِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[3]

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ قَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[4]، فَقَدَّمَ الْفِعْلَ؟ قُلْتُ: هُنَاكَ تَقْدِيمُ الْفِعْلِ أَوْقَعُ؛ لِأَنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ، فَكَانَ الْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ أَهَمَّ .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَعَلُّقِ اسْمِ اللَّهِ بِالْقِرَاءَةِ؟ قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهَا تَعَلُّقَ الْقَلَمِ بِالْكَتَبَةِ فِي قَوْلِكَ: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَمَّا اعْتَقَدَ أَنَّ فِعْلَهُ لَا يَجِيءُ مُعْتَدًّا بِهِ فِي الشَّرْعِ وَاقِعًا عَلَى السُّنَّةِ حَتَّى يُصَدَّرَ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ، لِقَوْلِهِ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ–: "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ"، إِلَّا كَانَ فِعْلًا كَلَا فِعْلٍ، جُعِلَ فِعْلُهُ مَفْعُولًا بِاسْمِ اللَّهِ، كَمَا يَفْعَلُ الْكَتْبُ بِالْقَلَمِ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهَا تَعَلُّقَ الدُّهْنِ بِالْإِنْبَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[5] عَلَى مَعْنَى: [مُتَبَرِّكًا] بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الدَّاعِي لِلْمُعَرِّسِ: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، مَعْنَاهُ: أَعْرَسْتَ مُلْتَبِسًا بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، وَهَذَا الْوَجْهُ أَعْرَبُ وَأَحْسَنُ.

---

[1] سورة النَّمْلِ، الآية 12.

[2] سورة الْفَاتِحَةِ، الآية 5.

[3] سورة هُودَ، الآية 41.

[4] سورة الْعَلَقِ، الآية 1.

[5] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 20.

فَإِنْ قُلْتَ: [فَكَيْفَ] قَالَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مُتَبَرِّكًا بِاسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ؟ قُلْتُ: هَذَا مَقُولٌ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعِبَادِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ الشِّعْرَ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] إِلَى آخِرِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ، وَمَعْنَاهُ تَعْلِيمُ عِبَادِهِ كَيْفَ يَتَبَرَّكُونَ بِاسْمِهِ، وَكَيْفَ يَحْمَدُونَهُ وَيُمَجِّدُونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ .

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ حَقِّ حُرُوفِ الْمَعَانِي الَّتِي جَاءَتْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ أَنْ تُبْنَى عَلَى الْفَتْحَةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ السُّكُونِ، نَحْوُ: كَافِ التَّشْبِيهِ، وَلَامِ الِابْتِدَاءِ، وَوَاوِ الْعَطْفِ وَفَائِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا بَالُ لَامِ الْإِضَافَةِ وَبَائِهَا بُنِيَتَا عَلَى الْكَسْرِ؟

قُلْتُ: أَمَّا اللَّامُ فَلِلْفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ لَامِ الِابْتِدَاءِ، وَأَمَّا الْبَاءُ فَلِكَوْنِهَا لَازِمَةً لِلْحَرْفِيَّةِ وَالْجَرِّ، وَالِاسْمُ أَحَدُ الْأَسْمَاءِ الْعَشَرَةِ الَّتِي بَنَوْا أَوَائِلَهَا عَلَى السُّكُونِ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهَا مُبْتَدِئِينَ زَادُوا هَمْزَةً؛ لِئَلَّا يَقَعَ ابْتِدَاؤُهُمْ بِالسَّاكِنِ إِذْ كَانَ دَأْبُهُمْ أَنْ يَبْتَدِئُوا بِالْمُتَحَرِّكِ وَيَقِفُوا عَلَى السَّاكِنِ، لِسَلَامَةِ لُغَتِهِمْ مِنْ كُلِّ لُكْنَةٍ وَبَشَاعَةٍ، وَلِوَضْعِهَا عَلَى غَايَةٍ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالرَّصَانَةِ، وَإِذَا وَقَعَتْ فِي الدَّرْجِ لَمْ تَفْتَقِرْ إِلَى زِيَادَةِ شَيْءٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْهَا وَاسْتَغْنَى عَنْهَا بِتَحْرِيكِ السَّاكِنِ، فَقَالَ: سِمِ وَسُمِ، قَالَ:

بِاسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سُمُهْ

وَهُوَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَحْذُوفَةِ الْأَعْجَازِ: كَيَدٍ وَدَمٍ، وَأَصْلُهُ: سُمُوٌّ، بِدَلِيلِ تَصْرِيفِهِ: كَأَسْمَاءَ، وَسُمَيٍّ، وَسَمَّيْتُ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ السُّمُوِّ، لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ تَنْوِيهٌ بِالْمُسَمَّى وَإِشَادَةٌ بِذِكْرِهِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْقِبِّ النَّبْزُ: مِنَ النَّبْزِ بِمَعْنَى النَّبْرِ، وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ، وَالنَّبَزُ: قِشْرُ النَّخْلَةِ الْأَعْلَى.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ حُذِفَتِ الْأَلِفُ فِي الْخَطِّ وَأُثْبِتَتْ فِي قَوْلِهِ: بِاسْمِ رَبِّكَ؟ قُلْتُ: قَدِ اتَّبَعُوا فِي حَذْفِهَا حُكْمَ الدَّرْجِ دُونَ الِابْتِدَاءِ الَّذِي عَلَيْهِ وَضْعُ الْخَطِّ، لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، وَقَالُوا: طُوِّلَتِ الْبَاءُ تَعْوِيضًا مِنْ طَرْحِ الْأَلِفِ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ: طَوِّلِ الْبَاءَ، وَأَظْهِرِ السِّنَاتِ، وَدَوِّرِ الْمِيمَ، وَ"اللَّهُ" أَصْلُهُ الْإِلَهُ، قَالَ:

مَعَاذَ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ كَظَبْيَةٍ

وَنَظِيرُهُ: النَّاسُ، أَصْلُهُ: الْأُنَاسُ، قَالَ:

إِنَّ الْمَنَايَا يَطْلُعْـ ـنَ عَلَى الْأُنَاسِ الْآمِنِينَا

---

[1] سورة الْفَاتِحَةِ، الآية 2.

فَحُذِفَتِ الْهَمْزَةُ، وَعُوِّضَ مِنْهَا حَرْفُ التَّعْرِيفِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي النِّدَاءِ: يَا أَللَّهُ بِالْقَطْعِ، كَمَا يُقَالُ: يَا إِلَهُ، [وَالْإِلَهُ] –مِنْ أَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ كَالرَّجُلِ وَالْفَرَسِ– اسْمٌ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَعْبُودٍ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، ثُمَّ غُلِّبَ عَلَى الْمَعْبُودِ بِحَقٍّ، كَمَا أَنَّ النَّجْمَ اسْمٌ لِكُلِّ كَوْكَبٍ، ثُمَّ غُلِّبَ عَلَى الثُّرَيَّا، وَكَذَلِكَ السَّنَةُ عَلَى عَامِ الْقَحْطِ، وَالْبَيْتُ عَلَى الْكَعْبَةِ، وَالْكِتَابُ عَلَى كِتَابِ سِيبَوَيْهِ.

وَأَمَّا "اللَّهُ" بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ فَمُخْتَصٌّ بِالْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ، لَمْ يُطْلَقْ عَلَى غَيْرِهِ، وَمِنْ هَذَا الِاسْمِ اشْتُقَّ: تَأَلَّهَ، وَأَلِهَ، وَاسْتَأْلَهَ؛ كَمَا قِيلَ: اسْتَنْوَقَ، وَاسْتَحْجَرَ، فِي الِاشْتِقَاقِ مِنَ النَّاقَةِ وَالْحَجَرِ .

فَإِنْ قُلْتَ: أَاسْمٌ هُوَ أَمْ صِفَةٌ؟

قُلْتُ: بَلِ اسْمٌ غَيْرُ صِفَةٍ، أَلَا تَرَاكَ تَصِفُهُ وَلَا تَصِفُ بِهِ؟ لَا تَقُولُ: شَيْءٌ إِلَهٌ، كَمَا لَا تَقُولُ: شَيْءٌ رَجُلٌ، وَتَقُولُ: إِلَهٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ، كَمَا تَقُولُ: رَجُلٌ كَرِيمٌ خَيِّرٌ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ صِفَاتِهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَوْصُوفٍ تُجْرَى عَلَيْهِ، فَلَوْ جَعَلْتَهَا كُلَّهَا صِفَاتٍ بَقِيَتْ غَيْرَ جَارِيَةٍ عَلَى اسْمٍ مَوْصُوفٍ بِهَا، وَهَذَا مُحَالٌ .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِهَذَا الِاسْمِ اشْتِقَاقٌ؟ قُلْتُ: مَعْنَى الِاشْتِقَاقِ أَنْ يَنْتَظِمَ الصِّيغَتَيْنِ فَصَاعِدًا مَعْنًى وَاحِدٌ، وَصِيغَةُ هَذَا الِاسْمِ وَصِيغَةُ قَوْلِهِمْ: أَلِهَ، إِذَا تَحَيَّرَ –وَمِنْ أَخَوَاتِهِ: دَلِهَ، وَعَلِهَ– يَنْتَظِمُهُمَا مَعْنَى التَّحَيُّرِ وَالدَّهْشَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْهَامَ تَتَحَيَّرُ فِي مَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ، وَتُدْهَشُ الْفِطَنُ، وَلِذَلِكَ كَثُرَ الضَّلَالُ، وَفَشَا الْبَاطِلُ، وَقَلَّ النَّظَرُ الصَّحِيحُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ تُفَخَّمُ لَامُهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَدْ ذَكَرَ الزَّجَّاجُ أَنَّ تَفْخِيمَهَا سُنَّةٌ، وَعَلَى ذَلِكَ الْعَرَبُ كُلُّهُمْ، وَإِطْبَاقُهُمْ عَلَيْهِ دَلِيلُ أَنَّهُمْ وَرِثُوهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ .

و﴿الرَّحْمَنُ﴾[1] فَعْلَانُ مِنْ رَحِمَ، كَغَضْبَانَ وَسَكْرَانَ مِنْ غَضِبَ وَسَكِرَ، وَكَذَلِكَ: "الرَّحِيمُ" فَعِيلٌ مِنْهُ، كَمَرِيضٍ وَسَقِيمٍ مِنْ مَرِضَ وَسَقَمَ، وَفِي "الرَّحْمَنِ" مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي: "الرَّحِيمِ" وَلِذَلِكَ قَالُوا: رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَرَحِيمُ الدُّنْيَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْبِنَاءِ لِزِيَادَةِ الْمَعْنَى .

وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي الْغَضْبَانِ: هُوَ الْمُمْتَلِئُ غَضَبًا، وَمِمَّا طُنَّ عَلَى أُذُنَيَّ مِنْ مُلَحِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ مَرْكَبًا مِنْ مَرَاكِبِهِمْ بِالشُّقْدُفِ، وَهُوَ مُرَكَّبٌ خَفِيفٌ لَيْسَ فِي ثِقَلِ

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

مَعَامِلِ الْعِرَاقِ، فَقُلْتُ فِي طَرِيقِ الطَّائِفِ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ مَا اسْمُ هَذَا الْمَحْمَلِ؟ أَرَدْتُ الْمَحْمَلَ الْعِرَاقِيَّ، فَقَالَ: أَلَيْسَ ذَاكَ اسْمُهُ الشُّقْدُفُ؟

قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: هَذَا اسْمُهُ ؟ الشُّقْنُدَافُ، فَزَادَ فِي بِنَاءِ الِاسْمِ لِزِيَادَةِ الْمُسَمَّى، وَهُوَ مِنَ الصِّفَاتِ الْغَالِبَةِ –كَالدَّبَرَانِ، وَالْعَيُّوقِ، وَالصَّعْقِ– لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي غَيْرِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– كَمَا أَنَّ: (اللَّهَ) مِنَ الْأَسْمَاءِ الْغَالِبَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَنِي حَنِيفَةَ فِي مُسَيْلِمَةَ: رَحْمَانُ الْيَمَامَةِ، وَقَوْلُ شَاعِرِهِمْ فِيهِ:

وَأَنْتَ غَيْثُ الْوَرَى لَا زِلْتَ رَحْمَانَا

فَبَابٌ مِنْ تَعَنُّتِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَقُولُ: اللَّهُ رَحْمَانٌ، أَتُصَرِّفُهُ أَمْ لَا؟

قُلْتُ: أَقِيسُهُ عَلَى أَخَوَاتِهِ مِنْ بَابِهِ، أَعْنِي: نَحْوُ عَطْشَانَ وَغَرْثَانَ وَسَكْرَانَ، فَلَا أُصَرِّفُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ شُرِطَ فِي امْتِنَاعِ صَرْفِ فَعْلَانَ أَنْ يَكُونَ فَعْلَانَ فَعْلَى، وَاخْتِصَاصُهُ بِاللَّهِ يَحْظُرُ أَنْ يَكُونَ فَعْلَانَ فَعَلَى، فَلِمَ تَمْنَعُهُ الصَّرْفَ؟

قُلْتُ: كَمَا حُظِرَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُؤَنَّثٌ عَلَى فَعْلَى، كَعَطْشَى، فَقَدْ حُظِرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُؤَنَّثٌ عَلَى فَعْلَانَةَ كَنَدْمَانَةَ، فَإِذًا لَا عِبْرَةَ بِامْتِنَاعِ التَّأْنِيثِ؛ لِلِاخْتِصَاصِ الْعَارِضِ، فَوَجَبَ الرُّجُوعُ إِلَى الْأَصْلِ قَبْلَ الِاخْتِصَاصِ، وَهُوَ الْقِيَاسُ عَلَى نَظَائِرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى وَصْفُ اللَّهِ –تَعَالَى– بِالرَّحْمَةِ، وَمَعْنَاهَا: الْعَطْفُ وَالْحُنُوُّ، وَمِنْهَا الرَّحِمُ لِانْعِطَافِهَا عَلَى مَا فِيهَا؟

قُلْتُ: هُوَ مُجَازٌ عَنْ إِنْعَامِهِ عَلَى عِبَادِهِ، لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَطَفَ عَلَى رَعِيَّتِهِ، وَرَقَّ لَهُمْ، أَصَابَهُمْ بِمَعْرُوفِهِ وَإِنْعَامِهِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَدْرَكَتْهُ الْفَظَاظَةُ وَالْقَسْوَةُ، عَنَّفَ بِهِمْ، وَمَنَعَهُمْ خَيْرَهُ وَمَعْرُوفَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ قُدِّمَ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْوَصْفَيْنِ عَلَى مَا هُوَ دُونَهُ، وَالْقِيَاسُ التَّرَقِّي مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، كَقَوْلِهِمْ: فُلَانٌ عَالِمٌ نِحْرِيرٌ، وَشُجَاعٌ بَاسِلٌ، وَجَوَادٌ فَيَّاضٌ؟

قُلْتُ: لَمَّا قَالَ: الرَّحْمَن فَتَنَاوَلَ جَلَائِلَ النِّعَمِ، وَعَظَائِمَهَا، وَأُصُولَهَا، أَرْدَفَهُ: (الرَّحِيمُ) كَالتَّتِمَّةِ وَالرَّدِيفِ، لِيَتَنَاوَلَ مَا دَقَّ مِنْهَا وَلَطَفَ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[1]

الْحَمْدُ وَالْمَدْحُ أَخَوَانِ، وَهُوَ الثَّنَاءُ وَالنِّدَاءُ عَلَى الْجَمِيلِ مِنْ نِعْمَةٍ وَغَيْرِهَا، تَقُولُ: حَمِدْتُ الرَّجُلَ عَلَى إِنْعَامِهِ، وَحَمِدْتُهُ عَلَى حَسَبِهِ وَشَجَاعَتِهِ.

وَأَمَّا الشُّكْرُ فَعَلَى النِّعْمَةِ خَاصَّةً، وَهُوَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، قَالَ [مِنَ الطَّوِيلِ]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وَالْحَمْدُ بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ، فَهُوَ إِحْدَى شُعَبِ الشُّكْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ [الصَّلَاةُ وَ] السَّلَامُ–: "الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ، مَا شَكَرَ اللَّهَ عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ "وَإِنَّمَا جَعَلَهُ رَأْسَ الشُّكْرِ، لِأَنَّ ذِكْرَ النِّعْمَةِ بِاللِّسَانِ وَالثَّنَاءَ عَلَى مُوَلِّيهَا أَشْيَعُ لَهَا وَأَدُلُّ عَلَى مَكَانِهَا مِنَ الِاعْتِقَادِ، وَآدَاءِ الْجَوَارِحِ، لِخَفَاءِ عَمَلِ الْقَلْبِ، وَمَا فِي عَمَلِ الْجَوَارِحِ مِنَ الِاحْتِمَالِ، بِخِلَافِ عَمَلِ اللِّسَانِ، وَهُوَ النُّطْقُ الَّذِي يُفْصِحُ عَنْ كُلِّ خَفِيٍّ وَيُجْلِي كُلَّ مُشْتَبِهٍ.

وَالْحَمْدُ: نَقِيضُهُ الذَّمُّ، وَالشُّكْرُ: نَقِيضُهُ الْكُفْرَانُ، وَارْتِفَاعُ الْحَمْدِ بِالِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ الظَّرْفُ الَّذِي هُوَ "لِلَّهِ" وَأَصْلُهُ النَّصْبُ الَّذِي هُوَ قِرَاءَةُ بَعْضِهِمْ بِإِضْمَارِ فِعْلِهِ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَنْصِبُهَا الْعَرَبُ بِأَفْعَالٍ مُضْمَرَةٍ فِي مَعْنَى الْإِخْبَارِ، كَقَوْلِهِمْ: شُكْرًا، وَكُفْرًا، وَعَجَبًا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَمِنْهَا: سُبْحَانَكَ، وَمَعَاذَ اللَّهِ، يُنْزِلُونَهَا مَنْزِلَةَ أَفْعَالِهَا، وَيَسُدُّونَ بِهَا مَسَدَّهَا، لِذَلِكَ لَا يَسْتَعْمِلُونَهَا مَعَهَا، وَيَجْعَلُونَ اسْتِعْمَالَهَا كَالشَّرِيعَةِ الْمَنْسُوخَةِ، وَالْعَدْلُ بِهَا عَنِ النَّصْبِ إِلَى الرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ الْمَعْنَى وَاسْتِقْرَارِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى–: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾[2]، رُفِعَ السَّلَامُ الثَّانِي، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– حَيَّاهُمْ بِتَحِيَّةٍ أَحْسَنَ مِنْ تَحِيَّتِهِمْ، لِأَنَّ الرَّفْعَ دَالٌّ عَلَى مَعْنَى ثَبَاتِ السَّلَامِ لَهُمْ دُونَ تَجَدُّدِهِ وَحُدُوثِهِ، وَالْمَعْنَى: نَحْمَدُ اللَّهَ حَمْدًا.

وَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3]، لِأَنَّهُ بَيَانٌ لِحَمْدِهِمْ لَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ تَحْمَدُونَ؟ فَقِيلَ: إِيَّاكَ نَعْبُدُ.

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[2] سورة هُودَ، الآية 69.

[3] سورة الْفَاتِحَةِ، الآية 5.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى التَّعْرِيفِ فِيهِ؟ قُلْتُ: هُوَ نَحْوُ التَّعْرِيفِ فِي (أَرْسَلَهَا الْعِرَاكَ) وَهُوَ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، وَمَعْنَاهُ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أَنَّ الْحَمْدَ مَا هُوَ، وَالْعِرَاكَ مَا هُوَ، مِنْ بَيْنِ أَجْنَاسِ الْأَفْعَالِ، وَالِاسْتِغْرَاقُ الَّذِي يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَهْمٌ مِنْهُمْ .

وَقَرَأَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: (الْحَمْدِ لِلَّهِ) بِكَسْرِ الدَّالِّ، لِإِتْبَاعِهَا اللَّامَ، وَقَرَأَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَبْلَةَ: (الْحَمْدُ لُلَّهِ) بِضَمِّ اللَّامِ لِإِتْبَاعِهَا الدَّالَّ، وَالَّذِي جَسَّرَهُمَا عَلَى ذَلِكَ –وَالْإِتْبَاعِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِهِمْ: مُنْحَدَرُ الْجَبَلِ وَمَعْبَرُهُ– تَنَزُّلُ الْكَلِمَتَيْنِ مَنْزِلَةَ كَلِمَةٍ، لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِمَا مُقْتَرِنَتَيْنِ، وَأَشَفُّ الْقِرَاءَتَيْنِ قِرَاءَةُ إِبْرَاهِيمَ، حَيْثُ جَعَلَ الْحَرَكَةَ الْبِنَائِيَّةَ تَابِعَةً لِلْإِعْرَابِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَى، بِخِلَافِ قِرَاءَةِ الْحَسَنِ.

الرَّبُّ: الْمَالِكُ، وَمِنْهُ قَوْلُ صَفْوَانَ لِأَبِي سُفْيَانَ: لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ، تَقُولُ: رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فَهُوَ رَبٌّ، كَمَا تَقُولُ: نَمَّ عَلَيْهِ يَنُمُّ، فَهُوَ نَمٌّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ كَمَا وُصِفَ بِالْعَدْلِ، وَلَمْ يُطْلِقُوا الرَّبَّ إِلَّا فِي اللَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ فِي غَيْرِهِ عَلَى التَّقْيُّدِ بِالْإِضَافَةِ، كَقَوْلِهِمْ: رَبُّ الدَّارِ، وَرَبُّ النَّاقَةِ، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾[1]، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[2].

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: (رَبَّ الْعَالَمِينَ) بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَدْحِ، وَقِيلَ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: نَحْمَدُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

الْعَالَمُ: اسْمٌ لِذَوِي الْعِلْمِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ، وَقِيلَ: كُلُّ مَا عَلِمَ بِهِ الْخَالِقُ مِنَ الْأَجْسَامِ وَالْأَعْرَاضِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جُمِعَ؟

قُلْتُ: لِيَشْمَلَ كُلَّ جِنْسٍ مِمَّا سُمِّيَ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هُوَ اسْمٌ غَيْرُ صِفَةٍ، وَإِنَّمَا تُجْمَعُ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ صِفَاتُ الْعُقَلَاءِ، أَوْ مَا فِي حُكْمِهَا مِنَ الْأَعْلَامِ.

قُلْتُ: سَاغَ ذَلِكَ، لِمَعْنَى الْوَصْفِيَّةِ فِيهِ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى مَعْنَى الْعِلْمِ .

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية 50.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية 23.

[3] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1] قُرِئَ: "مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ، وَمَالِكُ ، وَمَلْكُ بِتَخْفِيفِ اللَّامِ، وَقَرَأَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ، بِلَفْظِ الْفِعْلِ وَنَصْبِ الْيَوْمِ، وَقَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (مَالِكَ) بِالنَّصْبِ.

وَقَرَأَ غَيْرُهُ: مَلِكَ، وَهُوَ نَصْبٌ عَلَى الْمَدْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: مَالِكُ بِالرَّفْعِ، وَمَلِكُ هُوَ الِاخْتِيَارُ، لِأَنَّهُ قِرَاءَةُ أَهْلِ الْحَرَمَيْنِ، وَلِقَوْلِهِ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[2]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾[3]، وَلِأَنَّ الْمُلْكَ يَعُمُّ وَالْمَلِكَ يَخُصُّ.

وَيَوْمُ الدِّينِ: يَوْمُ الْجَزَاءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: "كَمَا تَدِينُ تُدَانُ" وَبَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

وَلَمْ يُبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هَذِهِ الْإِضَافَةُ؟

قُلْتُ: هِيَ إِضَافَةُ اسْمِ الْفَاعِلِ إِلَى الظَّرْفِ عَلَى طَرِيقِ الِاتِّسَاعِ، مُجْرًى مَجْرَى الْمَفْعُولِ بِهِ، كَقَوْلِهِمْ: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ، وَالْمَعْنَى عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَمَعْنَاهُ: مَالِكُ الْأَمْرِ كُلِّهِ فِي يَوْمِ الدِّينِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِضَافَةُ اسْمِ الْفَاعِلِ إِضَافَةٌ غَيْرُ حَقِيقِيَّةٍ، فَلَا تَكُونُ مُعْطِيَةً مَعْنَى التَّعْرِيفِ، فَكَيْفَ سَاغَ وُقُوعُهُ صِفَةً لِلْمَعْرِفَةِ؟

قُلْتُ: إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ إِذَا أُرِيدَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ الْحَالُ أَوِ الِاسْتِقْبَالُ، فَكَانَ فِي تَقْدِيرِ الِانْفِصَالِ، كَقَوْلِكَ: مَالِكُ السَّاعَةِ أَوْ غَدًا، فَأَمَّا إِذَا قُصِدَ مَعْنَى الْمَاضِي، كَقَوْلِكَ: هُوَ مَالِكُ عَبْدِهِ أَمْسِ، أَوْ زَمَانٍ مُسْتَمِرٍّ، كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ مَالِكُ الْعَبِيدِ، كَانَتِ الْإِضَافَةُ حَقِيقِيَّةً، كَقَوْلِكَ: مَوْلَى الْعَبِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى فِي: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[5]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مَلَكَ الْأُمُورَ يَوْمَ الدِّينِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[6]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾[7].

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[2] سورة غَافِرٍ، الآية 16.

[3] سورة النَّاسِ، الآية 2.

[4] سورة غَافِرٍ، الآية 16.

[5] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[6] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 44.

[7] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 48.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: قِرَاءَةُ أَبِي حَنِيفَةَ: "مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ" وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ الَّتِي أُجْرِيَتْ عَلَى اللَّهِ –سُبْحَانَهُ – مَنْ كَوْنِهِ رَبًّا مَالِكًا لِلْعَالَمِينَ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ مَلَكُوتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَمِنْ كَوْنِهِ مُنْعِمًا بِالنِّعَمِ كُلِّهَا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَالْجَلَائِلِ وَالدَّقَائِقِ، وَمِنْ كَوْنِهِ مَالِكًا لِلْأَمْرِ كُلِّهِ فِي الْعَاقِبَةِ يَوْمَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ بَعْدَ الدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِ الْحَمْدِ بِهِ، وَأَنَّهُ بِهِ حَقِيقٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَحَقَّ مِنْهُ بِالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] "إِيَّا" ضَمِيرٌ مُنْفَصِلٌ لِلْمَنْصُوبِ، وَاللَّوَاحِقُ الَّتِي تَلْحَقُهُ مِنَ الْكَافِ وَالْهَاءِ وَالْيَاءِ فِي قَوْلِكَ: إِيَّاكَ، وَإِيَّاهُ، وَإِيَّايَ، لِبَيَانِ الْخِطَابِ وَالْغَيْبَةِ وَالتَّكَلُّمِ، وَلَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، كَمَا لَا مَحَلَّ لِلْكَافِ فِي أَرَأَيْتُكَ، وَلَيْسَتْ بِأَسْمَاءٍ مُضْمَرَةٍ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأَخْفَشِ، وَعَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ.

وَأَمَّا مَا حَكَاهُ الْخَلِيلُ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: "إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِّينَ فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابِّ"– فَشَيْءٌ شَاذٌّ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَتَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ، لِقَصْدِ الِاخْتِصَاصِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾[3]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[4]، وَالْمَعْنَى نَخُصُّكَ بِالْعِبَادَةِ، وَنَخُصُّكَ بِطَلَبِ الْمَعُونَةِ.

وَقُرِئَ: "إِيَاكَ" بِتَخْفِيفِ الْيَاءِ، وَ"أَيَّاكَ" بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالتَّشْدِيدِ، و"هَيَّاكَ" بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ هَاءً.

قَالَ طُفَيْلٌ الْغَنَوِيُّ:

فَهَيَّاكَ وَالْأَمْرُ الَّذِي أَنْ تَرَاحَبَتْ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ

وَالْعِبَادَةُ أَقْصَى غَايَةِ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ، وَمِنْهُ: ثَوْبٌ ذُو عَبْدَةٍ إِذَا كَانَ فِي غَايَةِ الصَّفَاقَةِ وَقُوَّةِ النَّسْجِ، وَلِذَلِكَ لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلَّا فِي الْخُضُوعِ لِلَّهِ –تَعَالَى–، لِأَنَّهُ مَوْلَى أَعْظَمِ النِّعَمِ، فَكَانَ حَقِيقًا بِأَقْصَى غَايَةِ الْخُضُوعِ .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عُدِلَ عَنْ لَفْظِ الْغَيْبَةِ إِلَى لَفْظِ الْخِطَابِ؟

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[2] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[3] سورة الزُّمَرِ، الآية 64.

[4] سورة الْأَنْعَامِ، الآية 164.

قُلْتُ: هَذَا يُسَمَّى بِالِالْتِفَاتِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، قَدْ يَكُونُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، وَمِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَمِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[1]، وَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾[2].

وَقَدِ الْتَفَتَ امْرُؤُ الْقَيْسِ ثَلَاثَةَ الْتِفَاتَاتٍ فِي ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمُدِ ... وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُـــدِ

وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَـةٌ ... كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَـدِ

وَذَلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِي ... وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْـوَدِ

وَذَلِكَ عَلَى عَادَةِ افْتِنَانِهِمْ فِي الْكَلَامِ وَتَصَرُّفِهِمْ فِيهِ، وَلِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا نُقِلَ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوبٍ كَانَ ذَلِكَ أَحْسَنَ تَطْرِيَةً لِنَشَاطِ السَّامِعِ، وَإِيقَاظًا لِلْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَى أُسْلُوبٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ تَخْتَصُّ مَوَاقِعُهُ بِفَوَائِدَ، وَمِمَّا اخْتُصَّ بِهِ هَذَا الْمَوْضِعُ: أَنَّهُ لَمَّا ذُكِرَ الْحَقِيقُ بِالْحَمْدِ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ تِلْكَ الصِّفَاتُ الْعِظَامُ، تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِمَعْلُومٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ حَقِيقٍ بِالثَّنَاءِ، وَغَايَةِ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِعَانَةِ فِي الْمُهِمَّاتِ، فَخُوطِبَ ذَلِكَ الْمَعْلُومُ الْمُتَمَيِّزُ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، فَقِيلَ: إِيَّاكَ، يَا مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ نَخُصُّ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، لَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ وَلَا نَسْتَعِينُهُ؛ لِيَكُونَ الْخِطَابُ أَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ لِذَلِكَ التَّمَيُّزِ الَّذِي لَا تَحِقُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قُرِنَتِ الِاسْتِعَانَةُ بِالْعِبَادَةِ؟

قُلْتُ: لِيُجْمَعَ بَيْنَ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ إِلَى رَبِّهِمْ وَبَيْنَ مَا يَطْلُبُونَهُ وَيَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَتِهِ .

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ قُدِّمَتِ الْعِبَادَةُ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْوَسِيلَةِ قَبْلَ طَلَبِ الْحَاجَةِ لِيَسْتَوْجِبُوا الْإِجَابَةَ إِلَيْهَا .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أُطْلِقَتِ الِاسْتِعَانَةُ؟

قُلْتُ: لِيَتَنَاوَلَ كُلَّ مُسْتَعَانٍ فِيهِ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ تُرَادَ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَبِتَوْفِيقِهِ عَلَى أَدَاءِ الْعِبَادَةِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿اهْدِنَا﴾[3] بَيَانًا لِلْمَطْلُوبِ مِنَ الْمَعُونَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ أُعِينُكُمْ؟ فَقَالُوا: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَإِنَّمَا كَانَ أَحْسَنَ، لِتَلَاؤُمِ الْكَلَامِ، وَأَخْذِ بَعْضِهِ بِحُجْزَةِ بَعْضٍ، وَقَرَأَ ابْنُ حُبَيْشٍ: "نَسْتَعِينِ" بِكَسْرِ النُّونِ .

---

[1] سورة يُونُسَ، الآية 22.

[2] سورة فَاطِرٍ، الآية 9.

[3] سورة الْفَاتِحَةِ، الآية 6.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]

هَدَى: أَصْلُهُ أَنْ يَتَعَدَّى بِاللَّامِ أَوْ بِإِلَى، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2] ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3]، فَعُومِلَ مُعَامَلَةَ اخْتَارَ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾[4].

وَمَعْنَى طَلَبِ الْهِدَايَةِ –وَهُمْ مُهْتَدُونَ– طَلَبُ زِيَادَةِ الْهُدَى بِمَنْحِ الْأَلْطَافِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[5]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[6].

وَعَنْ عَلِيٍّ وَأُبَيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: اهْدِنَا: ثَبِّتْنَا، وَصِيغَةُ الْأَمْرِ وَالدُّعَاءِ وَاحِدَةٌ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا طَلَبٌ، وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتَانِ فِي الرُّتْبَةِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: أَرْشِدْنَا.

"السِّرَاطَ": الْجَادَّةَ، مِنْ سَرَطَ الشَّيْءَ إِذَا ابْتَلَعَهُ، لِأَنَّهُ يَسْتَرِطُ السَّابِلَةَ إِذَا سَلَكُوهُ، كَمَا سُمِّيَ: لَقْمًا، لِأَنَّهُ يَلْتَقِمُهُمْ، وَالصِّرَاطُ مِنْ قَلْبِ السِّينِ صَادًا لِأَجْلِ الطَّاءِ، كَقَوْلِهِ: "مُصَيْطِرٍ" فِي "مُسَيْطِرٍ"، وَقَدْ تُشَمُّ الصَّادُ صَوْتَ الزَّايِ.

وَقُرِئَ بِهِنَّ جَمِيعًا، وَفُصَاحُهُنَّ إِخْلَاصُ الصَّادِ، وَهِيَ لُغَةُ قُرَيْشٍ وَهِيَ الثَّابِتَةُ فِي الْإِمَامِ، وَيُجْمَعُ سُرُطًا، نَحْوُ: كِتَابٍ وَكُتُبٍ، وَيُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ كَالطَّرِيقِ وَالسَّبِيلِ.

وَالْمُرَادُ: طَرِيقُ الْحَقِّ، وَهُوَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ.

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[2] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[3] سورة الشُّورَى، الآية 52.

[4] سورة الْإِسْرَاءِ، الآية 9.

[5] سورة مُحَمَّدٍ، الآية 17.

[6] سورة الْعَنْكَبُوتِ، الآية 69.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[1]

بَدَلٌ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ فِي حُكْمِ تَكْرِيرِ الْعَامِلِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، اهْدِنَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ الْبَدَلِ؟ وَهَلَّا قِيلَ: اهْدِنَا صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ التَّوْكِيدُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّثْنِيَةِ وَالتَّكْرِيرِ، وَالْإِشْعَارُ بِأَنَّ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ بَيَانُهُ وَتَفْسِيرُهُ: صِرَاطُ الْمُسْلِمِينَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ شَهَادَةً لِصِرَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهٍ وَآكَدِهِ، كَمَا تَقُولُ: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى أَكْرَمِ النَّاسِ وَأَفْضَلِهِمْ؟ فُلَانٌ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي وَصْفِهِ بِالْكَرَمِ وَالْفَضْلِ مِنْ قَوْلِكَ: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى فُلَانٍ الْأَكْرَمِ الْأَفْضَلِ؟ لِأَنَّكَ ثَنَّيْتَ ذِكْرَهُ مُجْمَلًا أَوَّلًا، وَمُفَصَّلًا ثَانِيًا، وَأَوْقَعْتَ فُلَانًا تَفْسِيرًا وَإِيضَاحًا لِلْأَكْرَمِ الْأَفْضَلِ، فَجَعَلْتَهُ عَلَمًا فِي الْكَرَمِ وَالْفَضْلِ، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: مَنْ أَرَادَ رَجُلًا جَامِعًا لِلْخَصْلَتَيْنِ فَعَلَيْهِ بِفُلَانٍ، فَهُوَ الْمُشَخَّصُ الْمُعَيَّنُ؛ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِيهِ غَيْرُ مُدَافِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ .

وَ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[3]: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَأُطْلِقَ الْإِنْعَامُ؛ لِيَشْمَلَ كُلَّ إِنْعَامٍ، لِأَنَّ مِنْ أُنْعِمَ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ لَمْ تَبْقَ نِعْمَةٌ إِلَّا أَصَابَتْهُ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمْ أَصْحَابُ مُوسَى قَبْلَ أَنْ يُغَيِّرُوا، وَقِيلَ: هُمُ الْأَنْبِيَاءُ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ".

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 75.

[3] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[1]: بَدَلٌ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ سَلِمُوا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَالضَّلَالِ، أَوْ صِفَةٌ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ النِّعْمَةِ الْمُطْلَقَةِ وَهِيَ نِعْمَةُ الْإِيمَانِ، وَبَيْنَ السَّلَامَةِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَالضَّلَالِ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يَقَعَ: "غَيْر" صِفَةً لِلْمَعْرِفَةِ وَهُوَ لَا يَتَعَرَّفُ وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى الْمَعَارِفِ؟

قُلْتُ: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[2] لَا تَوْقِيتَ فِيهِ كَقَوْلِهِ:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي

وَلِأَنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ خِلَافُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، فَلَيْسَ فِي (غَيْرِ) إِذَنِ الْإِبْهَامُ الَّذِي يَأْبَى عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَرَّفَ، وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَرُوِيَتْ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَذُو الْحَالِ الضَّمِيرُ فِي عَلَيْهِمْ، وَالْعَامِلُ: أَنْعَمْتَ، وَقِيلَ: الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْيَهُودُ؛ لِقَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[3]، وَالضَّالُّونَ هُمُ النَّصَارَى، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى غَضَبِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: هُوَ إِرَادَةُ الِانْتِقَامِ مِنَ الْعُصَاةِ، وَإِنْزَالُ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ، وَأَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ مَا يَفْعَلُهُ الْمَلِكُ إِذَا غَضِبَ عَلَى مَنْ تَحْتَ يَدِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ، وَنَسْأَلُهُ رِضَاهُ وَرَحْمَتَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ "عَلَيْهِمُ" الْأُولَى وَ"عَلَيْهِمُ" الثَّانِيَةِ؟

قُلْتُ:

الْأُولَى: مَحَلُّهَا النَّصْبُ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ.

وَالثَّانِيَةُ: مَحَلُّهَا الرَّفْعُ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ دَخَلَتْ: "لَا" فِي ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾[5]؟

---

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

[2] سورة ، الآية الْفَاتِحَةَ.

[3] سورة الْمَائِدَةِ، الآية 60.

[4] سورة الْمَائِدَةِ، الآية 77.

[5] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

قُلْتُ: لِمَا فِي (غَيْرِ) مِنْ مَعْنَى النَّفْيِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

وَتَقُولُ: أَنَا زَيْدًا غَيْرَ ضَارِبٍ، مَعَ امْتِنَاعِ قَوْلِكَ: أَنَا زَيْدًا مِثْلَ ضَارِبٍ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: أَنَا زَيْدًا لَا ضَارِبَ.

وَعَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّهُمَا قَرَآ: (وَغَيْرِ الضَّالِّينَ) وَقَرَأَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ: "وَلَا الضَّأْلِينَ" بِالْهَمْزِ، كَمَا قَرَأَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ: "وَلَا جَأْنٌ"، وَهَذِهِ لُغَةُ مَنْ جَدَّ فِي الْهَرَبِ مِنِ الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَمِنْهَا مَا حَكَاهُ أَبُو زَيْدٍ مِنْ قَوْلِهِمْ: شَأْبَةٌ، وَدَأْبَةٌ.

آمِينَ: صَوْتٌ سُمِّيَ بِهِ الْفِعْلُ الَّذِي هُوَ اسْتَجِبْ، كَمَا أَنَّ: "رُوَيْدَ، وَحَيَّهَلْ، وَهَلُمَّ": أَصْوَاتٌ سُمِّيَتْ بِهَا الْأَفْعَالُ الَّتِي هِيَ "أَمْهِلْ، وَأَسْرِعْ، وَأَقْبِلْ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْ مَعْنَى آمِينَ؟ فَقَالَ: "افْعَلْ "وَفِيهِ لُغَتَانِ: مَدُّ أَلِفِهِ وَقَصْرُهَا؛ قَالَ:

وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَـا

وَقَالَ:

أَمِينَ فَزَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَقَّنَنِي جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– آمِينَ عِنْدَ فَرَاغِي مِنْ قِرَاءَةِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ" وَقَالَ: "إِنَّهُ كَالْخَتْمِ عَلَى الْكِتَابِ"، وَلَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يُثْبَتْ فِي الْمَصَاحِفِ، وَعَنِ الْحَسَنِ: لَا يَقُولُهَا الْإِمَامُ، لِأَنَّهُ الدَّاعِي؛ وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ– مِثْلُهُ، وَالْمَشْهُورُ عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ يُخْفِيهَا، وَرَوَى الْإِخْفَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُغَفَّلٍ، وَأَنَسٌ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ يَجْهَرُ بِهَا.

وَعَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ إِذَا قَرَأَ: وَلَا الضَّالِّينَ، قَالَ: آمِينَ، وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ .

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: "أَلَا أُخْبِرُكَ بِسُورَةٍ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ مِثْلِهَا؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ".

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "إِنَّ الْقَوْمَ لَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ حَتَّمًا مَقْضِيًّا، فَيَقْرَأُ صَبِيٌّ مِنْ صِبْيَانِهِمْ فِي الْكِتَابِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، فَيَسْمَعُهُ اللَّهُ –تَعَالَى– فَيَرْفَعُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ الْعَذَابَ أَرْبَعِينَ سَنَةً".

[1] سورة الْفَاتِحَةَ، الآية .

سَومَةُ المَفروضَةُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مدنية،

وَهِيَ مِائَتَانِ وَسِتٌّ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ [1]

﴿الم﴾[2]

اعْلَمْ أَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي يُتَهَجَّى بِهَا أَسْمَاءٌ ، مُسَمَّيَاتُهَا الْحُرُوفُ الْمَبْسُوطَةُ الَّتِي مِنْهَا رُكِّبَتِ الْكَلِمُ، فَقَوْلُكَ: (ضَادٌ) اسْمٌ سُمِّيَ بِهِ: "ضَهْ" مِنْ ضَرَبَ إِذَا تَهَجَّيْتَهُ، وَكَذَلِكَ: "رَا، بَا": اسْمَانِ، لِقَوْلِكَ: "رَهْ، بِهْ".

وَقَدْ رُوعِيَتْ فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الْمُسَمَّيَاتِ لَمَّا كَانَتْ أَلْفَاظًا كَأَسَامِيِّهَا، وَهِيَ حُرُوفُ وِحْدَانٌ وَالْأَسَامِي عَدَدُ حُرُوفِهَا مُرْتَقٍ إِلَى الثَّلَاثَةِ، اتَّجَهَ لَهُمْ طَرِيقٌ إِلَى أَنْ يَدُلُّوا فِي التَّسْمِيَةِ عَلَى الْمُسَمَّى فَلَمْ يُغْفِلُوهَا، وَجَعَلُوا الْمُسَمَّى صَدْرَ كُلِّ اسْمٍ مِنْهَا كَمَا تَرَى، إِلَّا الْأَلِفَ فَإِنَّهُمُ اسْتَعَارُوا الْهَمْزَةَ مَكَانَ مُسَمَّاهَا، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا سَاكِنًا.

وَمِمَّا يُضَاهِيهَا فِي إِيدَاعِ اللَّفْظِ دَلَالَةً عَلَى الْمَعْنَى: التَّهْلِيلُ، وَالْحَوْقَلَةُ، وَالْحَيْعَلَةُ، وَالْبَسْمَلَةُ، وَحُكْمُهَا – مَا لَمْ تَلِهَا الْعَوَامِلُ – أَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ الْأَعْجَازِ مَوْقُوفَةً كَأَسْمَاءِ الْأَعْدَادِ، فَيُقَالُ: "أَلِفْ لَامْ مِيمْ"، كَمَا يُقَالُ: "وَاحِدْ اثْنَانْ ثَلَاثَةْ" فَإِذَا وَلِيَتْهَا الْعَوَامِلُ أَدْرَكَهَا الْإِعْرَابُ، تَقُولُ: هَذِهِ أَلِفٌ، وَكَتَبْتُ أَلِفًا، وَنَظَرْتُ إِلَى أَلِفٍ، وَهَكَذَا كُلُّ اسْمٍ عَمَدْتَ إِلَى

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

تَأْدِيَةِ ذَاتِهِ فَحَسْبُ، قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ فِيهِ بِدُخُولِ الْعَوَامِلِ شَيْءٌ مِنْ تَأْثِيرَاتِهَا، فَحَقُّكَ أَنْ تَلْفَظَ بِهِ مَوْقُوفًا.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُلْقِيَ عَلَى الْحَاسِبِ أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَةً لِيَرْفَعَ حُسْبَانَهَا، كَيْفَ تَصْنَعُ، وَكَيْفَ تُلْقِيهَا أَغْفَالًا مِنْ سِمَةِ الْإِعْرَابِ؟ فَتَقُولُ: "دَارْ، غُلَامْ، جَارِيَةْ، ثَوْبْ، بِسَاطْ". وَلَوْ أَعْرَبْتَ رَكِبْتَ شَطَطًا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَضَيْتَ لِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ بِالِاسْمِيَّةِ؟ وَهَلَّا زَعَمْتَ أَنَّهَا حُرُوفٌ كَمَا وَقَعَ فِي عِبَارَاتِ الْمُتَقَدِّمِينَ؟

قُلْتُ: قَدِ اسْتَوْضَحْتُ بِالْبُرْهَانِ النَّيِّرِ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ غَيْرُ حُرُوفٍ، فَعَلِمْتُ أَنَّ قَوْلَهُمْ خَلِيقٌ بِأَنْ يُصْرَفَ إِلَى التَّسَامُحِ، وَقَدْ وَجَدْنَاهُمْ مُتَسَامِحِينَ فِي تَسْمِيَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَا يَقْدَحُ إِشْكَالٌ فِي اسْمِيَّتِهَا كَالظُّرُوفِ وَغَيْرِهَا بِالْحُرُوفِ، مُسْتَعْمِلِينَ الْحَرْفَ فِي مَعْنَى الْكَلِمَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَكَ: "أَلِفْ": دَلَالَتُهُ عَلَى أَوْسَطِ حُرُوفِ: "قَالَ، وَقَامَ" دَلَالَةُ "فَرَسٍ" عَلَى الْحَيَوَانِ الْمَخْصُوصِ، لَا فَضْلَ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى التَّسْمِيَةِ بَيْنَ الدَّلَالَتَيْنِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْحَرْفَ مَا دَلَّ عَلَى مَعْنًى فِي غَيْرِهِ، وَهَذَا كَمَا تَرَى دَالٌّ عَلَى مَعْنًى فِي نَفْسِهِ، وَلِأَنَّهَا مُتَصَرَّفٌ فِيهَا بِالْإِمَالَةِ كَقَوْلِكَ: "بَا، تَا" وَبِالتَّفْخِيمِ كَقَوْلِكَ: "يَا، هَا"، وَبِالتَّعْرِيفِ، وَالتَّنْكِيرِ، وَالْجَمْعِ وَالتَّصْغِيرِ، وَالْوَصْفِ، وَالْإِسْنَادِ، وَالْإِضَافَةِ، وَجَمِيعِ مَا لِلْأَسْمَاءِ الْمُتَصَرِّفَةِ، ثُمَّ إِنِّي عَثَرْتُ مِنْ جَانِبِ الْخَلِيلِ عَلَى نَصٍّ فِي ذَلِكَ؟!

قَالَ سِيبَوَيْهِ: قَالَ الْخَلِيلُ: يَوْمًا – وَسَأَلَ أَصْحَابَهُ: "كَيْفَ تَقُولُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَلْفِظُوا بِالْكَافِ الَّتِي فِي لَكَ، وَالْبَاءِ الَّتِي فِي ضَرَبَ"؟

فَقِيلَ: نَقُولُ: "بَاءٌ، كَافٌ"، فَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُمْ بِالِاسْمِ، وَلَمْ تَلْفِظُوا بِالْحَرْفِ، وَقَالَ: أَقُولُ: "كَهْ، بَهْ".

وَذَكَرَ أَبُو عَلِيٍّ فِي كِتَابِ: "الْحُجَّةِ" فِي: (يس): وَإِمَالَةِ يَا أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا زَيْدُ فِي النِّدَاءِ، فَأَمَالُوا وَإِنْ كَانَ حَرْفًا، قَالَ: فَإِذَا كَانُوا قَدْ أَمَالُوا مَا لَا يُمَالُ مِنَ الْحُرُوفِ مِنْ أَجْلِ الْيَاءِ، فَلِأَنْ يُمِيلُوا الِاسْمَ الَّذِي هُوَ "يس" أَجْدَرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ أَسْمَاءٌ لِمَا يُلْفَظُ بِهَا؟

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيِّ قَبِيلٍ هِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ، أَمُعْرَبَةٌ أَمْ مَبْنِيَّةٌ؟

قُلْتُ: بَلْ هِيَ أَسْمَاءٌ مُعْرَبَةٌ، وَإِنَّمَا سُكِّنَتْ سُكُونَ "زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَغَيْرِهِمَا" مِنَ الْأَسْمَاءِ، حَيْثُ لَا يَمَسُّهَا إِعْرَابٌ؛ لِفَقْدِ مُقْتَضِيهِ وَمُوجِبِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ سُكُونَهَا وَقْفٌ وَلَيْسَ بِبِنَاءٍ: أَنَّهَا لَوْ بُنِيَتْ لَحُذِيَ بِهَا حَذْوَ: "كَيْفَ، وَأَيْنَ، وَهَؤُلَاءِ". وَلَمْ يُقَلْ: "ص، ق، ن" مَجْمُوعًا فِيهَا بَيْنَ السَّاكِنِينَ .

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ لَفَظَ الْمُتَهَجِّي بِمَا آخِرُهُ أَلِفٌ مِنْهَا مَقْصُورًا، فَلَمَّا أَعْرَبَ مَدَّ فَقَالَ: هَذِهِ "بَاءٌ، وَيَاءٌ، وَهَاءٌ" وَذَلِكَ يُخَيَّلُ أَنَّ وِزَانَهَا وِزَانُ قَوْلِكَ: "لَا" مَقْصُورَةً. فَإِذَا جَعَلْتَهَا اسْمًا مَدَدْتَ، فَقُلْتَ: كَتَبْتُ "لَاءً"؟

قُلْتُ: هَذَا التَّخَيُّلُ يَضْمَحِلُّ بِمَا لَخَّصْتُهُ مِنَ الدَّلِيلِ.

وَالسَّبَبُ فِي أَنْ قُصِرَتْ مُتَهَجَّاةً، وَمُدَّتْ حِينَ مَسَّهَا الْإِعْرَابُ أَنَّ حَالَ التَّهَجِّي خَلِيقَةٌ بِالْأَخَفِّ الْأَوْجَزِ، وَاسْتِعْمَالُهَا فِيهِ أَكْثَرُ .

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ لِحُرُوفِ الْمُعْجَمِ، وَأَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْمُعْرَبَةِ، وَأَنَّ سُكُونَ أَعْجَازِهَا عِنْدَ الْهِجَاءِ لِأَجْلِ الْوَقْفِ، فَمَا وَجْهُ وُقُوعِهَا عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ فَوَاتِحَ لِلسُّورِ؟

قُلْتُ: فِيهِ أَوْجُهٌ:

– أَحَدُهَا – وَعَلَيْهِ إِطْبَاقُ الْأَكْثَرِ–: أَنَّهَا أَسْمَاءُ السُّوَرِ، وَقَدْ تَرْجَمَ صَاحِبُ الْكِتَابِ الْبَابَ الَّذِي كَسَرَهُ عَلَى ذِكْرِهَا فِي حَدِّ مَا لَا يَنْصَرِفُ بِـ "بَابُ أَسْمَاءِ السُّوَرِ"، وَهِيَ فِي ذَلِكَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

* أَحَدُهُمَا مَا لَا يَتَأَتَّى فِيهِ إِعْرَابٌ، نَحْوُ: ﴿كهيعص﴾[1] وَ﴿المر﴾[2].

* وَالثَّانِي: مَا يَتَأَتَّى فِيهِ الْإِعْرَابُ، وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ اسْمًا فَرْدًا، ك ﴿ص﴾[3]، وَ﴿ق﴾[4]، وَ﴿ن﴾[5]" أَوْ أَسْمَاءً عِدَّةً مَجْمُوعُهَا عَلَى زِنَةِ مُفْرَدٍ، ك "﴿حم﴾[6]، وَ﴿طس﴾[7]، وَ﴿يس﴾[8]"؛

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

فَإِنَّهَا مُوَازِنَةٌ لِـ ﴿قَابِيلَ﴾[1] وَ﴿هَابِيلَ﴾[2]؛ وَكَذَلِكَ ﴿طسم﴾ يَتَأَتَّى فِيهَا أَنْ تَفْتَحَ نُونُهَا، وَتَصِيرَ (ميم) مَضْمُومَةً إِلَى ﴿طس﴾[3] فَيُجْعَلَا اسْمًا وَاحِدًا، كَدَارَا بِحَرْدَ.

– فَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مَحْكِيٌّ لَيْسَ إِلَّا.

– وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَسَائِغٌ فِيهِ الْأَمْرَانِ: الْإِعْرَابُ وَالْحِكَايَةُ.

قَالَ قَاتِلُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ السَّجَّادِ، وَهُوَ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى الْعَبْسِيُّ:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ؟

فَأَعْرَبَ حَامِيمَ وَمَنَعَهَا الصَّرْفَ، وَهَكَذَا كُلُّ مَا أُعْرِبَ مِنْ أَخَوَاتِهَا، لِاجْتِمَاعِ سَبَبَيْ مَنْعِ الصَّرْفِ فِيهَا، وَهُمَا: الْعَلَمِيَّةُ وَالتَّأْنِيثُ.

وَالْحِكَايَةُ: أَنْ تَجِيءَ بِالْقَوْلِ بَعْدَ نَقْلِهِ عَلَى اسْتِبْقَاءِ صُورَتِهِ الْأُولَى، كَقَوْلِكَ: "دَعْنِي مِنْ تَمْرَتَانِ"، وَبَدَأْتُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ، وَقَرَأْتُ: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾[4] قَالَ:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيـــــمٍ (أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارُ)

وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

سَمِعْتُ (النَّاسُ يَنْتَجِعُونَ غَيْثًـــا) فَقُلْتُ لِصَيْدَحَ انْتَجِعِي بِـــلَالَا

وَقَالَ آخَرُ:

تَنَادَوْا بِـ(الرَّحِيلَ) غَـــــــدًا وَفِي تَرْحَالِهِمْ نَفْسِـــــــي

وَرُوِيَ مَنْصُوبًا وَمَجْرُورًا.

وَيَقُولُ أَهْلُ الْحِجَازِ فِي اسْتِعْلَامِ مَنْ يَقُولُ: "رَأَيْتُ زَيْدًا": "مَنْ زَيْدًا؟".

وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: "سَمِعْتُ مِنَ الْعَرَبِ: "لَا مِنْ أَيْنَ يَا فَتَى".

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: "﴿ص﴾[5]، وَ﴿ق﴾[6]، وَ﴿ن﴾[7]" مَفْتُوحَاتٍ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة النُّورِ، الآية 1.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قُلْتُ: الْأَوْجَهُ أَنْ يُقَالَ: ذَاكَ نَصْبٌ وَلَيْسَ بِفَتْحٍ، وَإِنَّمَا لَمْ يَصْحَبْهُ التَّنْوِينُ، لِامْتِنَاعِ [الصَّرْفِ] عَلَى مَا ذَكَرْتُ، وَانْتِصَابُهَا بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، نَحْوُ: "أَذْكُرُ".

وَقَدْ أَجَازَ سِيبَوَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ فِي: "﴿حم﴾[1]، وَ﴿طس﴾[2]، وَ﴿يس﴾[3]"، لَوْ قُرِئَ بِهِ.

وَحَكَى أَبُو سَعِيدٍ السِّيرَافِيُّ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَرَأَ: ﴿يس﴾[4] وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: حُرِّكَتْ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، كَمَا قَرَأَ مَنْ قَرَأَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾[5].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا زَعَمْتَ أَنَّهَا مُقْسَمٌ بِهَا؟ وَأَنَّهَا نَصَبَتْ قَوْلَهُمْ: "[نَعَمِ] اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ"، وَ"آيِ اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ"، عَلَى حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ، وَإِعْمَالِ فِعْلِ الْقَسَمِ؟

وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

أَلَا رُبَّ مِنْ قَلْبِي لَهُ اللَّهَ نَاصِحٌ

وَقَالَ آخَرُ:

فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيـــــــــدُ

قُلْتُ: إِنَّ الْقُرْآنَ وَالْقَلَمَ بَعْدَ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ مَحْلُوفٌ بِهِمَا، فَلَوْ زَعَمْتَ ذَلِكَ، لَجَمَعْتَ بَيْنَ قَسَمَيْنِ عَلَى مُقْسَمٍ وَاحِدٍ، وَقَدِ اسْتَكْرَهُوا ذَلِكَ.

قَالَ الْخَلِيلُ فِي قَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[6]: الْوَاوَانِ الْأُخْرَيَانِ لَيْسَتَا بِمَنْزِلَةِ الْأُولَى، وَلَكِنَّهُمَا الْوَاوَانِ اللَّتَانِ تَضُمَّانِ الْأَسْمَاءِ إِلَى الْأَسْمَاءِ فِي قَوْلِكَ: "مَرَرْتُ بِزَيْدٍ وَعَمْرٍو" وَالْأُولَى بِمَنْزِلَةِ الْبَاءِ وَالتَّاءِ.

قَالَ سِيبَوَيْهِ: قُلْتُ لِلْخَلِيلِ: فَلِمَ لَا تَكُونُ الْأُخْرَيَانِ بِمَنْزِلَةِ الْأُولَى؟

فَقَالَ: إِنَّمَا أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى شَيْءٍ، وَلَوْ كَانَ انْقَضَى قَسَمُهُ بِالْأَوَّلِ عَلَى شَيْءٍ لَجَازَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ كَلَامًا آخَرَ، فَيَكُونُ كَقَوْلِكَ: "بِاللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ"، "بِاللَّهِ لَأَخْرُجَنَّ الْيَوْمَ"، وَلَا يَقْوَى أَنْ تَقُولَ: "وَحَقِّكَ وَحَقِّ زَيْدٍ لَأَفْعَلَنَّ". وَالْوَاوُ الْأَخِيرَةُ: وَاوُ قَسَمٍ، لَا يَجُوزُ إِلَّا مُسْتَكْرَهًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة اللَّيْلِ، الآيات 1 إلى 3.

قَالَ: وَتَقُولُ: "وَحَيَاتِي ثُمَّ حَيَاتِكَ لَأَفْعَلَنَّ"، فَثُمَّ هَهُنَا بِمَنْزِلَةِ الْوَاوِ. هَذَا وَلَا سَبِيلَ فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ إِلَى أَنْ تُجْعَلَ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ، لِمُخَالَفَةِ الثَّانِي الْأَوَّلَ فِي الْإِعْرَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدِّرْهَا مَجْرُورَةً بِإِضْمَارِ الْبَاءِ الْقَسَمِيَّةِ لَا بِحَذْفِهَا، فَقَدْ جَاءَ عَنْهُمْ: "اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ" مَجْرُورًا، وَنَظِيرُهُ قَوْلِهِمْ: "لَاهِ أَبُوكَ"، غَيْرَ أَنَّهَا فُتِحَتْ فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ لِكَوْنِهَا غَيْرَ مَصْرُوفَةٍ، وَاجْعَلِ الْوَاوَ لِلْعَطْفِ، حَتَّى يَسْتَتِبَّ لَكَ الْمَصِيرُ إِلَى نَحْوِ مَا أَشَرْتَ إِلَيْهِ.

قُلْتُ: هَذَا لَا يَبْعُدُ عَنِ الصَّوَابِ، وَيُعَضِّدُهُ مَا رَوَوْا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّهُ قَالَ: "أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ "ص وَ ق" بِالْكَسْرِ؟

قُلْتُ: وَجْهُهَا مَا ذَكَرْتُ مِنَ التَّحْرِيكِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَالَّذِي يَبْسُطُ مِنْ عُذْرِ الْمُحَرِّكِ: أَنَّ الْوَقْفَ لَمَّا اسْتَمَرَّ بِهَذِهِ الْأَسَامِي، شَاكَلَتْ لِذَلِكَ مَا اجْتَمَعَ فِي آخِرِهِ سَاكِنَانِ مِنَ الْمَبْنِيَّاتِ، فَعُومِلَتْ تَارَةً مُعَامَلَةَ "الْآنَ" وَأُخْرَى مُعَامَلَةَ "هَؤُلَاءِ".

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ تُسَوِّغُ لِي فِي الْمَحْكِيَّةِ مِثْلَ مَا سَوَّغْتَ لِي فِي الْمُعْرَبَةِ مِنْ إِرَادَةِ مَعْنَى الْقَسَمِ؟ قُلْتُ: لَا عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ، وَأَنْ تُقَدِّرَ حَرْفَ الْقَسَمِ مُضْمَرًا فِي نَحْوِ قَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[1]، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَقْسَمَ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وَبِالْكِتَابِ الْمُبِينِ: إِنَّا جَعَلْنَاهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: "حم لَا يُبْصِرُونَ"، فَيَصْلُحُ أَنْ يُقْضَى لَهُ بِالْجَرِّ وَالنَّصْبِ جَمِيعًا عَلَى حَذْفِ الْجَارِّ وَإِضْمَارِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى تَسْمِيَةِ السُّورِ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ خَاصَّةً؟

قُلْتُ: كَأَنَّ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ الْفُرْقَانَ لَيْسَ إِلَّا كَلِمًا عَرَبِيَّةً مَعْرُوفَةَ التَّرْكِيبِ مِنْ مُسَمَّيَاتِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ، كَمَا قَالَ –عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بَالُهَا مَكْتُوبَةً فِي الْمُصْحَفِ عَلَى صُوَرِ الْحُرُوفِ أَنْفُسِهَا، لَا عَلَى صُوَرِ أَسَامِيِّهَا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْكَلِمَ لَمَّا كَانَتْ مُرَكَّبَةً مِنْ ذَوَاتِ الْحُرُوفِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْعَادَةُ مَتَى تُهَجِّيَتْ وَمَتَى قِيلَ لِلْكَاتِبِ: اكْتُبْ "كَيْتَ وَكَيْتَ" أَنْ يَلْفِظَ بِالْأَسْمَاءِ، وَتَقَعَ فِي الْكِتَابَةِ الْحُرُوفُ أَنْفُسُهَا، عُمِلَ عَلَى تِلْكَ الشَّاكِلَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي كِتَابَةِ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ.

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآيتان 1–2.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية 2.

وَأَيْضًا، فَإِنَّ شُهْرَةَ أَمْرِهَا، وَإِقَامَةَ أَلْسُنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ لَهَا، وَأَنَّ اللَّافِظَ بِهَا غَيْرَ مُتَهَجَّاةٍ لَا يُحَلَّى بِطَائِلٍ مِنْهَا، وَأَنَّ بَعْضَهَا مُفْرَدٌ لَا يَخْطُرُ بِبَالِ غَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَوْرِدِهِ، أَمِنَتْ وُقُوعَ اللَّبْسِ فِيهَا، وَقَدِ اتَّفَقَتْ فِي خَطِّ الْمُصْحَفِ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ الْقِيَاسَاتِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا عِلْمُ الْخَطِّ وَالْهِجَاءِ، ثُمَّ مَا عَادَ ذَلِكَ بِضَيْرٍ وَلَا نُقْصَانٍ، لِاسْتِقَامَةِ اللَّفْظِ، وَبَقَاءِ الْحِفْظِ، وَكَانَ اتِّبَاعُ خَطِّ الْمُصْحَفِ سُنَّةً لَا تُخَالَفُ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دَرُسْتُوَيْهِ فِي كِتَابِهِ: "الْمُتَرْجَمِ بِكِتَابِ الْكِتَابِ الْمُتَمِّمِ: "فِي الْخَطِّ وَالْهِجَاءِ خَطَّانِ لَا يُقَاسَانِ، خَطُّ الْمُصْحَفِ، لِأَنَّهُ سُنَّةٌ، وَخَطُّ الْعَرُوضِ، لِأَنَّهُ يَثْبُتُ فِيهِ مَا أَثْبَتَهُ اللَّفْظُ وَيَسْقُطُ عَنْهُ مَا أَسْقَطَهُ .

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ وُرُودُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ هَكَذَا مَسْرُودَةً عَلَى نَمَطِ التَّعْدِيدِ، كَالْإِيقَاظِ وَقَرْعِ الْعَصَا لِمَنْ تَحَدَّى بِالْقُرْآنِ وَبِغَرَابَةِ نَظْمِهِ، وَكَالتَّحْرِيكِ لِلنَّظَرِ فِي أَنَّ هَذَا الْمَتْلُوَّ عَلَيْهِمْ وَقَدْ عَجَزُوا عَنْهُ عَنْ آخِرِهِمْ كَلَامٌ مَنْظُومٌ مِنْ عَيْنِ مَا يَنْظِمُونَ مِنْهُ كَلَامَهُمْ، لِيُؤَدِّيَهُمُ النَّظَرُ إِلَى أَنْ يَسْتَيْقِنُوا أَنْ لَمْ تَتَسَاقَطْ مَقْدِرَتُهُمْ دُونَهُ، وَلَمْ تَظْهَرْ مُعْجِزَتُهُمْ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ بَعْدَ الْمُرَاجَعَاتِ الْمُتَطَاوِلَةِ، وَهُمْ أُمَرَاءُ الْكَلَامِ، وَزُعَمَاءُ الْحِوَارِ، وَهُمُ الْحُرَّاصُ عَلَى التَّسَاجُلِ فِي اقْتِضَابِ الْخُطَبِ، وَالْمُتَهَالِكُونَ عَلَى الِافْتِنَانِ فِي الْقَصِيدِ وَالرَّجَزِ، وَلَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْجَزَالَةِ وَحُسْنِ النَّظْمِ الْمَبَالِغَ الَّتِي بَزَّتْ بَلَاغَةَ كُلِّ نَاطِقٍ، وَشَقَّتْ غُبَارَ كُلِّ سَابِقٍ، وَلَمْ يَتَجَاوَزِ الْحَدَّ الْخَارِجَ مِنْ قُوَى الْفُصَحَاءِ، وَلَمْ يَقَعْ وَرَاءَ مَطَامِحِ أَعْيُنِ الْبُصَرَاءِ، إِلَّا لِأَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ كَلَامُ خَالِقِ الْقُوَى وَالْقُدَرِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْخَلَاقَةِ بِالْقَبُولِ بِمَنْزِلٍ، وَلِنَاصِرِهِ عَلَى الْأَوَّلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، مَصْبُوبًا فِي أَسَالِيبِهِمْ وَاسْتِعْمَالَاتِهِمْ، وَالْعَرَبُ لَمْ تَتَجَاوَزْ مَا سَمَّوْا بِهِ مَجْمُوعَ اسْمَيْنِ، وَلَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَجْمُوعِ ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّهَا أَسْمَاءُ السُّوَرِ حَقِيقَةً يَخْرُجُ إِلَى مَا لَيْسَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَيُؤَدِّي أَيْضًا إِلَى صَيْرُورَةِ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى وَاحِدًا.

فَإِنِ اعْتَرَضْتَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ قَوْلٌ مَقُولٌ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ، أَجَابَكَ بِأَنَّ لَهُ مَحْمَلًا سِوَى مَا يُذْهَبُ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ نَظِيرُ قَوْلِ النَّاسِ: فُلَانٌ يَرْوِي، قِفَا نَبْكِ، وَعَفَتِ الدِّيَارُ،

وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ: مَا قَرَأْتَ؟ فَيَقُولُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1] وَ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2]، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾[3]، وَ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4].

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْجُمَلُ بِأَسَامِي هَذِهِ الْقَصَائِدِ وَهَذِهِ السُّوَرِ وَالْآيِ، وَإِنَّمَا تَعْنِي رِوَايَةَ الْقَصِيدَةِ الَّتِي ذَاكَ اسْتِهْلَالُهَا، وَتِلَاوَةَ السُّورَةِ أَوِ الْآيَةِ الَّتِي تِلْكَ فَاتِحَتُهَا.

فَلَمَّا جَرَى الْكَلَامُ عَلَى أُسْلُوبِ مَنْ يَقْصِدُ التَّسْمِيَةَ، وَاسْتُفِيدَ مِنْهَا مَا يُسْتَفَادُ مِنَ التَّسْمِيَةِ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ دُونَ الْحَقِيقَةِ .

وَلِلْمُجِيبِ عَنِ الِاعْتِرَاضَيْنِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنْ يَقُولَ: التَّسْمِيَةُ بِثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ فَصَاعِدًا مُسْتَنْكَرَةٌ لَعَمْرِي، وَخُرُوجٌ عَنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ إِذَا جُعِلَتِ اسْمًا وَاحِدًا عَلَى طَرِيقَةِ: "حَضْرَمَوْتَ"، فَأَمَّا غَيْرَ مُرَكَّبَةٍ مَنْثُورَةً نَثْرَ أَسْمَاءِ الْعَدَدِ فَلَا اسْتِنْكَارَ فِيهَا، لِأَنَّهَا مِنْ بَابِ التَّسْمِيَةِ بِمَا حَقُّهُ أَنْ يُحْكَى حِكَايَةً، كَمَا سَمَّوْا بِـ: "تَأَبَّطَ شَرًّا"، وَبَرِقَ نَحْرُهُ، وَشَابَ قَرْنَاهَا. وَكَمَا لَوْ سُمِّيَ بِـ: "زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ، أَوْ بَيْتُ شِعْرٍ".

وَنَاهِيكَ بِتَسْوِيَةِ سِيبَوَيْهِ بَيْنَ التَّسْمِيَةِ بِالْجُمْلَةِ وَالْبَيْتِ مِنَ الشِّعْرِ، وَبَيْنَ التَّسْمِيَةِ بِطَائِفَةٍ مِنْ أَسْمَاءِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ .

وَأَمَّا تَسْمِيَةُ السُّورَةِ كُلِّهَا بِفَاتِحَتِهَا، فَلَيْسَتْ بِتَصْيِيرِ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى وَاحِدًا، لِأَنَّهَا تَسْمِيَةُ مُؤَلَّفٍ بِمُفْرَدِهِ، وَالْمُؤَلَّفُ غَيْرُ الْمُفْرَدِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ جَعَلُوا اسْمَ الْحِرَفِ مُؤَلَّفًا مِنْهُ وَمِنْ حَرْفَيْنِ مَضْمُومَيْنِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِمْ: "صاد"، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ جَعْلِ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى وَاحِدًا، حَيْثُ كَانَ الِاسْمُ مُؤَلَّفًا وَالْمُسَمَّى مُفْرَدًا .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ تَرِدَ السُّورُ مُصَدَّرَةً بِذَلِكَ، لِيَكُونَ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ مُسْتَقِلًّا بِوَجْهٍ مِنَ الْإِعْرَابِ، وَتَقَدُّمُهُ مِنْ دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ. وَذَلِكَ أَنَّ النُّطْقَ بِالْحُرُوفِ أَنْفُسِهَا كَانَتِ الْعَرَبُ فِيهِ مُسْتَوِيَةَ الْأَقْدَامِ: الْأُمِّيُّونَ مِنْهُمْ وَأَهْلُ الْكِتَابِ، بِخِلَافِ النُّطْقِ بِأَسَامِي الْحُرُوفِ. فَإِنَّهُ كَانَ مُخْتَصًّا بِمَنْ خَطَّ وَقَرَأَ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ، وَكَانَ مُسْتَغْرَبًا مُسْتَبْعَدًا مِنَ

---

[1] سورة الْفَاتِحَة، الآية 1.

[2] سورة التَّوْبَة، الآية 1.

[3] سورة النِّسَاء، الآية 11.

[4] سورة النُّور، الآية 35.

الْأُمِّيِّ التَّكَلُّمُ بِهَا اسْتِبْعَادَ الْخَطِّ وَالتِّلَاوَةِ، كَمَا قَالَ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1].

فَكَانَ حُكْمُ النُّطْقِ بِذَلِكَ – مَعَ اشْتِهَارِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِمَّنِ اقْتَبَسَ شَيْئًا مِنْ أَهْلِهِ– حُكْمَ الْأَقَاصِيصِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِهَا، فِي أَنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَهُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ، وَشَاهِدٌ بِصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وَبِمَنْزِلَةِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالرَّطَانَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْمَعَهَا مِنْ أَحَدٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ مَا أَوْرَدَهُ اللَّهُ –عَزَّ سُلْطَانُهُ– فِي الْفَوَاتِحِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَجَدْتَهَا نِصْفَ أَسَامِي حُرُوفِ الْمُعْجَمِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ سَوَاءً، وَهِيَ "الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالصَّادُ، وَالرَّاءُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالْيَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالطَّاءُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالْقَافُ، وَالنُّونُ" فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً عَلَى عَدَدِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ.

ثُمَّ إِذَا نَظَرْتَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ وَجَدْتَهَا مُشْتَمِلَةً عَلَى أَنْصَافِ أَجْنَاسِ الْحُرُوفِ، بَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهَا مِنَ الْمَهْمُوسَةِ نِصْفُهَا: "الصَّادُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ".

وَمِنَ الْمَجْهُورَةِ نَصِفُهَا: "الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالطَّاءُ، وَالْقَافُ، وَالْيَاءُ، وَالنُّونُ".

وَمِنَ الشَّدِيدَةِ نَصِفُهَا: "الْأَلِفُ، وَالْكَافُ، وَالطَّاءُ، وَالْقَافُ".

وَمِنَ الرَّخْوَةِ نَصِفُهَا: "اللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالصَّادُ، وَالْهَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالْيَاءُ، وَالنُّونُ".

وَمِنَ الْمُطْبَقَةِ نَصِفُهَا: "الصَّادُ، وَالطَّاءُ".

وَمِنَ الْمُنْفَتِحَةِ نَصِفُهَا: "الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالْقَافُ، وَالْيَاءُ، وَالنُّونُ".

وَمِنَ الْمُسْتَعْلِيَةِ نَصِفُهَا: "الْقَافُ، وَالصَّادُ، وَالطَّاءُ".

وَمِنَ الْمُنْخَفِضَةِ نَصِفُهَا: "الْأَلِفُ، وَاللَّامُ، وَالْمِيمُ، وَالرَّاءُ، وَالْكَافُ، وَالْهَاءُ، وَالْيَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالسِّينُ، وَالْحَاءُ، وَالنُّونُ".

وَمِنْ حُرُوفِ الْقَلْقَلَةِ نَصِفُهَا: "الْقَافُ، وَالطَّاءُ".

---

[1] سورة الْعَنْكَبُوتِ، الآية 48.

ثُمَّ إِذَا اسْتَقْرَيْتَ الْكَلِمَ وَتَرَاكِيبَهَا رَأَيْتَ الْحُرُوفَ الَّتِي أَلْغَى اللَّهُ ذِكْرَهَا مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْمَعْدُودَةِ مَكْثُورَةً بِالْمَذْكُورَةِ مِنْهَا، فَسُبْحَانَ الَّذِي دَقَّتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَتُهُ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مُعْظَمَ الشَّيْءِ وَجُلُّهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ كُلِّهِ، وَهُوَ الْمُطَابِقُ لِلطَّائِفِ التَّنْزِيلِ وَاخْتِصَارَاتِهِ، فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ اسْمُهُ عَدَّدَ عَلَى الْعَرَبِ الْأَلْفَاظَ الَّتِي مِنْهَا تَرَاكِيبُ كَلَامِهِمْ؛ إِشَارَةً إِلَى مَا ذَكَرْتُ مِنَ التَّبْكِيتِ لَهُمْ وَإِلْزَامِ الْحُجَّةِ إِيَّاهُمْ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَغَمَّدَ بِالذِّكْرِ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ أَكْثَرَهَا وُقُوعًا فِي تَرَاكِيبِ الْكَلِمِ أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ لَمَّا تَكَاثَرَ وُقُوعُهُمَا فِيهَا جَاءَتَا فِي مُعْظَمِ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ مُكَرَّرَتَيْنِ. وَهِيَ: "فَوَاتِحُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَالرُّومِ، وَالْعَنْكَبُوتِ، وَلُقْمَانَ، وَالسَّجْدَةِ، وَالْأَعْرَافِ، وَالرَّعْدِ، وَيُونُسَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَهُودَ، وَيُوسُفَ، وَالْحِجْرِ".

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا عُدِّدَتْ بِأَجْمَعِهَا فِي أَوَّلِ الْقُرْآنِ؟ وَمَا لَهَا جَاءَتْ مُفَرَّقَةً عَلَى السُّورِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ إِعَادَةَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُتَحَدَّى بِهِ مُؤَلَّفٌ مِنْهَا لَا غَيْرُ، وَتَجْدِيدَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ أَوْصَلُ إِلَى الْغَرَضِ، وَأَقَرُّ لَهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْقُلُوبِ مِنْ أَنْ يُفْرَدَ ذِكْرُهُ مَرَّةً، وَكَذَلِكَ مَذْهَبُ كُلِّ تَكْرِيرٍ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، فَمَطْلُوبٌ بِهِ تَمْكِينُ الْمُكَرَّرِ فِي النُّفُوسِ وَتَقْرِيرُهُ .

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا جَاءَتْ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ؟ وَلِمَ اخْتَلَفَتْ أَعْدَادُ حُرُوفِهَا فَوَرَدَتْ "﴿ص﴾[1] وَ﴿ق﴾[2] وَ﴿ن﴾[3]" عَلَى حَرْفٍ، وَ "﴿طه﴾[4] وَ﴿طس﴾[5] وَ﴿يس﴾[6] وَ﴿حم﴾[7]" عَلَى حَرْفَيْنِ، وَ"﴿الم﴾[8] وَ﴿الر﴾[9] وَ﴿طسم﴾[10]" عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، وَ"﴿المص﴾[11]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

[10] سورة ، الآية .

[11] سورة ، الآية .

وَ﴿المر﴾[1]"، عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرُفٍ، و"﴿كهيعص﴾[2]، وَ﴿حم عسق﴾[3]" عَلَى خَمْسَةِ أَحْرُفٍ؟

قُلْتُ: هَذَا عَلَى إِعَادَةِ افْتِنَانِهِمْ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ، وَتَصَرُّفِهِمْ فِيهِ عَلَى طُرُقٍ شَتَّى وَمَذَاهِبَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَكَمَا أَنَّ أَبْنِيَةَ كَلِمَاتِهِمْ عَلَى حَرْفٍ وَحَرْفَيْنِ إِلَى خَمْسَةِ أَحْرُفٍ لَمْ تَتَجَاوَزْ ذَلِكَ سُلِكَ بِهَذِهِ الْفَوَاتِحِ ذَلِكَ الْمَسْلَكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ اخْتِصَاصِ كُلِّ سُورَةٍ بِالْفَاتِحَةِ الَّتِي اخْتَصَّتْ بِهَا؟

قُلْتُ: إِذَا كَانَ الْغَرَضُ هُوَ التَّنْبِيهُ –وَالْمَبَادِئُ كُلُّهَا فِي تَأْدِيَةِ هَذَا الْغَرَضِ سَوَاءٌ لَا مُفَاضَلَةَ– كَانَ تَطَلُّبُ وَجْهِ الِاخْتِصَاصِ سَاقِطًا، كَمَا إِذَا سَمَّى الرَّجُلُ بَعْضَ أَوْلَادِهِ "زَيْدًا"، وَالْآخَرَ "عَمْرًا"، لَمْ يُقَلْ لَهُ: لِمَ خَصَّصْتَ وَلَدَكَ هَذَا بِزَيْدٍ وَذَاكَ بِعَمْرٍو؟ لِأَنَّ الْغَرَضَ هُوَ التَّمْيِيزُ وَهُوَ حَاصِلٌ أَيَّةَ سُلِكَ، وَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ: لِمَ سُمِّيَ هَذَا الْجِنْسُ بِالرَّجُلِ وَذَاكَ بِالْفَرَسِ، وَلِمَ قِيلَ لِلِاعْتِمَادِ الضَّرْبُ؟ وَلِلِانْتِصَابِ الْقِيَامُ؟ وَلِنَقِيضِهِ الْقُعُودُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: مَا بَالُهُمْ عَدُّوا بَعْضَ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ آيَةً دُونَ بَعْضٍ؟

قُلْتُ: هَذَا عِلْمٌ تَوْقِيفِيٌّ لَا مَجَالَ لِلْقِيَاسِ فِيهِ كَمَعْرِفَةِ السُّوَرِ.

أَمَّا ﴿الم﴾[4] فَآيَةٌ حَيْثُ وَقَعَتْ مِنَ السُّوَرِ الْمُفْتَتَحَةِ بِهَا، وَهِيَ سِتٌّ. وَكَذَلِكَ ﴿المص﴾[5] آيَةٌ، وَ﴿المر﴾[6] لَمْ تُعَدَّ آيَةً، وَ﴿الر﴾[7] لَيْسَتْ بِآيَةٍ فِي سُوَرِهَا الْخَمْسِ، وَ﴿طسم﴾[8] آيَةٌ فِي سُورَتَيْهَا، وَ "﴿طه﴾[9]، وَ﴿يس﴾[10]" آيَتَانِ، وَ"﴿طس﴾[11]" لَيْسَتْ بِآيَةٍ، وَ"﴿حم﴾[12]"

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة ، الآية .

[10] سورة ، الآية .

[11] سورة ، الآية .

[12] سورة ، الآية .

آيَةٌ فِي سُوَرِهَا كُلِّهَا، وَ"﴿حم﴾[1]، ﴿عسق﴾[2]" آيَتَانِ، وَ"﴿كهيعص﴾[3]" آيَةٌ وَاحِدَةٌ، وَ"﴿ص﴾[4] وَ﴿ق﴾[5] وَ﴿ن﴾[6]" ثَلَاثَتُهَا لَمْ تُعَدَّ آيَةً.

هَذَا مَذْهَبُ الْكُوفِيِّينَ، وَمَنْ عَدَاهُمْ لَمْ يَعُدُّوا شَيْئًا مِنْهَا آيَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ عُدَّ مَا هُوَ فِي حُكْمِ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ آيَةً؟

قُلْتُ: كَمَا عُدَّ "الرَّحْمَنُ" وَحْدَهُ وَ"مُدْهَامَّتَانِ" وَحْدَهَا آيَتَيْنِ عَلَى طَرِيقِ التَّوْقِيفِ .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا حُكْمُهَا فِي بَابِ الْوَقْفِ؟

قُلْتُ: يُوقَفُ عَلَى جَمِيعِهَا وَقْفَ التَّمَامِ إِذَا حُمِلَتْ عَلَى مَعْنًى مُسْتَقِلٍّ غَيْرِ مُحْتَاجٍ إِلَى مَا بَعْدَهُ، وَذَلِكَ إِذَا لَمْ تُجْعَلْ أَسْمَاءً لِلسُّورِ وَنُعِتَ بِهَا كَمَا يُنْعَتُ بِالْأَصْوَاتِ، أَوْ جُعِلَتْ وَحْدَهَا أَخْبَارَ ابْتِدَاءٍ مَحْذُوفٍ كَقَوْلِهِ –عَزَّ قَائِلًا–: ﴿الم اللَّهُ﴾[7]، أَيْ هَذِهِ (الم). ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾[8]

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِهَذِهِ الْفَوَاتِحِ مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، لَهَا مَحَلٌّ فِيمَنْ جَعَلَهَا أَسْمَاءً لِلسُّورِ، لِأَنَّهَا عِنْدَهُ كَسَائِرِ الْأَسْمَاءِ الْأَعْلَامِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّهَا؟

قُلْتُ: يَحْتَمِلُ الْأَوْجُهَ الثَّلَاثَةَ، أَمَّا الرَّفْعُ: فَعَلَى الِابْتِدَاءِ، وَأَمَّا النَّصْبُ وَالْجَرُّ فَلِمَا مَرَّ مِنْ صِحَّةِ الْقَسَمِ بِهَا وَكَوْنِهَا بِمَنْزِلَةِ: اللَّهَ وَاللَّهِ عَلَى اللُّغَتَيْنِ. وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْهَا أَسْمَاءً لِلسُّورِ لَمْ يُتَصَوَّرْ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَحَلٌّ فِي مَذْهَبِهِ، كَمَا لَا مَحَلَّ لِلْجُمَلِ الْمُبْتَدَأَةِ وَلِلْمُفْرَدَاتِ الْمُعَدَّدَةِ.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[9]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآيتان 1–2.

[8] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 2.

[9] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ صَحَّتِ الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ؟

قُلْتُ: وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ﴿الم﴾[1] بَعْدَمَا سَبَقَ التَّكَلُّمُ بِهِ وَتَقَضَّى، وَالْمُتَقَضَّى فِي حُكْمِ الْمُتَبَاعِدِ، وَهَذَا فِي كُلِّ كَلَامٍ: يُحَدِّثُ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ يَقُولُ: وَذَلِكَ مَا لَا شَكَّ فِيهِ. وَيَحْسُبُ الْحَاسِبُ ثُمَّ يَقُولُ: فَذَلِكَ كَذَا وَكَذَا.

وَقَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾[2]. وَقَالَ: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[3]، وَلِأَنَّهُ لَمَّا وَصَلَ مِنَ الْمُرْسَلِ إِلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ وَقَعَ فِي حَدِّ الْبُعْدِ، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ وَقَدْ أَعْطَيْتَهُ شَيْئًا: "احْتَفِظْ بِذَلِكَ".

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذُكِّرَ اسْمُ الْإِشَارَةِ – وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ مُؤَنَّثٌ وَهُوَ السُّورَةُ–؟

قُلْتُ: لَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَجْعَلَ الْكِتَابَ خَبَرَهُ أَوْ صِفَتَهُ.

فَإِنْ جَعَلْتُهُ خَبَرَهُ كَانَ ذَلِكَ فِي مَعْنَاهُ، وَمُسَمَّاهُ مُسَمَّاهُ، فَجَازَ إِجْرَاءُ حُكْمِهِ عَلَيْهِ فِي التَّذْكِيرِ، كَمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِ فِي التَّأْنِيثِ فِي قَوْلِهِمْ: مَنْ كَانَتْ أُمُّكَ.

وَإِنْ جَعَلْتُهُ صِفَتَهُ فَإِنَّمَا أُشِيرَ بِهِ إِلَى الْكِتَابِ صَرِيحًا، لِأَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ مُشَارٌ بِهِ إِلَى الْجِنْسِ الْوَاقِعِ صِفَةً لَهُ؛ تَقُولُ: هِنْدٌ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ، أَوْ ذَلِكَ الشَّخْصُ فَعَلَ كَذَا.

وَقَالَ الذُّبْيَانِيُّ:

نُبِّئْتُ نُعْمَى عَلَى الْهِجْرَانِ عَاتِبَةً سُقْيًا وَرُعْيًا لِذَاكَ الْعَاتِبِ الزَّارِي

فَإِنْ قُلْتَ: أَخْبِرْنِي عَنْ تَأْلِيفِ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[4] مَعَ ﴿الم﴾[5].

قُلْتُ: إِنْ جُعِلَتْ ﴿الم﴾[6] اسْمًا لِلسُّورَةِ، فَفِي التَّأْلِيفِ وُجُوهٌ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 68.

[3] سورة يُوسُف، الآية 37.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَنْ يَكُونَ ﴿الم﴾ مُبْتَدَأً، وَ ﴿ذَلِكَ﴾[1] مُبْتَدَأً ثَانِيًا، وَ﴿الْكِتَاب﴾[2] خَبَرَهُ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الْأَوَّلِ.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ هُوَ الْكِتَابُ الْكَامِلُ، كَأَنَّ مَا عَدَاهُ مِنَ الْكُتُبِ فِي مُقَابَلَتِهِ نَاقِصٌ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُسَمَّى كِتَابًا، كَمَا تَقُولُ: هُوَ الرَّجُلُ، أَيِ: الْكَامِلُ فِي الرُّجُولِيَّةِ، الْجَامِعُ لِمَا يَكُونُ فِي الرِّجَالِ مِنْ مَرْضِيَّاتِ الْخِصَالِ.

وَكَمَا قَالَ:

هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِـــدِ

وَأَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ صِفَةً، وَمَعْنَاهُ: هُوَ ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمَوْعُودُ، وَأَنْ يَكُونَ ﴿الم﴾[3] خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ هَذِهِ ﴿الم﴾[4]، وَيَكُونُ ذَلِكَ خَبَرًا ثَانِيًا أَوْ بَدَلًا، عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ صِفَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ: هَذِهِ "الم" جُمْلَةٌ، وَذَلِكَ الْكِتَابُ جُمْلَةٌ أُخْرَى .

وَإِنْ جُعِلَتْ "الم" بِمَنْزِلَةِ الصَّوْتِ كَانَ ﴿ذَلِكَ﴾[5] مُبْتَدَأً خَبَرُهُ الْكِتَابُ، أَيْ: ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ هُوَ الْكِتَابُ الْكَامِلُ، أَوِ الْكِتَابُ صِفَةٌ وَالْخَبَرُ مَا بَعْدَهُ، أَوْ قَدِّرَ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَيْ: هُوَ – يَعْنِي الْمُؤَلَّفَ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ– ذَلِكَ الْكِتَابُ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[6] وَتَأْلِيفُ هَذَا ظَاهِرٌ.

وَالرَّيْبُ: مَصْدَرُ رَابَنِي، إِذَا حَصَّلَ فِيكَ الرِّيبَةَ، وَحَقِيقَةُ الرِّيبَةِ: قَلَقُ النَّفْسِ وَاضْطِرَابُهَا، وَمِنْهُ مَا رَوَى الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الشَّكَّ رِيبَةٌ، وَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ"، أَيْ: فَإِنَّ كَوْنَ الْأَمْرِ مَشْكُوكًا فِيهِ مِمَّا تَقْلَقُ لَهُ النَّفْسُ وَلَا تَسْتَقِرُّ، وَكَوْنَهُ صَحِيحًا صَادِقًا مِمَّا تَطْمَئِنُّ لَهُ وَتَسْكُنُ، وَمِنْهُ: رَيْبُ الزَّمَانِ، وَهُوَ مَا يُقْلِقُ النُّفُوسَ، وَيَشْخَصُ بِالْقُلُوبِ مِنْ نَوَائِبِهِ، وَمِنْهُ: أَنَّهُ مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ، فَقَالَ: "لَا يُرِبْهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ نَفَى الرَّيْبَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِغْرَاقِ؟ وَكَمْ مِنْ مُرْتَابٍ فِيهِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قُلْتُ: مَا نَفَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَرْتَابُ فِيهِ، وَإِنَّمَا الْمَنْفِيُّ كَوْنُهُ مُتَعَلَّقًا لِلرَّيْبِ وَمَظِنَّةً لَهُ، لِأَنَّهُ مِنْ وُضُوحِ الدَّلَالَةِ وَسُطُوعِ الْبُرْهَانِ بِحَيْثُ لَا يَنْبَغِي لِمُرْتَابٍ أَنْ يَقَعَ فِيهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[1]، فَمَا أَبْعَدَ وُجُودَ الرَّيْبِ مِنْهُمْ؟

وَإِنَّمَا عَرَّفَهُمُ الطَّرِيقَ إِلَى مُزِيلِ الرَّيْبِ، وَهُوَ أَنْ يَحْزِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَيُرَوِّزُوا قُوَاهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ، هَلْ تَتِمُّ لِلْمُعَارَضَةِ أَمْ تَتَضَاءَلُ دُونَهَا؟ فَيَتَحَقَّقُوا عِنْدَ عَجْزِهِمْ أَنْ لَيْسَ فِيهِ مَجَالٌ لِلشُّبْهَةِ وَلَا مَدْخَلَ لِلرِّيبَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قُدِّمَ الظَّرْفُ عَلَى الرَّيْبِ، كَمَا قُدِّمَ عَلَى الْغَوْلِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[2]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْقَصْدَ فِي إِيلَاءِ الرَّيْبِ حَرْفَ النَّفْيِ نَفْيُ الرَّيْبِ عَنْهُ، وَإِثْبَاتُ أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا بَاطِلٌ وَكَذِبٌ، كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَدْعُونَهُ، وَلَوْ أَوْلَى الظَّرْفَ لِقَصْدٍ إِلَى مَا يَبْعُدُ عَنِ الْمُرَادِ، وَهُوَ أَنَّ كِتَابًا آخَرَ فِيهِ الرَّيْبُ لَا فِيهِ، كَمَا قُصِدَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[3] تَفْضِيلُ خَمْرِ الْجَنَّةِ عَلَى خُمُورِ الدُّنْيَا بِأَنَّهَا لَا تَغْتَالُ الْعُقُولَ كَمَا تَغْتَالُهَا هِيَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ فِيهَا مَا فِي غَيْرِهَا مِنْ هَذَا الْعَيْبِ وَالنَّقِيصَةِ، وَقَرَأَ أَبُو الشَّعْثَاءِ: (لَا رَيْبُ فِيهِ) بِالرَّفْعِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَشْهُورَةِ أَنَّ الْمَشْهُورَةَ تُوجِبُ الِاسْتِغْرَاقَ، وَهَذِهِ تُجَوِّزُهُ.

وَالْوَقْفُ عَلَى ﴿فِيهِ﴾[4] هُوَ الْمَشْهُورُ.

وَعَنْ نَافِعٍ وَعَاصِمٍ أَنَّهُمَا وَقَفَا عَلَى ﴿لَا رَيْبَ﴾[5]، وَلَا بُدَّ لِلْوَاقِفِ مِنْ أَنْ يَنْوِيَ خَبَرًا. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ﴾[6]، وَقَوْلُ الْعَرَبِ: لَا بَأْسَ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي لِسَانِ أَهْلِ الْحِجَازِ.

وَالتَّقْدِيرُ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[7].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية 23.

[2] سورة الصَّافَّات، الآية 47.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الشُّعَرَاء، الآية 50.

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿فِيهِ هُدًى﴾[1]: الْهُدَى مَصْدَرٌ عَلَى فُعَلٍ، كَالسُّرَى وَالْبُكَى، وَهُوَ الدَّلَالَةُ الْمُوصِلَةُ إِلَى الْبُغْيَةِ، بِدَلِيلِ وُقُوعِ الضَّلَالَةِ فِي مُقَابَلَتِهِ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾[2]، وَقَالَ –تَعَالَى–: ﴿لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[3].

وَيُقَالُ: مَهْدِيٌّ فِي مَوْضِعِ الْمَدْحِ كَ"مُهْتَدٍ"، وَلِأَنَّ اهْتَدَى مُطَاوِعُ هَدَى –وَلَنْ يَكُونَ الْمُطَاوِعُ فِي خِلَافِ مَعْنَى أَصْلِهِ–.

أَلَا تَرَى إِلَى نَحْوِ: غَمَّهُ فَاغْتَمَّ، وَكَسَرَهُ فَانْكَسَرَ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ؟

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ قِيلَ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[4]، وَالْمُتَّقُونَ مُهْتَدُونَ؟

قُلْتُ: هُوَ كَقَوْلِكَ لِلْعَزِيزِ الْمُكَرَّمِ: "أَعَزَّكَ اللَّهُ وَأَكْرَمَكَ"، تُرِيدُ طَلَبَ الزِّيَادَةِ إِلَى مَا هُوَ ثَابِتٌ فِيهِ وَاسْتِدَامَتَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[5].

وَوَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ سَمَّاهُمْ عِنْدَ مُشَارَفَتِهِمْ، لِاكْتِسَاءِ لِبَاسِ التَّقْوَى مُتَّقِينَ، كَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: "إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمُ الْحَجَّ فَلْيُعَجِّلْ، فَإِنَّهُ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ، وَتَكُونُ الْحَاجَةُ" فَسَمَّى الْمُشَارِفَ لِلْقَتْلِ وَالْمَرَضِ وَالضَّلَالِ: "قَتِيلًا وَمَرِيضًا، وَضَالًّا"؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–:﴿ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[6]، أَيْ صَائِرًا إِلَى الْفُجُورِ وَالْكُفْرِ .

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: هُدًى لِلضَّالِّينَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الضَّالِّينَ فَرِيقَانِ: [فَرِيقٌ] عُلِمَ بَقَاؤُهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَهُمُ الْمَطْبُوعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَفَرِيقٌ عُلِمَ أَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى الْهُدَى، فَلَا يَكُونُ هُدًى لِلْفَرِيقِ الْبَاقِينَ عَلَى الضَّلَالَةِ، فَبَقِيَ أَنْ يَكُونَ هُدًى لِهَؤُلَاءِ.

فَلَوْ جِيءَ بِالْعِبَارَةِ الْمُفْصِحَةِ عَنْ ذَلِكَ لَقِيلَ: هُدًى لِلصَّائِرِينَ إِلَى الْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ، فَاخْتُصِرَ الْكَلَامُ بِإِجْرَائِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا، فَقِيلَ: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 24.

[3] سورة سَبَأ، الآية 24.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة نُوح، الآية 27.

وَأَيْضًا فَقَدْ جُعِلَ ذَلِكَ سُلَّمًا إِلَى تَصْدِيرِ السُّورَةِ الَّتِي هِيَ أُولَى الزَّهْرَاوَيْنِ وَسَنَامُ الْقُرْآنِ وَأَوَّلُ الْمَثَانِي، بِذِكْرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَالْمُرْتَضَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ.

وَالْمُتَّقِي فِي اللُّغَةِ اسْمُ فَاعِلٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: "وَقَاهُ فَاتَّقَى".

وَالْوِقَايَةُ: فَرْطُ الصِّيَانَةِ، وَمِنْهُ: فَرَسٌ وَاقٍ، وَهَذِهِ الدَّابَّةُ تَقِي مَنْ وَجَاهَا، إِذَا أَصَابَهُ ضِلْعٌ مِنْ غِلَظِ الْأَرْضِ، وَرِقَّةِ الْحَافِرِ، فَهُوَ يَقِي حَافِرَهُ أَنْ يُصِيبَهُ أَدْنَى شَيْءٍ يُؤْلِمُهُ، وَهُوَ فِي الشَّرِيعَةِ الَّذِي يَقِي نَفْسَهُ تَعَاطِي مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعُقُوبَةَ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ.

وَاخْتُلِفَ فِي الصَّغَائِرِ، وَقِيلَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُهَا، لِأَنَّهَا تَقَعُ مُكَفِّرَةً عَنْ مُجْتَنِبِ الْكَبَائِرِ، وَقِيلَ: يُطْلَقُ عَلَى الرَّجُلِ اسْمُ الْمُؤْمِنِ، لِظَاهِرِ الْحَالِ، وَالْمُتَّقِي لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَنْ خِبْرَةٍ، كَمَا لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْعَدْلِ إِلَّا عَلَى الْمُخْتَبَرِ.

وَمَحَلُّ ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] الرَّفْعُ، لِأَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَوْ خَبَرٌ مَعَ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾[2] لِـ﴿ذَلِكَ﴾[3] أَوْ مُبْتَدَأٌ إِذَا جُعِلَ الظَّرْفُ الْمُقَدَّمُ خَبَرًا عَنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُنْصَبَ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى الْإِشَارَةِ أَوِ الظَّرْفُ .

وَالَّذِي هُوَ أَرْسَخُ عِرْقًا فِي "الْبَلَاغَةِ" أَنْ يُضْرَبَ عَنْ هَذِهِ الْمَحَالِّ صَفْحًا، وَأَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿الم﴾[4] جُمْلَةٌ بِرَأْسِهَا، أَوْ طَائِفَةٌ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ مُسْتَقِلَّةٌ بِنَفْسِهَا، وَ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[5] جُمْلَةٌ ثَانِيَةٌ، وَ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾[6] ثَالِثَةٌ، وَ ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[7] رَابِعَةٌ.

وَقَدْ أُصِيبَ بِتَرْتِيبِهَا مَفْصِلُ الْبَلَاغَةِ وَمُوجَبُ حُسْنِ النَّظْمِ، حَيْثُ جِيءَ بِهَا مُتَنَاسِقَةً هَكَذَا مِنْ غَيْرِ حَرْفِ نَسَقٍ، وَذَلِكَ لِمَجِيئِهَا مُتَآخِيَةً آخِذًا بَعْضُهَا بِعُنُقِ بَعْضٍ، فَالثَّانِيَةُ مُتَّحِدَةٌ بِالْأُولَى مُعْتَنِقَةٌ لَهَا، وَهَلُمَّ جَرًّا إِلَى الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ.

بَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُ نُبِّهَ أَوَّلًا عَلَى أَنَّهُ الْكَلَامُ الْمُتَحَدَّى بِهِ ثُمَّ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْمَنْعُوتُ بِغَايَةِ الْكَمَالِ، فَكَانَ تَقْرِيرًا لِجِهَةِ التَّحَدِّي، وَشَدًّا مِنْ أَعْضَادِهِ، ثُمَّ نُفِيَ عَنْهُ أَنْ يَتَشَبَّثَ بِهِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

طَرَفٌ مِنَ الرَّيْبِ، فَكَانَ شَهَادَةً وَتَسْجِيلًا بِكَمَالِهِ، لِأَنَّهُ لَا كَمَالَ أَكْمَلُ مِمَّا لِلْحَقِّ وَالْيَقِينِ، وَلَا نَقْصَ أَنْقَصُ مِمَّا لِلْبَاطِلِ وَالشُّبْهَةِ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ: فِيمَ لَذَّتُكَ؟ فَقَالَ: فِي حُجَّةٍ تَتَبَخْتَرُ اتِّضَاحًا، وَفِي شُبْهَةٍ تَتَضَاءَلُ افْتِضَاحًا. ثُمَّ أُخْبِرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، فَقُرِّرَ بِذَلِكَ كَوْنُهُ يَقِينًا لَا يَحُومُ الشَّكُّ حَوْلَهُ، وَحَقًّا لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مَنْ خَلْفِهِ.

ثُمَّ لَمْ تَخْلُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْبَعِ –بَعْدَ أَنْ رُتِّبَتْ هَذَا التَّرْتِيبَ الْأَنِيقَ، وَنُظِمَتْ هَذَا النَّظْمَ السَّرِيَّ– مِنْ نُكْتَةٍ ذَاتِ جَزَالَةٍ:

– فَفِي الْأُولَى: الْحَذْفُ وَالرَّمْزُ إِلَى الْغَرَضِ بِأَلْطَفِ وَجْهٍ وَأَرْشَقِهِ،

– وَفِي الثَّانِيَةِ: مَا فِي التَّعْرِيفِ مِنَ الْفَخَامَةِ،

– وَفِي الثَّالِثَةِ: مَا فِي تَقْدِيمِ الرَّيْبِ عَلَى الظَّرْفِ،

– وَفِي الرَّابِعَةِ: الْحَذْفُ، وَوَضْعُ الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ: (هُدًى) مَوْضِعَ الْوَصْفِ الَّذِي هُوَ: "هَادٍ" وَإِيرَادُهُ مُنَكَّرًا، وَالْإِيجَازُ فِي ذِكْرِ الْمُتَّقِينَ .

زَادَنَا اللَّهُ اطِّلَاعًا عَلَى أَسْرَارِ كَلَامِهِ، وَتَبْيِينًا لِنُكَتِ تَنْزِيلِهِ، وَتَوْفِيقًا لِلْعَمَلِ بِمَا فِيهِ.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[1]

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾[2] إِمَّا مَوْصُولٌ بِالْمُتَّقِينَ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ مَجْرُورَةٌ، أَوْ مَدْحٌ مَنْصُوبٌ، أَوْ مَرْفُوعٌ بِتَقْدِيرِ: أَعْنِي الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ، أَوْ هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ، وَإِمَّا مُقْتَطَعٌ عَنِ الْمُتَّقِينَ مَرْفُوعٌ عَلَى الِابْتِدَاءِ مُخْبَرٌ عَنْهُ بِـ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾[3].

فَإِذَا كَانَ مَوْصُولًا كَانَ الْوَقْفُ عَلَى الْمُتَّقِينَ حَسَنًا غَيْرَ تَامٍّ، وَإِذَا كَانَ مُقْتَطَعًا كَانَ وَقْفًا تَامًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هَذِهِ الصِّفَةُ، أَوَارِدَةٌ بَيَانًا وَكَشْفًا لِلْمُتَّقِينَ؟ أَمْ مَسْرُودَةٌ مَعَ الْمُتَّقِينَ تُفِيدُ غَيْرَ فَائِدَتِهَا؟ أَمْ جَاءَتْ عَلَى سَبِيلِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ كَصِفَاتِ اللَّهِ الْجَارِيَةِ عَلَيْهِ تَمْجِيدًا؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 5.

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ أَنْ تَرِدَ عَلَى طَرِيقِ الْبَيَانِ وَالْكَشْفِ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى مَا أُسِّسَتْ عَلَيْهِ حَالُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَاتِ، أَمَّا الْفِعْلُ فَقَدِ انْطَوَى تَحْتَ ذِكْرِ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْحَسَنَاتِ وَمَنْصِبُهَا، وَذَكَرَ الصَّلَاةَ وَالصَّدَقَةَ، لِأَنَّ هَاتَيْنِ أُمَّا الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ، وَهُمَا الْعِيَارُ عَلَى غَيْرِهِمَا، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ سَمَّى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الصَّلَاةَ عِمَادَ الدِّينِ، وَجَعَلَ الْفَاصِلَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ؟ وَسَمَّى الزَّكَاةَ قَنْطَرَةَ الْإِسْلَامِ؟ وَقَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[1].

فَلَمَّا كَانَتَا بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ كَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا اسْتِجْرَارُ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ وَاسْتِتْبَاعُهَا، وَمِنْ ثَمَّ اخْتُصِرَ الْكَلَامُ اخْتِصَارًا، بِأَنِ اسْتَغْنَى عَنْ عَدِّ الطَّاعَاتِ بِذِكْرِ مَا هُوَ كَالْعُنْوَانِ لَهَا.

وَالَّذِي إِذَا وُجِدَ لَمْ تَتَوَقَّفْ أَخَوَاتُهُ أَنْ تَقْتَرِنَ بِهِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِفْصَاحِ عَنْ فَضْلِ هَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ.

وَأَمَّا التَّرْكُ فَكَذَلِكَ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2]؟

وَيُحْتَمَلُ أَلَا تَكُونَ بَيَانًا لِلْمُتَّقِينَ، وَتَكُونَ صِفَةً بِرَأْسِهَا دَالَّةً عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَيُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ الْمَعَاصِيَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَدْحًا لِلْمَوْصُوفِينَ بِالتَّقْوَى، وَتَخْصِيصًا لِلْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ بِالذِّكْرِ، إِظْهَارًا لِإِنَافَتِهَا عَنْ سَائِرِ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَقِيقَةِ هَذَا الِاسْمِ مِنَ الْحَسَنَاتِ .

وَالْإِيمَانُ: إِفْعَالٌ مِنَ الْأَمْنِ. يُقَالُ: أَمَّنْتُهُ وَآمَنْتُهُ غَيْرِي، ثُمَّ يُقَالُ: آمَنَهُ إِذَا صَدَّقَهُ، وَحَقِيقَتُهُ: آمَنَهُ التَّكْذِيبَ وَالْمُخَالَفَةَ، وَأَمَّا تَعْدِيَتُهُ بِالْبَاءِ فَلِتَضْمِينِهِ مَعْنَى أُقِرُّ وَأَعْتَرِفُ.

وَأَمَّا مَا حَكَى أَبُو زَيْدٍ عَنِ الْعَرَبِ: مَا آمَنْتُ أَنْ أَجِدَ صَحَابَةً –أَيْ مَا وَثِقْتُ– فَحَقِيقَتُهُ: صِرْتُ ذَا أَمْنٍ بِهِ، أَيْ ذَا سُكُونٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ حَسَنٌ فِي ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[3]، أَيْ: يَعْتَرِفُونَ بِهِ أَوْ يَثِقُونَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَيَجُوزُ أَلَّا يَكُونَ ﴿بِالْغَيْبِ﴾[4] صِلَةً لِلْإِيمَانِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ يُؤْمِنُونَ غَائِبِينَ عَنِ الْمُؤْمَنِ بِهِ، وَحَقِيقَتُهُ: مُلْتَبِسِينَ بِالْغَيْبِ،

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآيتان 6–7.

[2] سورة الْعَنْكَبُوتِ، الآية 45.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾[1]، ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾[2]، وَيُعَضِّدُهُ مَا رُوِيَ: أَنَّ أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ ذَكَرُوا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِيمَانَهُمْ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: إِنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ كَانَ بَيِّنًا لِمَنْ رَآهُ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا آمَنَ مُؤْمِنٌ أَفْضَلَ مِنْ إِيمَانٍ بِغَيْبٍ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ إِنْ جَعَلْتَهُ صِلَةً؟ وَإِنْ جَعَلْتَهُ حَالًا؟

قُلْتُ: إِنْ جَعَلْتَهُ صِلَةً كَانَ بِمَعْنَى الْغَائِبِ، إِمَّا تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ مِنْ قَوْلِكَ: غَابَ الشَّيْءُ غَيْبًا، كَمَا سُمِّيَ الشَّاهِدُ بِالشَّهَادَةِ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[3]، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْمُطْمَئِنَّ مِنَ الْأَرْضِ غَيْبًا.

وَعَنِ النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ: شَرِبَتِ الْإِبِلُ حَتَّى وَارَتْ غُيُوبَ كُلَاهَا، يُرِيدُ بِالْغَيْبِ: الْخَمْصَةَ الَّتِي تَكُونُ فِي مَوْضِعِ الْكُلْيَةِ، إِذَا بَطَنَتِ الدَّابَّةُ انْتَفَخَتْ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فَيْعَلًا فَخُفِّفَ، كَمَا قِيلَ: قَيْلٌ وَأَصْلُهُ: قَيِّلٌ، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْخَفِيُّ الَّذِي لَا يَنْفُذُ فِيهِ ابْتِدَاءٌ إِلَّا عَلِمَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، وَإِنَّمَا نَعْلَمُ مِنْهُ نَحْنُ مَا أَعْلَمْنَاهُ، أَوْ نَصَبَ لَنَا دَلِيلًا عَلَيْهِ، وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُطْلَقَ فَيُقَالُ: فُلَانٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَذَلِكَ نَحْوُ الصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ، وَالنُّبُوَّاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ جَعَلْتَهُ حَالًا كَانَ بِمَعْنَى الْغَيْبَةِ وَالْخَفَاءِ .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ؟

قُلْتُ: أَنْ يَعْتَقِدَ الْحَقَّ وَيُعْرِبَ عَنْهُ بِلِسَانِهِ، وَيُصَدِّقَهُ بِعَمَلِهِ ؛فَمَنْ أَخَلَّ بِالِاعْتِقَادِ –وَإِنْ شَهِدَ وَعَمِلَ– فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَمَنْ أَخَلَّ بِالشَّهَادَةِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ أَخَلَّ بِالْعَمَلِ فَهُوَ فَاسِقٌ .

وَمَعْنَى إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: تَعْدِيلُ أَرْكَانِهَا، وَحِفْظُهَا مِنْ أَنْ يَقَعَ زَيْغٌ فِي فَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا وَآدَابِهَا، مِنْ أَقَامَ الْعُودَ –إِذَا قَوَّمَهُ– أَوِ الدَّوَامُ عَلَيْهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[4]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[5] مِنْ قَامَتِ السُّوقُ إِذَا نَفَقَتْ، وَأَقَامَهَا، قَالَ :

---

[1] سورة فَاطِرٍ، الآية 18.

[2] سورة يُوسُفَ، الآية 52.

[3] سورة الزُّمَرِ، الآية 46.

[4] سورة الْمَعَارِجِ، الآية 23.

[5] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 9.

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابِ لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ حَوْلًا قَمِيطًا

لِأَنَّهَا إِذَا حُوفِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ كَالشَّيْءِ النَّافِقِ الَّذِي تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الرَّغَبَاتُ، وَيَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُحَصِّلُونَ، وَإِذَا عُطِّلَتْ وَأُضِيعَتْ كَانَتْ كَالشَّيْءِ الْكَاسِدِ الَّذِي لَا يُرْغَبُ فِيهِ، أَوِ التَّجَلُّدُ وَالتَّشَمُّرُ لِأَدَائِهَا، وَأَلَّا يَكُونَ فِي مُؤَدِّيهَا فُتُورٌ عَنْهَا وَلَا تَوَانٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: قَامَ بِالْأَمْرِ، وَقَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقِهَا، وَفِي ضِدِّهِ: قَعَدَ عَنِ الْأَمْرِ، وَتَقَاعَدَ عَنْهُ –إِذَا تَقَاعَسَ وَتَثَبَّطَ– أَوْ أَدَاؤُهَا، فَعُبِّرَ عَنِ الْأَدَاءِ بِالْإِقَامَةِ، لِأَنَّ الْقِيَامَ بَعْضُ أَرْكَانِهَا، كَمَا عُبِّرَ عَنْهُ بِالْقُنُوتِ – وَالْقُنُوتُ الْقِيَامُ– وَبِالرُّكُوعِ وَبِالسُّجُودِ، وَقَالُوا: سَبَّحَ إِذَا صَلَّى، لِوُجُودِ التَّسْبِيحِ فِيهَا: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[1].

وَالصَّلَاةُ: فَعْلَةٌ مِنْ صَلَّى، كَالزَّكَاةِ مِنْ زَكَّى، وَكِتَابَتُهَا بِالْوَاوِ عَلَى لَفْظِ الْمُفَخَّمِ، وَحَقِيقَةُ صَلَّى حَرَّكَ الصَّلَوَيْنِ، لِأَنَّ الْمُصَلِّيَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، وَنَظِيرُهُ: كَفَرَ الْيَهُودِيُّ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ وَانْحَنَى عِنْدَ تَعْظِيمِ صَاحِبِهِ، لِأَنَّهُ يَنْثَنِي عَلَى الْكَاذَتَيْنِ، وَهُمَا الْكَافِرَتَانِ، وَقِيلَ لِلدَّاعِي: مُصَلٍّ؛ تَشْبِيهًا فِي تَخَشُّعِهِ بِالرَّاكِعِ وَالسَّاجِدِ .

وَإِسْنَادُ الرِّزْقِ إِلَى نَفْسِهِ: لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ الْحَلَالَ الطَّلْقَ الَّذِي يَسْتَأْهِلُ أَنْ يُضَافَ إِلَى اللَّهِ، وَيُسَمَّى رِزْقًا مِنْهُ، وَأَدْخَلَ مِنَ التَّبْعِيضِيَّةَ؛ صِيَانَةً لَهُمْ وَكَفًّا عَنِ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَقُدِّمَ مَفْعُولُ الْفِعْلِ، دَلَالَةً عَلَى كَوْنِهِ أَهَمَّ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَيَخُصُّونَ بَعْضَ الْمَالِ الْحَلَالِ بِالتَّصَدُّقِ بِهِ، وَجَائِزٌ أَنْ يُرَادَ بِهِ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، لِاقْتِرَانِهِ بِأُخْتِ الزَّكَاةِ وَشَقِيقَتِهَا وَهِيَ الصَّلَاةُ، وَأَنْ تُرَادَ هِيَ وَغَيْرُهَا مِنَ النَّفَقَاتِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ، لِمَجِيئِهِ مُطْلَقًا يَصْلُحُ أَنْ يَتَنَاوَلَ كُلَّ مُنْفَقٍ .

وَأَنْفَقَ الشَّيْءَ وَأَنْفَدَهُ أَخَوَانِ، وَعَنْ يَعْقُوبَ: نَفَقَ الشَّيْءُ وَنَفِدَ وَاحِدٌ، وَكُلُّ مَا جَاءَ مِمَّا فَاؤُهُ نُونٌ، وَعَيْنُهُ فَاءٌ، فَدَالٌّ عَلَى مَعْنَى الْخُرُوجِ وَالذَّهَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2]

---

[1] سورة الصَّافَّاتِ، الآية 143.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾[1] أَهُمْ غَيْرُ الْأَوَّلِينَ أَمْ هُمُ الْأَوَّلُونَ؟ وَإِنَّمَا وَسِّطَ الْعَاطِفُ كَمَا يُوَسَّطُ بَيْنَ الصِّفَاتِ فِي قَوْلِكَ: هُوَ الشُّجَاعُ وَالْجَوَادُ.

وَفِي قَوْلِهِ:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمْ

وَقَوْلِهِ:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهَؤُلَاءِ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَضْرَابِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، فَاشْتَمَلَ إِيمَانُهُمْ عَلَى كُلِّ وَحْيٍ أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَيْقَنُوا بِالْآخِرَةِ إِيقَانًا زَالَ مَعَهُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَأَنَّ النَّارَ لَنْ تَمَسَّهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَاجْتِمَاعُهُمْ عَلَى الْإِقْرَارِ بِالنَّشْأَةِ الْأُخْرَى، وَإِعَادَةِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ.

ثُمَّ افْتِرَاقُهُمْ فِرْقَتَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: تَجْرِي حَالُهُمْ فِي التَّلَذُّذِ بِالْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاكِحِ عَلَى حَسَبِ مَجْرَاهَا فِي الدُّنْيَا، وَدَفَعَهُ آخَرُونَ فَزَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا احْتِيجَ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أَجْلِ نَمَاءِ الْأَجْسَامِ وَلِمَكَانِ التَّوَالُدِ وَالتَّنَاسُلِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُسْتَغْنُونَ عَنْهُ، فَلَا يَتَلَذَّذُونَ إِلَّا بِالنَّسِيمِ وَالْأَرْوَاحِ الْعَبِقَةِ، وَالسَّمَاعِ اللَّذِيذِ، وَالْفَرَحِ، وَالسُّرُورِ، وَاخْتِلَافُهُمْ فِي الدَّوَامِ وَالِانْقِطَاعِ، فَيَكُونُ الْمَعْطُوفُ غَيْرَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ وَصْفُ الْأَوَّلِينَ، وَوُسِّطَ الْعَاطِفُ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمُ الْجَامِعُونَ بَيْنَ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَهَذِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهَؤُلَاءِ غَيْرَ أُولَئِكَ، فَهَلْ يَدْخُلُونَ فِي جُمْلَةِ الْمُتَّقِينَ أَمْ لَا؟

قُلْتُ: إِنْ عَطَفْتَهُمْ عَلَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[2] دَخَلُوا وَكَانَتْ صِفَةُ التَّقْوَى مُشْتَمِلَةً عَلَى الزُّمْرَتَيْنِ مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنْ عَطَفْتَهُمْ عَلَى: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾[3] لَمْ يَدْخُلُوا، وَكَأَنَّهُ قِيلَ: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وَهُدًى لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ .

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[4] إِنْ عَنَى بِهِ الْقُرْآنَ بِأَسْرِهِ وَالشَّرِيعَةَ عَنْ آخِرِهَا، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُنَزَّلًا وَقْتَ إِيمَانِهِمْ، فَكَيْفَ قِيلَ: أُنْزِلَ بِلَفْظِ الْمُضِيِّ؟ وَإِنْ أُرِيدَ الْمِقْدَارُ الَّذِي

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

سَبَقَ إِنْزَالُهُ وَقْتَ إِيمَانِهِمْ فَهُوَ إِيمَانٌ بِبَعْضِ الْمُنَزَّلِ، وَاشْتِمَالُ الْإِيمَانِ عَلَى الْجَمِيعِ سَالِفِهِ وَمُتَرَقَّبِهِ وَاجِبٌ.

قُلْتُ: الْمُرَادُ الْمُنَزَّلُ كُلُّهُ، وَإِنَّمَا عُبِّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ الْمُضِيِّ -وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُ مُتَرَقَّبًا- تَغْلِيبًا لِلْمَوْجُودِ عَلَى مَا لَمْ يُوجَدْ، كَمَا يُغَلَّبُ الْمُتَكَلِّمُ عَلَى الْمُخَاطَبِ، وَالْمُخَاطَبُ عَلَى الْغَائِبِ، فَيُقَالُ: "أَنَا [وَأَنْتَ فَعَلْنَا]"، وَ"أَنْتَ وَزَيْدٌ تَفْعَلَانِ"، وَلِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بَعْضُهُ نَازِلًا وَبَعْضُهُ مُنْتَظَرَ النُّزُولِ جُعِلَ كَأَنَّ كُلَّهُ قَدْ نَزَلَ وَانْتَهَى نُزُولُهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾[1]، وَلَمْ يَسْمَعُوا جَمِيعَ الْكِتَابِ، وَلَا كَانَ كُلُّهُ مُنَزَّلًا، وَلَكِنَّ سَبِيلَهُ سَبِيلُ مَا ذَكَرْنَا، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: كُلُّ مَا خَطَبَ بِهِ فُلَانٌ فَهُوَ فَصِيحٌ، وَمَا تَكَلَّمُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ نَادِرٌ، وَلَا تُرِيدُ بِهَذَا الْمَاضِيَ [مِنْهُ] فَحَسْبُ دُونَ الْآتِي، لِكَوْنِهِ مَعْقُودًا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَمَرْبُوطًا آتِيَهُ بِمَاضِيهِ.

وَقَرَأَ يَزِيدُ بْنُ قُطَيْبٍ: (بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ) عَلَى لَفْظِ مَا سُمِّيَ فَاعِلُهُ، وَفِي تَقْدِيمِ: ﴿وَبِالآخِرَةِ﴾[2] وَبِنَاءِ ﴿يُوقِنُونَ﴾[3] عَلَى: (هَمّ) تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَبِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِثْبَاتِ أَمْرِ الْآخِرَةِ عَلَى خِلَافِ حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ بِصَادِرٍ عَنْ إِيقَانٍ، وَأَنَّ الْيَقِينَ مَا عَلَيْهِ مَنْ آمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْإِيقَانُ: إِتْقَانُ الْعِلْمِ بِانْتِفَاءِ الشَّكِّ وَالشُّبْهَةِ عَنْهُ، وَ ﴿وَبِالآخِرَةِ﴾[4] تَأْنِيثُ الْآخَرِ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْأَوَّلِ، وَهِيَ صِفَةُ الدَّارِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾[5]، وَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الْغَالِبَةِ، وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا، وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّهُ خَفَّفَهَا بِأَنْ حَذَفَ الْهَمْزَةَ وَأَلْقَى حَرَكَتَهَا عَلَى اللَّامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿دَابَّةُ الأَرْضِ﴾[6].

وَقَرَأَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ:)يُؤْقِنُونَ) بِالْهَمْزِ، جَعَلَ الضَّمَّةَ فِي جَارِ الْوَاوِ كَأَنَّهَا فِيهِ، فَقَلَبَهَا قَلْبَ وَاوِ "وُجُوهٍ" وَ "وُقِّتَتْ" وَنَحْوُهُ:

لَحُبُّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُـــودُ

---

[1] سورة الْأَحْقَافِ، الآية 30.

[2] سورة ، الآية الْبَقَرَةِ.

[3] سورة ، الآية الْبَقَرَةِ.

[4] سورة ، الآية الْبَقَرَةِ.

[5] سورة الْقَصَصِ، الآية 83.

[6] سورة سَبَإٍ، الآية 14.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾[2]: الْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ إِنْ كَانَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مُبْتَدَأً، وَإِلَّا فَلَا مَحَلَّ لَهَا، وَنَظْمُ الْكَلَامِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ: أَنَّكَ إِذَا نَوَيْتَ الِابْتِدَاءَ بِالَّذِينِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ فَقَدْ ذَهَبْتَ بِهِ مَذْهَبَ الِاسْتِئْنَافِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وَاخْتُصَّ الْمُتَّقُونَ بِأَنَّ الْكِتَابَ لَهُمْ هُدًى، اتَّجَهَ لِسَائِلٍ أَنْ يَسْأَلَ، فَيَقُولُ: مَا بَالُ الْمُتَّقِينَ مَخْصُوصِينَ بِذَلِكَ؟ فَوَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[4] إِلَى سَاقَتِهِ كَأَنَّهُ جَوَابٌ لِهَذَا السُّؤَالِ الْمُقَدَّرِ، وَجِيءَ بِصِفَةِ الْمُتَّقِينَ الْمُنْطَوِيَةِ تَحْتَهَا خَصَائِصُهُمُ الَّتِي اسْتَوْجَبُوا بِهَا مِنَ اللَّهِ أَنْ يَلْطُفَ بِهِمْ وَيَفْعَلَ بِهِمْ مَا لَا يَفْعَلُ بِمَنْ لَيْسُوا عَلَى صِفَتِهِمْ، أَيِ: الَّذِينَ هَؤُلَاءِ عَقَائِدُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ وَيُعْطِيَهُمُ الْفَلَاحُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: أَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْأَنْصَارَ الَّذِينَ قَارَعُوا دُونَهُ، وَكَشَفُوا الْكَرْبَ عَنْ وَجْهِهِ، أُولَئِكَ أَهْلٌ لِلْمَحَبَّةِ، وَإِنْ جَعَلْتَهُ تَابِعًا لِلْمُتَّقِينَ وَقَعَ الِاسْتِئْنَافُ عَلَى أُولَئِكَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا لِلْمُسْتَقِلِّينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ قَدِ اخْتَصُّوا بِالْهُدَى؟

فَأُجِيبَ بِأَنَّ أُولَئِكَ الْمَوْصُوفِينَ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ أَنْ يَفُوزُوا دُونَ النَّاسِ بِالْهُدَى عَاجِلًا وَبِالْفَلَاحِ آجِلًا.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الِاسْتِئْنَافِ يَجِيءُ تَارَةً بِإِعَادَةِ اسْمِ مَنِ اسْتُؤْنِفَ عَنْهُ الْحَدِيثُ، كَقَوْلِكَ: قَدْ أَحْسَنْتَ إِلَى زَيْدٍ، زَيْدٌ حَقِيقٌ بِالْإِحْسَانِ، وَتَارَةً بِإِعَادَةِ صِفَتِهِ، كَقَوْلِكَ: أَحْسَنْتَ إِلَى زَيْدٍ صَدِيقِكَ الْقَدِيمِ، أَهْلٌ لِذَلِكَ [مِنْكَ]، فَيَكُونُ الِاسْتِئْنَافُ بِإِعَادَةِ الصِّفَةِ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ، لِانْطِوَائِهَا عَلَى بَيَانِ الْمُوجَبِ وَتَلْخِيصِهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَجْرِيَ الْمَوْصُولُ الْأَوَّلُ عَلَى الْمُتَّقِينَ، وَأَنْ يَرْتَفِعَ الثَّانِي عَلَى الِابْتِدَاءِ وَأُولَئِكَ خَبَرُهُ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، عَلَى أَنْ يُجْعَلَ اخْتِصَاصُهُمْ بِالْهُدَى وَالْفَلَاحِ تَعْرِيضًا بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِنُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهُمْ ظَانُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى، وَطَامِعُونَ أَنَّهُمْ يَنَالُونَ الْفَلَاحَ عِنْدَ اللَّهِ، وَفِي اسْمِ الْإِشَارَةِ الَّذِي هُوَ: ﴿أُولَئِكَ﴾[1] إِيذَانٌ بِأَنَّ مَا يَرِدُ عَقِيبَهُ فَالْمَذْكُورُونَ قَبْلَهُ أَهْلٌ لِاكْتِسَابِهِ مِنْ أَجْلِ الْخِصَالِ الَّتِي عُدِّدَتْ لَهُمْ، كَمَا قَالَ حَاتِمٌ:

وَلِلَّهِ صُعْلُـــــــــوكٌ

ثُمَّ عَدَّدَ لَهُ خِصَالًا فَاضِلَةً، ثُمَّ عَقَّبَ تَعْدِيدَهَا بِقَوْلِهِ:

فَذَلِكَ إِنْ يَهْلَكْ فَحَسْبِي ثَنَاؤُهُ وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفًا مُذَمَّمًا

وَمَعْنَى الِاسْتِعْلَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى هُدًى﴾[2] مَثَلٌ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَاسْتِقْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، وَتَمَسُّكِهِمْ بِهِ، شُبِّهَتْ حَالُهُمْ بِحَالِ مَنِ اعْتَلَى الشَّيْءَ وَرَكِبَهُ، وَنَحْوُهُ: هُوَ عَلَى الْحَقِّ وَعَلَى الْبَاطِلِ، وَقَدْ صَرَّحُوا بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِمْ: جَعَلَ الْغَوَايَةَ مَرْكَبًا، وَامْتَطَى الْجَهْلَ، وَاقْتَعَدَ غَارِبَ الْهَوَى.

وَمَعْنَى: ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[3]، أَيْ: مُنِحُوهُ مِنْ عِنْدِهِ وَأُوتُوهُ مِنْ قِبَلِهِ، وَهُوَ اللُّطْفُ وَالتَّوْفِيقُ الَّذِي اعْتَضَدُوا بِهِ عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَالتَّرَقِّي إِلَى الْأَفْضَلِ فَالْأَفْضَلِ، وَنُكِّرَ: "هُدًى" لِيُفِيدَ ضَرْبًا مُبْهَمًا لَا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، وَلَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: عَلَى أَيِّ هُدًى، كَمَا تَقُولُ: لَوْ أَبْصَرْتَ فَلَانًا لَأَبْصَرْتَ رَجُلًا.

وَقَالَ الْهُذَلِيُّ:

فَلَا وَأَبِي الطَّيْرِ الْمُرِبَّةِ بِالضُّحَـــــى عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتِ عَلَى لَحَمْ

وَالنُّونُ فِي: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾[4] أُدْغِمَتْ بِغُنَّةٍ وَبِغَيْرِ غُنَّةٍ، فَالْكِسَائِيُّ، وَحَمْزَةُ، وَيَزِيدُ، وَوَرْشٌ فِي رِوَايَةٍ وَالْهَاشِمِيُّ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ لَمْ يُغِنُّوهَا، وَقَدْ أَغَنَّهَا الْبَاقُونَ إِلَّا أَبَا عَمْرٍو، فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ [فِيهَا] رِوَايَتَانِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَفِي تَكْرِيرِ: أُولَئِكَ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَمَا ثَبَتَتْ لَهُمُ الْأُثْرَةُ بِالْهُدَى، فَهِيَ ثَابِتَةٌ لَهُمْ بِالْفَلَاحِ، فَجُعِلَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأُثْرَتَيْنِ فِي تَمْيِيزِهِمْ بِالْمَثَابَةِ الَّتِي لَوِ انْفَرَدَتْ كَفَتْ مُمَيِّزَةً عَلَى حِيَالِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَاءَ مَعَ الْعَاطِفِ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]؟

قُلْتُ: قَدِ اخْتَلَفَ الْخَبَرَانِ هَهُنَا، فَلِذَلِكَ دَخَلَ الْعَاطِفُ، بِخِلَافِ الْخَبَرَيْنِ ثَمَّةَ فَإِنَّهُمَا مُتَّفِقَانِ، لِأَنَّ التَّسْجِيلَ عَلَيْهِمْ بِالْغَفْلَةِ، وَتَشْبِيهَهُمْ بِالْبَهَائِمِ شَيْءٌ وَاحِدٌ، فَكَانَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ مُقَرِّرَةً لِمَا فِي الْأَوْلَى فَهِيَ مِنَ الْعَطْفِ بِمَعْزِلٍ.

وَهَمّ فَصْلٌ، وَفَائِدَتُهُ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْوَارِدَ بَعْدَهُ خَبَرٌ لَا صِفَةٌ، وَالتَّوْكِيدُ، وَإِيجَابُ أَنَّ فَائِدَةَ الْمَسْنَدِ ثَابِتَةٌ لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ، أَوْ هُوَ مُبْتَدَأٌ، وَالْمُفْلِحُونَ خَبَرُهُ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ أُولَئِكَ.

وَمَعْنَى التَّعْرِيفِ فِي: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾[2]: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْمُتَّقِينَ هُمُ النَّاسُ الَّذِينَ عَنْهُمْ بَلَغَكَ أَنَّهُمْ يُفْلِحُونَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا إِذَا بَلَغَكَ أَنَّ إِنْسَانًا قَدْ تَابَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِكَ، فَاسْتَخْبَرْتَ مَنْ هُوَ؟ فَقِيلَ: زَيْدٌ التَّائِبُ، أَيْ هُوَ الَّذِي أُخْبِرْتَ بِتَوْبَتِهِ. أَوْ عَلَى أَنَّهُمُ الَّذِينَ إِنْ حَصَلَتْ صِفَةُ الْمُفْلِحِينَ، وَتَحَقَّقُوا مَا هُمْ، وَتَصَوَّرُوا بِصُورَتِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ، فَهُمْ هُمْ لَا يَعْدُونَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ: هَلْ عَرَفْتَ الْأَسَدَ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ فَرْطِ الْإِقْدَامِ؟ إِنَّ زَيْدًا هُوَ هُوَ.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَرَّرَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– التَّنْبِيهَ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُتَّقِينَ بِنَيْلِ مَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ عَلَى طُرُقٍ شَتَّى، وَهِيَ: ذِكْرُ اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَتَكْرِيرُهُ، وَتَعْرِيفُ الْمُفْلِحِينَ، وَتَوْسِيطُ الْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُولَئِكَ، لِيُبَصِّرَكَ مَرَاتِبَهُمْ وَيُرَغِّبَكَ فِي طَلَبِ مَا طَلَبُوا، وَيُنَشِّطَكَ لِتَقْدِيمِ مَا قَدَّمُوا، وَيُثَبِّطَكَ عَنِ الطَّمَعِ الْفَارِغِ وَالرَّجَاءِ الْكَاذِبِ، وَالتَّمَنِّي عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَلَمْ تَسْبِقْ بِهِ كَلِمَتُهُ.

اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِلِبَاسِ التَّقْوَى، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ مَنْ صَدَّرْتَ بِذِكْرِهِمْ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَالْمُفْلِحُ: الْفَائِزُ بِالْبُغْيَةِ كَأَنَّهُ الَّذِي انْفَتَحَتْ لَهُ وُجُوهُ الظَّفَرِ وَلَمْ تَسْتَغْلِقْ عَلَيْهِ، وَالْمُفْلِجُ بِالْجِيمِ– مِثْلُهُ،

---

[1] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 179.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لِلْمُطَلَّقَةِ: اسْتَفْلِحِي بِأَمْرِكِ بِالْحَاءِ وَالْجِيمِ، وَالتَّرْكِيبُ دَالٌّ عَلَى مَعْنَى الشَّقِّ وَالْفَتْحِ، وَكَذَلِكَ أَخَوَاتُهُ فِي الْفَاءِ وَالْعَيْنِ، نَحْوُ: فَلَقَ، وَفَلَذَ، وَفَلَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1]

لَمَّا قَدَّمَ ذِكْرَ أَوْلِيَائِهِ وَخَالِصَةِ عِبَادِهِ بِصِفَاتِهِمُ الَّتِي أَهَّلَتْهُمْ لِإِصَابَةِ الزُّلْفَى عِنْدَهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْكِتَابَ هُدًى وَلُطْفٌ لَهُمْ خَاصَّةً، قَفَّى عَلَى أَثَرِهِ بِذِكْرِ أَضْدَادِهِمْ، وَهُمُ الْعُتَاةُ الْمَرَدَةُ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الْهُدَى، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمُ اللُّطْفُ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الْكِتَابِ وَعَدَمِهِ، وَإِنْذَارُ الرَّسُولِ وَسُكُوتُهُ .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قُطِعَتْ قِصَّةُ الْكُفَّارِ عَنْ قِصَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُعْطَفْ، كَنَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[2]، وَغَيْرِهِ مِنَ الْآيِ الْكَثِيرَةِ؟

قُلْتُ: لَيْسَ وِزَانُ هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ وِزَانَ مَا ذَكَرْتَ، لِأَنَّ الْأُولَى فِيمَا نَحْنُ فِيهِ مَسُوقَةٌ لِذِكْرِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وَسِيقَتِ الثَّانِيَةُ لِأَنَّ الْكُفَّارَ مِنْ صِفَتِهِمْ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَبَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ تَبَايُنٌ فِي الْغَرَضِ وَالْأُسْلُوبِ، وَهُمَا عَلَى حَدٍّ لَا مَجَالَ فِيهِ لِلْعَاطِفِ .

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا إِذَا زَعَمْتَ أَنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ جَارٍ عَلَى الْمُتَّقِينَ، فَأَمَّا إِذَا ابْتَدَأْتَهُ وَبَنَيْتَ الْكَلَامَ لِصِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ عَقَّبْتَهُ بِكَلَامٍ آخَرَ فِي صِفَةِ أَضْدَادِهِمْ كَانَ مِثْلَ تِلْكَ الْآيِ الْمَتْلُوَّةِ؟

قُلْتُ: قَدْ مَرَّ لِي أَنَّ الْكَلَامَ الْمُبْتَدَأَ عَقِيبَ الْمُتَّقِينَ سَبِيلُهُ الِاسْتِئْنَافُ، وَأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالٍ، فَذَلِكَ إِدْرَاجٌ لَهُ فِي حُكْمِ الْمُتَّقِينَ، وَتَابِعٌ لَهُ فِي الْمَعْنَى، وَإِنْ كَانَ مُبْتَدَأً فِي اللَّفْظِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْجَارِي عَلَيْهِ.

وَالتَّعْرِيفُ فِي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَهْدِ وَأَنْ يُرَادَ بِهِمْ نَاسٌ بِأَعْيَانِهِمْ، كَأَبِي لَهَبٍ، وَأَبِي جَهْلٍ، وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَأَضْرَابِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ لِلْجِنْسِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الإِنْفِطَارِ، الآيتان 13–14.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

مُتَنَاوِلًا كُلَّ مَنْ صَمَّمَ عَلَى كُفْرِهِ تَصْمِيمًا لَا يَرْعَوِي بَعْدَهُ وَغَيْرُهُمْ، وَدَلَّ عَلَى تَنَاوُلِهِ لِلْمُصِرِّينَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ بِاسْتِوَاءِ الْإِنْذَارِ وَتَرْكِهِ عَلَيْهِمْ، وَ ﴿سَوَاء﴾[1] اسْمٌ بِمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ وُصِفَ بِهِ كَمَا يُوصَفُ بِالْمَصَادِرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[2]، ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[3]، بِمَعْنَى مُسْتَوِيَةٍ وَارْتِفَاعُهُ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِإِنَّ، وَ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾[4] فِي مَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ بِهِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُسْتَوٍ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ. كَمَا تَقُولُ: إِنَّ زَيْدًا مُخْتَصِمٌ أَخُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ، أَوْ يَكُونُ ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾[5] فِي مَوْضِعِ الِابْتِدَاءِ وَ﴿سَوَاء﴾[6] خَبَرًا مُقَدَّمًا بِمَعْنَى: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ لِإِنَّ .

فَإِنْ قُلْتَ: الْفِعْلُ أَبَدًا خَبَرٌ لَا مُخْبَرٌ عَنْهُ، فَكَيْفَ صَحَّ الْإِخْبَارُ عَنْهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ؟

قُلْتُ: هُوَ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ الْمَهْجُورِ فِيهِ جَانِبُ اللَّفْظِ إِلَى جَانِبِ الْمَعْنَى، وَقَدْ وَجَدْنَا الْعَرَبَ يَمِيلُونَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ مَعَ الْمَعَانِي مَيْلًا بَيِّنًا، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: "لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبِ اللَّبَنَ"، مَعْنَاهُ: لَا يَكُنْ مِنْكَ أَكْلُ السَّمَكِ وَشُرْبُ اللَّبَنِ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ عَلَى مَا لَا يَصِحُّ مِنْ عَطْفِ الِاسْمِ عَلَى الْفِعْلِ، وَالْهَمْزَةُ وَأَمْ مُجَرَّدَتَانِ لِمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ، وَقَدِ انْسَلَخَ عَنْهُمَا مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ رَأْسًا.

قَالَ سِيبَوَيْهِ: جَرَى هَذَا عَلَى حَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ كَمَا جَرَى عَلَى حَرْفِ النِّدَاءِ، قَوْلُكَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا أَيَّتُهَا الْعِصَابَةُ، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا جَرَى عَلَى صُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ وَلَا اسْتِفْهَامَ، كَمَا أَنَّ ذَلِكَ جَرَى عَلَى صُورَةِ النِّدَاءِ وَلَا نِدَاءَ، وَمَعْنَى الِاسْتِوَاءِ: اسْتِوَاؤُهُمَا فِي عِلْمِ الْمُسْتَفْهِمِ عَنْهُمَا، لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ كَائِنٌ، إِمَّا الْإِنْذَارُ وَإِمَّا عَدَمُهُ، وَلَكِنْ لَا بِعَيْنِهِ، فَكِلَاهُمَا مَعْلُومٌ بِعِلْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ، وَقُرِئَ: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾[7] بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَالتَّخْفِيفُ أَعْرَبُ وَأَكْثَرُ، وَبِتَخْفِيفِ الثَّانِيَةِ بَيْنَ بَيْنَ، وَبِتَوْسِيطِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا مُحَقَّقَتَيْنِ، وَبِتَوْسِيطِهَا وَالثَّانِيَةُ بَيْنَ بَيْنَ،

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة آل عِمْرَانَ، الآية 64.

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية 10.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَبِحَذْفِ حَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ، وَبِحَذْفِهِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَتِهِ عَلَى السَّاكِنِ قَبْلَهُ، كَمَا قُرِئَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ يَقْلِبُ الثَّانِيَةَ أَلِفًا؟

قُلْتُ: هُوَ لَاحِنٌ خَارِجٌ عَنْ كَلَامِ الْعَرَبِ خُرُوجَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: الْإِقْدَامُ عَلَى جَمْعِ السَّاكِنَيْنِ عَلَى غَيْرِ حَدِّهِ، وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلُ حَرْفَ لِينٍ، وَالثَّانِي حَرْفًا مُدْغَمًا نَحْوُ قَوْلِهِ: الضَّالِّينَ وَخُوَيْصَّةٍ.

– وَالثَّانِي: إِخْطَاءُ طَرِيقِ التَّخْفِيفِ، لِأَنَّ طَرِيقَ تَخْفِيفِ الْهَمْزَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ الْمَفْتُوحِ مَا قَبْلَهَا أَنْ تُخْرَجَ بَيْنَ بَيْنَ، فَأَمَّا الْقَلْبُ أَلِفًا فَهُوَ تَخْفِيفُ الْهَمْزَةِ السَّاكِنَةِ الْمَفْتُوحِ مَا قَبْلَهَا كَهَمْزَةِ رَأْسٍ.

وَالْإِنْذَارُ: التَّخْوِيفُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ بِالزَّجْرِ عَنِ الْمَعَاصِي.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَوْقِعُ لَا يُؤْمِنُونَ؟

قُلْتُ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً مُؤَكِّدَةً لِلْجُمْلَةِ قَبْلَهَا، أَوْ خَبَرًا لِإِنَّ وَالْجُمْلَةُ قَبْلَهَا اعْتِرَاضٌ.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]

الْخَتْمُ وَالْكَتْمُ أَخَوَانِ، لِأَنَّ فِي الِاسْتِيثَاقِ مِنَ الشَّيْءِ بِضَرْبِ الْخَاتَمِ عَلَيْهِ كَتْمًا لَهُ وَتَغْطِيَةً؛ لِئَلَّا يُتَوَصَّلَ إِلَيْهِ وَلَا يُطَّلَعَ عَلَيْهِ.

وَالْغِشَاوَةُ: الْغِطَاءُ فِعَّالَةٌ مِنْ غَشَّاهُ إِذَا غَطَّاهُ، وَهَذَا الْبِنَاءُ لِمَا يَشْتَمِلُ عَلَى الشَّيْءِ كَالْعِصَابَةِ وَالْعِمَامَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْخَتْمِ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ وَتَغْشِيَةِ الْأَبْصَارِ؟

قُلْتُ: لَا خَتْمَ وَلَا تَغْشِيَةَ ثَمَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كِلَا نَوْعَيْهِ وَهُمَا الِاسْتِعَارَةُ وَالتَّمْثِيلُ.

أَمَّا الِاسْتِعَارَةُ، فَأَنْ تُجْعَلَ قُلُوبُهُمْ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَنْفُذُ فِيهَا وَلَا يَخْلُصُ إِلَى ضَمَائِرِهَا مِنْ قِبَلِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ قَبُولِهِ وَاعْتِقَادِهِ، وَأَسْمَاعُهُمْ، لِأَنَّهَا تَمُجُّهُ وَتَنْبُو عَنِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

الْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، وَتَعَافُ اسْتِمَاعَهُ، كَأَنَّهَا مُسْتَوْثَقٌ مِنْهَا بِالْخَتْمِ، وَأَبْصَارُهُمْ، لِأَنَّهَا لَا تَجْتَلِي آيَاتِ اللَّهِ الْمَعْرُوضَةَ، وَدَلَائِلَهُ الْمَنْصُوبَةَ كَمَا تَجْتَلِيهَا أَعْيُنُ الْمُعْتَبِرِينَ الْمُسْتَبْصِرِينَ، كَأَنَّمَا غُطِّيَ عَلَيْهَا وَحُجِبَتْ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِدْرَاكِ.

وَأَمَّا التَّمْثِيلُ، فَأَنْ تُمَثَّلَ حَيْثُ لَمْ يَسْتَنْفِعُوا بِهَا فِي الْأَغْرَاضِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كُلِّفُوهَا وَخُلِقُوا مِنْ أَجْلِهَا بِأَشْيَاءَ ضُرِبَ حِجَابٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الِاسْتِنْفَاعِ بِهَا بِالْخَتْمِ وَالتَّغْطِيَةِ.

وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُ الْمَازِنِيِّينَ الْحُبْسَةَ فِي اللِّسَانِ وَالْعِيَّ خَتْمًا عَلَيْهِ، فَقَالَ:

خَتَمَ الْإِلَهُ عَلَى لِسَانِ عُذَافِرٍ ... خَتْمًا فَلَيْسَ عَلَى الْكَلَامِ بِقَادِرِ

وَإِذَا أَرَادَ النُّطْقَ خِلْتَ لِسَانَهُ ... لَحْمًا يُحَرِّكُهُ لِصَقْرٍ نَاقِرِ

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ أُسْنِدَ الْخَتْمُ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، وَإِسْنَادُهُ إِلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَالتَّوَصُّلِ إِلَيْهِ بِطُرُقِهِ وَهُوَ قَبِيحٌ، وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ فِعْلِ الْقَبِيحِ عُلُوًّا كَبِيرًا؛ لِعِلْمِهِ بِقُبْحِهِ وَعِلْمِهِ بِغِنَاهُ عَنْهُ، وَقَدْ نَصَّ عَلَى تَنْزِيهِ ذَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[1]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[2]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[3]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مِمَّا نَطَقَ بِهِ التَّنْزِيلُ؟

قُلْتُ: الْقَصْدُ إِلَى صِفَةِ الْقُلُوبِ بِأَنَّهَا كَالْمَخْتُومِ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا إِسْنَادُ الْخَتْمِ إِلَى اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– فَلِيُنَبِّهَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي فَرْطِ تَمَكُّنِهَا وَثَبَاتِ قَدَمِهَا كَالشَّيْءِ الْخُلُقِيِّ غَيْرِ الْعَرَضِيِّ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: فُلَانٌ مَجْبُولٌ عَلَى كَذَا وَمَفْطُورٌ عَلَيْهِ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ بَلِيغٌ فِي الثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ يُتَخَيَّلُ مَا خُيِّلَ إِلَيْكَ وَقَدْ وَرَدَتِ الْآيَةُ نَاعِيَةً عَلَى الْكُفَّارِ شَنَاعَةَ صِفَتِهِمْ وَسَمَاجَةَ حَالِهِمْ، وَنَبِيطَ بِذَلِكَ الْوَعِيدُ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ؟

وَيَجُوزُ أَنْ تُضْرَبَ الْجُمْلَةُ كَمَا هِيَ، وَهِيَ خَتْمٌ لِلَّهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَثَلًا كَقَوْلِهِمْ: (سَالَ بِهِ الْوَادِي) إِذَا هَلَكَ، وَ(طَارَتْ بِهِ الْعَنْقَاءُ) إِذَا أَطَالَ الْغَيْبَةَ، وَلَيْسَ لِلْوَادِي وَلَا لِلْعَنْقَاءِ عَمَلٌ فِي هَلَاكِهِ وَلَا فِي طُولِ غَيْبَتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَمْثِيلٌ مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي هَلَاكِهِ بِحَالِ مَنْ سَالَ بِهِ الْوَادِي، وَفِي طُولِ غَيْبَتِهِ بِحَالِ مَنْ طَارَتْ بِهِ الْعَنْقَاءُ، فَكَذَلِكَ مُثِّلَتْ حَالُ قُلُوبِهِمْ فِيمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّجَافِي عَنِ الْحَقِّ بِحَالِ قُلُوبٍ خَتَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا نَحْوِ قُلُوبِ الْأَغْتَامِ الَّتِي هِيَ فِي خُلُوِّهَا

---

[1] سورة ق، الآية 29.

[2] سورة الزُّخْرُفِ، الآية 76.

[3] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 28.

عَنِ الْفِطَنِ كَقُلُوبِ الْبَهَائِمِ، أَوْ بِحَالِ قُلُوبِ الْبَهَائِمِ أَنْفُسِهَا، أَوْ بِحَالِ قُلُوبٍ مُقَدَّرٍ خَتْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا حَتَّى لَا تَعِيَ شَيْئًا وَلَا تَفْقَهَ، وَلَيْسَ لَهُ –عَزَّ وَجَلَّ– فِعْلٌ فِي تَجَافِيهَا عَنِ الْحَقِّ وَنَبْوِهَا عَنْ قَبُولِهِ، وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنْ ذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُسْتَعَارَ الْإِسْنَادُ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ لِلَّهِ، فَيَكُونُ الْخَتْمُ مُسْنَدًا إِلَى اسْمِ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، وَهُوَ لِغَيْرِهِ حَقِيقَةً.

تَفْسِيرُ هَذَا أَنَّ لِلْفِعْلِ مُلَابَسَاتٍ شَتَّى، يُلَابِسُ الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ، وَالْمَصْدَرَ، وَالزَّمَانَ وَالْمَكَانَ، وَالْمُسَبِّبَ لَهُ، فَإِسْنَادُهُ إِلَى الْفَاعِلِ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ يُسْنَدُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ الْمُسَمَّى اسْتِعَارَةً، وَذَلِكَ لِمُضَاهَاتِهَا لِلْفَاعِلِ فِي مُلَابَسَةِ الْفِعْلِ، كَمَا يُضَاهِي الرَّجُلُ الْأَسَدَ فِي جَرَاءَتِهِ فَيُسْتَعَارُ لَهُ اسْمُهُ، فَيُقَالُ فِي الْمَفْعُولِ بِهِ: عِيشَةٌ رَاضِيَةٌ، وَمَاءٌ دَافِقٌ، وَفِي عَكْسِهِ: سَيْلٌ مُفْعَمٌ.

وَفِي الْمَصْدَرِ: شِعْرٌ شَاعِرٌ، وَذَيْلٌ ذَائِلٌ، وَفِي الزَّمَانِ: نَهَارُهُ صَائِمٌ، وَلَيْلُهُ قَائِمٌ، وَفِي الْمَكَانِ: طَرِيقٌ سَائِرٌ، وَنَهْرٌ جَارٍ، وَأَهْلُ مَكَّةَ يَقُولُونَ: صَلَّى الْمَقَامَ، وَفِي الْمُسَبِّبِ: بَنِي الْأَمِيرُ الْمَدِينَةَ، وَنَاقَةٌ ضَبُوثٌ وَحَلُوبٌ.

وَقَالَ:

.....إِذَا رَدَّ عَافِي الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا

فَالشَّيْطَانُ هُوَ الْخَاتِمُ فِي الْحَقِيقَةِ أَوِ الْكَافِرُ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ –سُبْحَانَهُ– لَمَّا كَانَ هُوَ الَّذِي أَقْدَرَهُ وَمَكَّنَهُ، أَسْنَدَ إِلَيْهِ الْخَتْمَ كَمَا يُسْنَدُ الْفِعْلُ إِلَى الْمُسَبِّبِ.

وَوَجْهٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَلَى الْقَطْعِ وَالْبَتِّ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ وَلَا تُغْنِي عَنْهُمُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ، وَلَا تُجْدِي عَلَيْهِمُ الْأَلْطَافُ الْمُحَصَّلَةُ وَلَا الْمُقَرَّبَةُ إِنْ أُعْطُوهَا، لَمْ يَبْقَ –بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا طَوْعًا وَاخْتِيَارًا– طَرِيقٌ إِلَى إِيمَانِهِمْ إِلَّا الْقَسْرُ وَالْإِلْجَاءُ، وَإِذَا لَمْ تَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا أَنْ يَقْسِرَهُمُ اللَّهُ وَيُلْجِئَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَقْسِرْهُمْ وَلَمْ يُلْجِئْهُمْ، لِئَلَّا يَنْتَقِضَ الْغَرَضُ فِي التَّكْلِيفِ عُبِّرَ عَنْ تَرْكِ الْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ بِالْخَتْمِ، إِشْعَارًا بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ تَرَامَى أَمْرُهُمْ فِي التَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهِ إِلَى حَدٍّ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ إِلَّا بِالْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ، وَهِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى فِي وَصْفِ لُجَاجِهِمْ فِي الْغَيِّ وَاسْتِشْرَائِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْبَغْيِ .

وَوَجْهٌ خَامِسٌ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِمَا كَانَ الْكَفَرَةُ يَقُولُونَهُ؛ تَهَكُّمًا بِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[1]، وَنَظِيرُهُ فِي الْحِكَايَةِ وَالتَّهَكُّمِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْأَسْمَاعُ دَاخِلَةً فِي حُكْمِ الْخَتْمِ وَفِي حُكْمِ التَّغْشِيَةِ فَعَلَى أَيِّهِمَا يُعَوَّلُ؟

قُلْتُ: عَلَى دُخُولِهَا فِي حُكْمِ الْخَتْمِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[3]، وَلِوَقْفِهِمْ عَلَى سَمْعِهِمْ دُونَ قُلُوبِهِمْ .

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي تَكْرِيرِ الْجَارِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: لَوْ لَمْ يُكَرَّرْ لَكَانَ انْتِظَامًا لِلْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ فِي تَعْدِيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَحِينَ اسْتَجَدَّ لِلْأَسْمَاعِ تَعْدِيَةٌ عَلَى حِدَةٍ كَانَ أَدَلَّ عَلَى شِدَّةِ الْخَتْمِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَوُحِّدَ السَّمْعُ كَمَا وُحِّدَ الْبَطْنُ فِي قَوْلِهِ:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا

يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا أُمِنَ اللَّبْسُ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمَنْ كَقَوْلِكَ: فَرَسُهُمْ وَثَوْبُهُمْ، وَأَنْتَ تُرِيدُ الْجَمْعَ رَفَضُوهُ.

وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: السَّمْعُ مَصْدَرٌ فِي أَصْلِهِ، وَالْمَصَادِرُ لَا تُجْمَعُ، فَلَمْحُ الْأَصْلِ يَدُلُّ عَلَيْهِ جَمْعُ الْأُذُنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[5]، وَأَنْ تُقَدِّرَ مُضَافًا مَحْذُوفًا: أَيْ وَعَلَى حَوَاسِّ سَمْعِهِمْ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: ﴿وَعَلَى أَسْمَاعِهِمْ﴾[6].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا مَنَعَ أَبَا عَمْرٍو وَالْكِسَائِيَّ مِنْ إِمَالَةِ أَبْصَارِهِمْ مَا فِيهِ مِنْ حَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ وَهُوَ الصَّادُ؟

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية 5.

[2] سورة الْبَيِّنَةِ، الآية 1.

[3] سورة الْجَاثِيَةِ، الآية 23.

[4] سورة الْجَاثِيَةِ، الآية 23.

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية 5.

[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

قُلْتُ: لِأَنَّ الرَّاءَ الْمَكْسُورَةَ تَغْلِبُ الْمُسْتَعْلِيَةَ، لِمَا فِيهِ مِنَ التَّكْرِيرِ، كَأَنَّ فِيهَا كَسْرَتَيْنِ، وَذَلِكَ أَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى الْإِمَالَةِ، وَأَنْ يُمَالَ لَهُ مَا لَا يُمَالُ، وَالْبَصَرُ نُورُ الْعَيْنِ، وَهُوَ مَا يُبْصِرُ بِهِ الرَّائِي وَيُدْرِكُ الْمَرْئِيَّاتِ، كَمَا أَنَّ الْبَصِيرَةَ نُورُ الْقَلْبِ، وَهُوَ مَا بِهِ يَسْتَبْصِرُ وَيَتَأَمَّلُ، وَكَأَنَّهُمَا جَوْهَرَانِ لَطِيفَانِ خَلَقَهُمَا اللَّهُ فِيهِمَا آلَتَيْنِ لِلْإِبْصَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ .

وَقُرِئَ: (غِشَاوَةً) بِالْكَسْرِ وَالنَّصْبِ، وَغُشَاوَةٌ: بِالضَّمِّ وَالرَّفْعِ، وَغَشَاوَةً: بِالْفَتْحِ وَالنَّصْبِ، وَغِشْوَةٌ: بِالْكَسْرِ وَالرَّفْعِ، وَغَشْوَةٌ: بِالْفَتْحِ وَالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، وَعَشَاوَةٌ: بِالْعَيْنِ غَيْرِ الْمُعْجَمَةِ وَالرَّفْعِ، مِنَ الْعَشَا .

وَالْعَذَابُ: مِثْلُ النَّكَالِ بِنَاءً وَمَعْنًى، لِأَنَّكَ تَقُولُ: أَعْذَبَ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا أَمْسَكَ عَنْهُ، كَمَا تَقُولُ: نَكَلَ عَنْهُ، وَمِنْهُ الْعَذْبُ، لِأَنَّهُ يَقْمَعُ الْعَطَشَ وَيَرْدَعُهُ، بِخِلَافِ الْمِلْحِ فَإِنَّهُ يَزِيدُهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهُ نُقَاخًا، لِأَنَّهُ يَنْقَخُ الْعَطَشَ أَيْ يَكْسِرُهُ، وَفُرَاتًا، لِأَنَّهُ يَرْفُتُهُ عَلَى الْقَلْبِ.

ثُمَّ اتُّسِعَ فِيهِ فَسُمِّيَ كُلُّ أَلَمٍ فَادِحٍ عَذَابًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَكَالًا، أَيْ عِقَابًا يَرْتَدِعُ بِهِ الْجَانِي عَنِ الْمُعَاوَدَةِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَظِيمِ وَالْكَبِيرِ، أَنَّ الْعَظِيمَ نَقِيضُ الْحَقِيرِ، وَالْكَبِيرَ نَقِيضُ الصَّغِيرِ، فَكَأَنَّ الْعَظِيمَ فَوْقَ الْكَبِيرِ، كَمَا أَنَّ الْحَقِيرَ دُونَ الصَّغِيرِ، وَيُسْتَعْمَلَانِ فِي الْجُثَثِ وَالْأَحْدَاثِ جَمِيعًا، تَقُولُ: رَجُلٌ عَظِيمٌ وَكَبِيرٌ، تُرِيدُ جُثَّتَهُ أَوْ خَطَرَهُ، وَمَعْنَى التَّنْكِيرِ أَنَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ نَوْعًا مِنَ الْأَغْطِيَةِ غَيْرَ مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ، وَهُوَ غِطَاءُ التَّعَامِي عَنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَهُمْ مِنْ بَيْنِ الْآلَامِ الْعِظَامِ نَوْعٌ عَظِيمٌ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ.

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَلَا تُبْلِنَا بِسَخَطِكَ يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1]

افْتَتَحَ –سُبْحَانَهُ– بِذِكْرِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، وَوَاطَأَتْ فِيهِ قُلُوبُهُمْ أَلْسِنَتَهُمْ، وَوَافَقَ سِرُّهُمْ عَلَنَهُمْ وَفِعْلُهُمْ قَوْلَهُمْ، ثُمَّ ثَنَّى بِالَّذِينَ مَحَضُوا الْكُفْرَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا قُلُوبًا وَأَلْسِنَةً، ثُمَّ

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

ثَلَّثَ بِالَّذِينَ آمَنُوا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ، وَأَبْطَنُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾[1]، وَسَمَّاهُمُ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانُوا أَخْبَثَ الْكَفَرَةِ، وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَمْقَتَهُمْ عِنْدَهُ، لِأَنَّهُمْ خَلَطُوا بِالْكُفْرِ؛ تَمْوِيهًا وَتَدْلِيسًا، وَبِالشِّرْكِ؛ اسْتِهْزَاءً وَخِدَاعًا، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[2]، وَوَصَفَ حَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آيَتَيْنِ، وَحَالَ الَّذِينَ نَافَقُوا فِي ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً، نَعَى عَلَيْهِمْ فِيهَا خُبْثَهُمْ وَمَكْرَهُمْ، وَفَضَحَهُمْ وَسَفَّهَهُمْ، وَاسْتَجْهَلَهُمْ وَاسْتَهْزَأَ بِهِمْ، وَتَهَكَّمَ بِفِعْلِهِمْ، وَسَجَّلَ بِطُغْيَانِهِمْ وَعَمَهِهِمْ، وَدَعَاهُمْ صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا، وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ الشَّنِيعَةَ، وَقِصَّةُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ آخِرِهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى قِصَّةِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَا تَعْطَفُ الْجُمْلَةُ عَلَى الْجُمْلَةِ.

وَأَصْلُ (نَاسٍ): أُنَاسٌ، حُذِفَتْ هَمْزَتُهُ تَخْفِيفًا كَمَا قِيلَ: لُوَقَةٌ فِي أَلْوِقَةٍ، وَحَذْفُهَا مَعَ لَامِ التَّعْرِيفِ كَاللَّازِمِ لَا يَكَادُ يُقَالُ الْأُنَاسُ، وَيَشْهَدُ لِأَصْلِهِ إِنْسَانٌ، وَأُنَاسٌ وَأَنَاسِيٌّ، وَإِنْسٌ، وَسُمُّوا لِظُهُورِهِمْ وَأَنَّهُمْ يُؤْنَسُونَ أَيْ يُبْصَرُونَ، كَمَا سُمِّيَ الْجِنُّ لِاجْتِنَانِهِمْ، وَلِذَلِكَ سُمُّوا بَشَرًا، وَوَزْنُ نَاسٍ فُعَالٌ، لِأَنَّ الزِّنَةَ عَلَى الْأُصُولِ.

أَلَا تُرَاكَ تَقُولُ فِي وَزْنِ: "قِهْ" افْعَلْ، وَلَيْسَ مَعَكَ إِلَّا الْعَيْنُ وَحْدَهَا؟! وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْجَمْعِ كَرُخَالٍ، وَأَمَّا نُوَيْسٌ فَمِنَ الْمُصَغَّرِ الْآتِي عَلَى خِلَافِ مُكَبَّرِهِ كَأُنَيْسِيَانٍ وَرُوَيْجِلٍ، وَلَامُ التَّعْرِيفِ فِيهِ لِلْجِنْسِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَهْدِ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَارِّ ذِكْرُهُمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّصْمِيمِ عَلَى النِّفَاقِ، وَنَظِيرُ مَوْقِعِهِ مُوقِعُ الْقَوْمِ فِي قَوْلِكَ: نَزَلْتُ بِبَنِي فُلَانٍ فَلَمْ يُقْرُونِي وَالْقَوْمُ لِئَامٌ.

وَ﴿مَنْ﴾ فِي: ﴿مَنْ يَقُولُ﴾[3] مَوْصُوفَةٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمِنَ النَّاسِ نَاسٌ يَقُولُونَ كَذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾[4]، إِنْ جَعَلْتَ اللَّامَ لِلْجِنْسِ؛ وَإِنْ جَعَلْتَهَا لِلْعَهْدِ، فَمَوْصُولَةٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾[5].

---

[1] سورة النِّسَاءِ، الآية 143.

[2] سورة النِّسَاءِ، الآية 145.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْأَحْزَابِ، الآية 23.

[5] سورة التَّوْبَةِ، الآية 61.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُجْعَلُونَ بَعْضَ أُولَئِكَ وَالْمُنَافِقُونَ غَيْرُ الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمْ؟

قُلْتُ: الْكُفْرُ جَمَعَ الْفَرِيقَيْنِ مَعًا وَصَيَّرَهُمْ جِنْسًا وَاحِدًا، وَكَوْنُ الْمُنَافِقِينَ نَوْعًا مِنْ نَوْعَيْ هَذَا الْجِنْسِ -مُغَايِرًا لِلنَّوْعِ الْآخَرِ بِزِيَادَةٍ زَادُوهَا عَلَى الْكُفْرِ الْجَامِعِ بَيْنَهُمَا مِنَ الْخَدِيعَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ- لَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ أَنْ يَكُونُوا بَعْضًا مِنَ الْجِنْسِ، فَإِنَّ الْأَجْنَاسَ إِنَّمَا تَنَوَّعَتْ لِمُغَايِرَاتٍ وَقَعَتْ بَيْنَ بَعْضِهَا وَبَعْضٍ، وَتِلْكَ الْمُغَايِرَاتُ إِنَّمَا تَأْتِي بِالنَّوْعِيَّةِ وَلَا تَأْبَى الدُّخُولَ تَحْتَ الْجِنْسِيَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ اخْتُصَّ بِالذِّكْرِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؟

قُلْتُ: اخْتِصَاصُهُمَا بِالذِّكْرِ كَشَفَ عَنْ إِفْرَاطِهِمْ فِي الْخُبْثِ وَتَمَادِيهِمْ فِي الدَّعَارَةِ، لِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَهُودًا، وَإِيمَانُ الْيَهُودِ بِاللَّهِ لَيْسَ بِإِيمَانٍ، لِقَوْلِهِمْ: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[1]، وَكَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَهُ عَلَى خِلَافِ صِفَتِهِ؛ فَكَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[2] خُبْثًا مُضَاعَفًا وَكُفْرًا مُوَجَّهًا، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا لَوْ صَدَرَ عَنْهُمْ لَا عَلَى وَجْهِ النِّفَاقِ وَعَقِيدَتُهُمْ عَقِيدَتُهُمْ فَهُوَ كُفْرٌ لَا إِيمَانٌ، فَإِذَا قَالُوهُ عَلَى وَجْهِ النِّفَاقِ خَدِيعَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَاسْتِهْزَاءً بِهِمْ، وَأَرَوْهُمْ أَنَّهُمْ مِثْلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ كَانَ خُبْثًا إِلَى خُبْثٍ، وَكُفْرًا إِلَى كُفْرٍ -وَأَيْضًا- فَقَدْ أَوْهَمُوا فِي هَذَا الْمَقَالِ أَنَّهُمُ اخْتَارُوا الْإِيمَانَ مِنْ جَانِبَيْهِ، وَاكْتَنَفُوهُ مِنْ قُطْرَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، وَفِي تَكْرِيرِ الْبَاءِ أَنَّهُمُ ادَّعَوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِيمَانَيْنِ عَلَى صِفَةِ الصِّحَّةِ وَالِاسْتِحْكَامِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3] قَوْلَهُمْ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[4]، وَالْأَوَّلُ فِي ذِكْرِ شَأْنِ الْفِعْلِ لَا الْفَاعِلِ، وَالثَّانِي: فِي ذِكْرِ شَأْنِ الْفَاعِلِ لَا الْفِعْلِ؟

قُلْتُ: الْقَصْدُ إِلَى إِنْكَارِ مَا ادَّعَوْهُ وَنَفْيِهِ، فَسُلِكَ فِي ذَلِكَ طَرِيقٌ أَدَّى إِلَى الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ، وَفِيهِ مِنَ التَّوْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ إِخْرَاجُ ذَوَاتِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنْ تَكُونَ طَائِفَةً مِنْ طَوَائِفِ الْمُؤْمِنِينَ، لِمَا عُلِمَ مِنْ حَالِهِمُ الْمُنَافِيَةِ لِحَالِ الدَّاخِلِينَ فِي الْإِيمَانِ، وَإِذَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَقَدِ انْطَوَى تَحْتَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ نَفْيُ مَا انْتَحَلُوا إِثْبَاتَهُ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْبَتِّ وَالْقَطْعِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-:

---

[1] سورة التَّوْبَة، الآية 30.

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 8.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[1] هُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: وَمَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جَاءَ الْإِيمَانُ مُطْلَقًا فِي الثَّانِي وَهُوَ مُقَيَّدٌ فِي الْأَوَّلِ؟

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ التَّقْيِيدُ وَيُتْرَكَ لِدَلَالَةِ الْمَذْكُورِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُرَادَ بِالْإِطْلَاقِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْإِيمَانِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، لَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا مِنَ الْإِيمَانِ بِغَيْرِهِمَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْوَقْتُ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ وَهُوَ الْأَبَدُ الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ، لِتَأَخُّرِهِ عَنِ الْأَوْقَاتِ الْمُنْقَضِيَةِ، وَأَنْ يُرَادَ الْوَقْتُ الْمَحْدُودُ مِنَ النُّشُورِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، لِأَنَّهُ آخِرُ الْأَوْقَاتِ الْمَحْدُودَةِ الَّذِي لَا حَدَّ لِلْوَقْتِ بَعْدَهُ.

وَالْخَدْعُ: أَنْ يُوهِمَ صَاحِبَهُ خِلَافَ مَا يُرِيدُ بِهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَبٌّ خَادِعٌ وَخَدِعٌ، إِذَا أَمَرَ الْحَارِشُ يَدَهُ عَلَى بَابِ جُحْرِهِ أَوْهَمَهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابٍ آخَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذَلِكَ وَمُخَادَعَةُ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ لَا تَصِحُّ، لِأَنَّ الْعَالِمَ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ لَا يَخْدَعُ، وَالْحَكِيمَ الَّذِي لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ لَا يَخْدَعُ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَإِنْ جَازَ أَنْ يُخْدَعُوا لَمْ يَجُزْ أَنْ يَخْدَعُوا.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ:

وَاسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّ مُنْخَـــــــــــدِعِ

وَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

إِنَّ الْحَلِيمَ وَذَا الْإِسْلَامِ يُخْتَلَـــــــــــبُ

فَقَدْ جَاءَ النَّعْتُ بِالِانْخِدَاعِ وَلَمْ يَأْتِ بِالْخَدْعِ.

قُلْتُ: فِيهِ وُجُوهٌ:

- أَحَدُهَا: أَنْ يُقَالَ كَانَتْ صُورَةُ صُنْعِهِمْ مَعَ اللَّهِ -حَيْثُ يَتَظَاهَرُونَ بِالْإِيمَانِ وَهُمْ كَافِرُونَ- صُورَةَ صُنْعِ الْخَادِعِينَ، وَصُورَةُ صُنْعِ اللَّهِ مَعَهُمْ -حَيْثُ أَمَرَ بِإِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ عِنْدَهُ فِي عِدَادِ شِرَارِ الْكَفَرَةِ وَأَهْلِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ- صُورَةَ صُنْعِ الْخَادِعِ، وَكَذَلِكَ صُورَةُ صُنْعِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ حَيْثُ امْتَثَلُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيهِمْ فَأَجْرَوْا أَحْكَامَهُمْ عَلَيْهِمْ.

---

[1] سورة الْمَائِدَةِ، الآية 37.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَرْجَمَةً عَنْ مُعْتَقَدِهِمْ وَظَنِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِمَّنْ يَصِحُّ خِدَاعُهُ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ ادِّعَاؤُهُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ نِفَاقًا لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِاللَّهِ وَلَا بِصِفَاتِهِ، وَلَا أَنَّ لِذَاتِهِ تَعَلُّقًا بِكُلِّ مَعْلُومٍ، وَلَا أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ فِعْلِ الْقَبَائِحِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْ مِثْلِهِ تَجْوِيزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِي زَعْمِهِ مَخْدُوعًا وَمُصَابًا بِالْمَكْرُوهِ مِنْ وَجْهٍ خَفِيٍّ، وَتَجْوِيزُ أَنْ يُدَلِّسَ عَلَى عِبَادِهِ وَيَخْدَعَهُمْ.

– وَالثَّالِثُ: أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَيُرَادَ الرَّسُولُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، لِأَنَّهُ خَلِيفَتُهُ فِي أَرْضِهِ، وَالنَّاطِقُ عَنْهُ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ مَعَ عِبَادِهِ، كَمَا يُقَالُ: قَالَ الْمَلِكُ كَذَا وَرَسَمَ كَذَا، وَإِنَّمَا الْقَائِلُ وَالرَّاسِمُ وَزِيرُهُ أَوْ بَعْضُ خَاصَّتِهِ الَّذِينَ قَوْلُهُمْ قَوْلُهُ وَرَسْمُهُمْ رَسْمُهُ، مِصْدَاقُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[2].

– وَالرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرَمُهُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى يُخَادِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَفَائِدَةُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ قُوَّةُ الِاخْتِصَاصِ.

وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ سُلِكَ بِهِمْ ذَلِكَ الْمَسْلَكَ، وَمِثْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[3]، وَكَذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[4].

وَنَظِيرُهُ فِي كَلَامِهِمْ: عَلِمْتُ زَيْدًا فَاضِلًا، وَالْغَرَضُ فِيهِ ذِكْرُ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ بِفَضْلِ زَيْدٍ لَا بِهِ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ مَعْلُومًا لَهُ قَدِيمًا، كَأَنَّهُ قِيلَ: عَلِمْتُ فَضْلَ زَيْدٍ، وَلَكِنْ ذِكْرُ زَيْدٍ تَوْطِئَةٌ وَتَمْهِيدٌ لِذِكْرِ فَضْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِلِاقْتِصَارِ بِ(خَادَعْتُ) عَلَى وَاحِدٍ وَجْهٌ صَحِيحٌ؟

قُلْتُ: وَجْهُهُ أَنْ يُقَالَ: عَنَى بِهِ "فَعَلْتُ" إِلَّا أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زِنَةِ: "فَاعَلْتُ" لِأَنَّ الزِّنَةَ فِي أَصْلِهَا لِلْمُغَالَبَةِ وَالْمُبَارَاةِ، وَالْفِعْلُ مَتَى غُولِبَ فِيهِ فَاعِلُهُ جَاءَ أَبْلَغَ وَأَحْكَمَ مِنْهُ إِذَا زَاوَلَهُ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُغَالِبٍ وَلَا مُبَارٍ لِزِيَادَةِ قُوَّةِ الدَّاعِي إِلَيْهِ، وَيُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا)، وَهُوَ أَبُو حَيْوَةَ.

---

[1] سورة الْفَتْحِ، الآية 10.

[2] سورة النِّسَاءِ، الآية 80.

[3] سورة التَّوْبَةِ، الآية 62.

[4] سورة الْأَحْزَابِ، الآية 57.

وَ﴿يُخَادِعُونَ﴾[1]: بَيَانٌ لِـ﴿يَقُولُ﴾[2]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلِمَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ كَاذِبِينَ وَمَا رِفْقُهُمْ فِي ذَلِكَ؟ فَقِيلَ: يُخَادِعُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَمَّ كَانُوا يُخَادِعُونَ؟

قُلْتُ: كَانُوا يُخَادِعُونَهُمْ عَنْ أَغْرَاضٍ لَهُمْ وَمَقَاصِدَ مِنْهَا مُتَارَكَتُهُمْ وَإِعْفَاؤُهُمْ عَنِ الْمُحَارَبَةِ وَعَمَّا كَانُوا يَطْرُقُونَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَمِنْهَا اصْطِنَاعُهُمْ بِمَا يَصْطَنِعُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِكْرَامِهِمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِعْطَائِهِمُ الْحُظُوظَ مِنَ الْمَغَانِمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ، وَمِنْهَا اطِّلَاعُهُمْ -لِاخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ- عَلَى الْأَسْرَارِ الَّتِي كَانُوا حُرَّاصًا عَلَى إِذَاعَتِهَا إِلَى مُنَابِذِيهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَوْ أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ حَتَّى لَا يَصِلُوا إِلَى هَذِهِ الْأَغْرَاضِ بِخِدَاعِهِمْ عَنْهَا؟

قُلْتُ: لَمْ يُظْهِرْ عَلَيْهِمْ لِمَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا مِنَ الْمَصَالِحِ الَّتِي لَوْ أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ لَانْقَلَبَتْ مَفَاسِدَ، وَاسْتِبْقَاءُ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ وَمُتَارَكَتُهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِغْوَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَتَلْقِينِهِمُ النِّفَاقَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ السَّبَبَ فِيهِ مَا عَلِمَهُ تَعَالَى مِنَ الْمَصْلَحَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ﴾[3]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: وَمَا يُعَامِلُونَ تِلْكَ الْمُعَامَلَةَ الْمُشَبَّهَةَ بِمُعَامَلَةِ الْمُخَادِعِينَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، لِأَنَّ ضَرَرَهَا يَلْحَقُهُمْ، وَمَكْرَهَا يَحِيقُ بِهِمْ، كَمَا تَقُولُ: فُلَانٌ يُضَارُّ فُلَانًا وَمَا يُضَارُّ إِلَّا نَفْسَهُ، أَيْ: دَائِرَةُ الضِّرَارِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَغَيْرُ مُتَخَطِّيَةٍ إِيَّاهُ.

وَأَنْ يُرَادَ حَقِيقَةُ الْمُخَادَعَةِ أَيْ: وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَخْدَعُونَ أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ يُمَنُّونَهَا الْأَبَاطِيلَ وَيَكْذِبُونَهَا فِيمَا يُحَدِّثُونَهَا بِهِ، وَأَنْفُسُهُمْ كَذَلِكَ تُمَنِّيهِمْ وَتُحَدِّثُهُمْ بِالْأَمَانِيِّ.

وَأَنْ يُرَادَ: وَمَا يَخْدَعُونَ، فَجِيءَ بِهِ عَلَى لَفْظِ: "يُفَاعِلُونَ" لِلْمُبَالَغَةِ، وَقُرِئَ: (وَمَا يُخْدِعُونَ)، وَيُخْدَعُونَ مِنْ خُدِعَ، وَيَخْدَعُونَ -بِفَتْحِ الْيَاءِ- بِمَعْنَى يُخْدَعُونَ، وَيُخْدَعُونَ، وَيُخَادَعُونَ عَلَى لَفْظِ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وَالنَّفْسُ: ذَاتُ الشَّيْءِ وَحَقِيقَتُهُ، يُقَالُ: عِنْدِي كَذَا نَفْسًا، ثُمَّ قِيلَ لِلْقَلْبِ: نَفْسٌ، لِأَنَّ النَّفْسَ بِهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمُ: الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ، وَكَذَلِكَ بِمَعْنَى الرُّوحِ، وَلِلدَّمِ نَفْسٌ، لِأَنَّ قِوَامَهَا بِالدَّمِ، وَلِلْمَاءِ نَفْسٌ، لِفَرْطِ حَاجَتِهَا إِلَيْهِ؟

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]، وَحَقِيقَةُ نَفْسِ الرَّجُلِ بِمَعْنَى عَيْنٍ أُصِيبَتْ نَفْسُهُ، كَقَوْلِهِمْ: فُلَانٌ يُؤَامِرُ نَفْسَيْهِ إِذَا تَرَدَّدَ فِي الْأَمْرِ اتَّجَهَ لَهُ رَأْيَانِ وَدَاعِيَانِ لَا يَدْرِي عَلَى أَيِّهِمَا يُعَرِّجُ، كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا دَاعِيَ النَّفْسِ وَهَاجِسَ النَّفْسِ، فَسَمَّوْهُمَا: نَفْسَيْنِ، إِمَّا لِصُدُورِهِمَا عَنِ النَّفْسِ، وَإِمَّا لِأَنَّ الدَّاعِيَيْنِ لَمَّا كَانَا كَالْمُشِيرَيْنِ عَلَيْهِ وَالْآمِرَيْنِ لَهُ شَبَّهُوهُمَا بِذَاتَيْنِ فَسَمَّوْهُمَا نَفْسَيْنِ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَنْفُسِ هَهُنَا: ذَوَاتُهُمْ، وَالْمَعْنَى بِمُخَادَعَتِهِمْ: ذَوَاتَهُمْ: أَنَّ الْخِدَاعَ لَاصِقٌ بِهِمْ لَا يَعْدُوهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ وَلَا يَتَخَطَّاهُمْ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: قُلُوبُهُمْ وَدَوَاعِيهِمْ وَآرَاؤُهُمْ.

وَالشُّعُورُ عِلْمُ الشَّيْءِ عِلْمَ حِسٍّ، مِنَ الشِّعَارِ، وَمَشَاعِرُ الْإِنْسَانِ: حَوَاسُّهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ لُحُوقَ ضَرَرِ ذَلِكَ بِهِمْ كَالْمَحْسُوسِ، وَهُمْ لِتَمَادِي غَفْلَتِهِمْ كَالَّذِي لَا حِسَّ لَهُ.

وَاسْتِعْمَالُ الْمَرَضِ فِي الْقَلْبِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً وَمَجَازًا، فَالْحَقِيقَةُ أَنْ يُرَادَ الْأَلَمُ كَمَا تَقُولُ: فِي جَوْفِهِ مَرَضٌ، وَالْمَجَازُ أَنْ يُسْتَعَارَ لِبَعْضِ أَعْرَاضِ الْقَلْبِ، كَسُوءِ الِاعْتِقَادِ، وَالْغِلِّ، وَالْحَسَدِ، وَالْمَيْلِ إِلَى الْمَعَاصِي، وَالْعَزْمِ عَلَيْهَا، وَاسْتِشْعَارِ الْهَوَى، وَالْجُبْنِ، وَالضَّعْفِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فَسَادٌ وَآفَةٌ شَبِيهَةٌ بِالْمَرَضِ، كَمَا اسْتُعِيرَتِ الصِّحَّةُ وَالسَّلَامَةُ فِي نَقَائِضِ ذَلِكَ.

وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ سُوءِ الِاعْتِقَادِ وَالْكُفْرِ، أَوْ مِنَ الْغِلِّ وَالْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ، لِأَنَّ صُدُورَهُمْ كَانَتْ تَغْلِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْمُؤْمِنِينَ غِلًّا وَحَنَقًا، وَيُبْغِضُونَهُمُ الْبَغْضَاءَ الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ –تَعَالَى– فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[2]، وَيَتَحَرَّقُونَ عَلَيْهِمْ حَسَدًا ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[3].

وَنَاهِيكَ مِمَّا كَانَ مِنِ ابْنِ أُبَيٍّ، وَقَوْلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ، لَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ أَنْ يَعْصِبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ شَرِقَ بِذَلِكَ"، أَوْ يُرَادُ مَا تَدَاخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالْجُبْنِ وَالْخَوَرِ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ

---

[1] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 30.

[2] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 118.

[3] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 120.

قَوِيَّةً، إِمَّا لِقُوَّةِ طَمَعِهِمْ فِيمَا كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ: أَنَّ رِيحَ الْإِسْلَامِ تَهُبُّ حِينًا ثُمَّ تَسْكُنُ، وَلِوَاءَهُ يَخْفُقُ أَيَّامًا ثُمَّ يَقَرُّ، فَضَعُفَتْ حِينَ مَلَكَهَا الْيَأْسُ عِنْدَ إِنْزَالِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ النَّصْرَ، وَإِظْهَارِ دِينِ الْحَقِّ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَإِمَّا لِجَرَاءَتِهِمْ وَجَسَارَتِهِمْ فِي الْحُرُوبِ فَضَعُفَتْ جُبْنًا وَخَوْرًا حِينَ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَشَاهَدُوا شَوْكَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمْدَادَ اللَّهِ لَهُمْ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ".

وَمَعْنَى زِيَادَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ مَرَضًا أَنَّهُ كُلَّمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ الْوَحْيَ فَسَمِعُوهُ كَفَرُوا بِهِ فَازْدَادُوا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَكَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي زَادَهُمْ مَا ازْدَادُوهُ إِسْنَادًا لِلْفِعْلِ إِلَى الْمُسَبِّبِ لَهُ، كَمَا أَسْنَدَهُ إِلَى السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[1]، لِكَوْنِهَا سَبَبًا، أَوْ كُلَّمَا زَادَ رَسُولَهُ نُصْرَةً وَتَبْسُطًا فِي الْبِلَادِ وَنَقْصًا مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ ازْدَادُوا حَسَدًا وَغِلًّا وَبُغْضًا، وَازْدَادَتْ قُلُوبُهُمْ ضَعْفًا وَقِلَّةَ طَمَعٍ فِيمَا عَقَدُوا بِهِ رَجَاءَهُمْ وَجُبْنًا وَخَوْرًا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِزِيَادَةِ الْمَرَضِ الطَّبْعُ.

وَقَرَأَ أَبُو عُمَرَ فِي رِوَايَةِ الْأَصْمَعِيِّ: مَرْضٌ وَمَرْضًا بِسُكُونِ الرَّاءِ.

يُقَالُ: أَلِمَ فَهُوَ أَلِيمٌ كَوَجِعَ فَهُوَ وَجِيعٌ، وَوُصِفَ الْعَذَابُ بِهِ نَحْوُ قَوْلِهِ:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيـــــــعٌ

وَهَذَا عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِمْ: جَدَّ جَدُّهُ، وَالْأَلَمِ فِي الْحَقِيقَةِ لِلْمُؤْلِمِ، كَمَا أَنَّ الْجَدَّ لِلْجَادِّ .

وَالْمُرَادُ بِكَذِبِهِمْ قَوْلُهُمْ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[2]، وَفِيهِ رَمْزٌ إِلَى قُبْحِ الْكَذِبِ وَسَمَاجَتِهِ، وَتَخْيِيلُ أَنَّ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ لَاحِقٌ بِهِمْ مِنْ أَجْلِ كَذِبِهِمْ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾[3]، وَالْقَوْمُ كَفَرَةٌ، وَإِنَّمَا خُصَّتِ الْخَطِيئَاتُ، اسْتِعْظَامًا لَهَا وَتَنْفِيرًا عَنِ ارْتِكَابِهَا.

وَالْكَذِبُ: الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ بِهِ وَهُوَ قَبِيحٌ كُلُّهُ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "أَنَّهُ كَذَبَ ثَلَاثَ كِذْبَاتٍ"، فَالْمُرَادُ التَّعْرِيضُ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ صُورَتُهُ صُورَةَ الْكَذِبِ سُمِّيَ بِهِ، وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–؛ وَرُوِيَ مَرْفُوعًا: "إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ"؛ وَقُرِئَ: "يُكَذِّبُونَ" مِنْ كَذَّبَهُ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ صَدَّقَهُ، أَوْ مِنْ كَذَّبَ الَّذِي هُوَ مُبَالَغَةٌ فِي كَذَبَ، كَمَا بُولِغَ فِي صَدَقَ فَقِيلَ: صَدَّقَ،

---

[1] سورة التَّوْبَة، الآية 125.

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة]نُوح، الآية 25.

وَنَظِيرُهُمَا: بَانَ الشَّيْءُ وَبَيَّنَ، وَقَلَصَ الثَّوْبُ وَقَلَّصَ. أَوْ بِمَعْنَى الْكَثْرَةِ كَقَوْلِهِمْ: مَوَّتَتِ الْبَهَائِمُ، وَبَرَّكَتِ الْإِبِلُ، أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ: كَذَبَ الْوَحْشِيُّ إِذَا جَرَى شَوْطًا ثُمَّ وَقَفَ لِيَنْظُرَ مَا وَرَاءَهُ، لِأَنَّ الْمُنَافِقَ مُتَوَقِّفٌ مُتَرَدِّدٌ فِي أَمْرِهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لَهُ: مُذَبْذَبٌ، وَقَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– : "مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً".

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾[2] مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿يَكْذِبُونَ﴾[3]، وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَى ﴿يَقُولُ آمَنَّا﴾[4]، لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا، كَانَ صَحِيحًا، وَالْأَوَّلُ أَوْجَهُ.

وَالْفَسَادُ: خُرُوجُ الشَّيْءِ عَنْ حَال اسْتِقَامَتِهِ وَكَوْنِهِ مُنْتَفَعًا بِهِ، وَنَقِيضُهُ الصَّلَاحُ، وَهُوَ الْحُصُولُ عَلَى الْحَالِ الْمُسْتَقِيمَةِ النَّافِعَةِ، وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ: هَيْجُ الْحُرُوبِ وَالْفِتَنِ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ فَسَادُ مَا فِي الْأَرْضِ، وَانْتِفَاءُ الِاسْتِقَامَةِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاسِ وَالزُّرُوعِ وَالْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾[1]، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[2].

وَمِنْهُ قِيلَ لِحَرْبٍ كَانَتْ بَيْنَ طَيِّءٍ: حَرْبُ الْفَسَادِ، وَكَانَ فَسَادُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُمَايِلُونَ الْكُفَّارَ وَيُمَالِئُونَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِإِفْشَاءِ أَسْرَارِهِمْ إِلَيْهِمْ وَإِغْرَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى هَيْجِ الْفِتَنِ بَيْنَهُمْ.

فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعِهِمْ مُؤَدِّيًا إِلَى الْفَسَادِ قِيلَ لَهُمْ: ﴿لا تُفْسِدُوا﴾[3]، كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ: لَا تَقْتُلْ نَفْسَكَ بِيَدِكَ، وَلَا تَلْقِ نَفْسَكَ فِي النَّارِ، إِذَا أَقْدَمَ عَلَى مَا هَذِهِ عَاقِبَتُهُ، وَ"إِنَّمَا": لِقَصْرِ الْحُكْمِ عَلَى شَيْءٍ، كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا يَنْطِقُ زَيْدٌ، أَوْ لِقَصْرِ الشَّيْءِ عَلَى حُكْمٍ كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا زَيْدٌ كَاتِبٌ.

وَمَعْنَى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[4]: أَنَّ صِفَةَ الْمُصْلِحِينَ خَلُصَتْ لَهُمْ وَتَمَحَّضَتْ مِنْ غَيْرِ شَائِبَةِ قَادِحٍ فِيهَا مَنْ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْفَسَادِ، وَ"أَلَا": مُرَكَّبَةٌ مِنْ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ وَحَرْفِ النَّفْيِ، لِإِعْطَاءِ مَعْنَى التَّنْبِيهِ عَلَى تَحَقُّقِ مَا بَعْدَهَا، وَالِاسْتِفْهَامُ إِذَا دَخَلَ عَلَى النَّفْيِ أَفَادَ تَحْقِيقًا، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ﴾[5]، وَلِكَوْنِهَا فِي هَذَا الْمَنْصِبِ مِنَ التَّحْقِيقِ لَا تَكَادُ تَقَعُ الْجُمْلَةُ بَعْدَهَا إِلَّا مُصَدَّرَةً بِنَحْوِ مَا يُتَلَقَّى بِهِ الْقَسَمُ، وَأُخْتُهَا الَّتِي هِيَ "أَمَا": مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْيَمِينِ وَطَلَائِعِهَا:

أَمَا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ

****

أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَـــــكَ

رَدَّ اللَّهُ مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الِانْتِظَامِ فِي جُمْلَةِ الْمُصْلِحِينَ أَبْلَغَ رَدٍّ وَأَدَلَّهُ عَلَى سُخْطٍ عَظِيمٍ، وَالْمُبَالَغَةُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الِاسْتِئْنَافِ، وَمَا فِي كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ (أَلَا) وَ(إِنَّ) مِنَ التَّأْكِيدَيْنِ، وَتَعْرِيفِ الْخَبَرِ وَتَوْسِيطِ الْفَصْلِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية 205.

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 30.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْقِيَامَة، الآية 40.

وَقَوْلِهِ: ﴿ لا يَشْعُرُونَ﴾[1] أَتَوَهَّمُ فِي النَّصِيحَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

– أَحَدُهُمَا: تَقْبِيحُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، لِبُعْدِهِ مِنَ الصَّوَابِ، وَجَرِّهِ إِلَى الْفَسَادِ وَالْفِتْنَةِ.

– وَالثَّانِي: تَبْصِيرُهُمُ الطَّرِيقَ الْأَسَدَّ مِنِ اتِّبَاعِ ذَوِي الْأَحْلَامِ، وَدُخُولِهِمْ فِي عِدَادِهِمْ، فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِمْ أَنْ سَفَّهُوهُمْ لِفَرْطِ سَفَهِهِمْ، وَجَهَّلُوهُمْ لِتَمَادِي جَهْلِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِلْعَالِمِ مِمَّا يَلْقَى مِنَ الْجَهَلَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يُسْنَدَ ﴿قِيلَ﴾[2] إِلَى ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾[3] وَ﴿آمِنُوا﴾[4] وَإِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى الْفِعْلِ مِمَّا لَا يَصِحُّ؟

قُلْتُ: الَّذِي لَا يَصِحُّ هُوَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى مَعْنَى الْفِعْلِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ لَهُ إِلَى لَفْظِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ وَهَذَا الْكَلَامُ، فَهُوَ نَحْوُ قَوْلِكَ: "أَلِفٌ" ضَرْبٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، وَمِنْهُ: "زَعَمُوا مَطِيَّةُ الْكَذِبِ" وَ"مَا" فِي "كَمَا": يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَافَّةً مِثْلَهَا فِي "رُبَّمَا" وَمَصْدَرِيَّةً مِثْلَهَا فِي ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾[5].

وَاللَّامُ فِي ﴿النَّاسِ﴾[6] لِلْعَهْدِ، أَيْ كَمَا آمَنَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمِنْ مَعَهُ، أَوْ هُمْ نَاسٌ مَعْهُودُونَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَشْيَاعِهِ، لِأَنَّهُمْ مِنْ جِلْدَتِهِمْ وَمِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ، أَيْ: كَمَا آمَنَ أَصْحَابُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ، أَوْ لِلْجِنْسِ، أَيْ: كَمَا آمَنَ الْكَامِلُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، أَوْ جُعِلَ الْمُؤْمِنُونَ كَأَنَّهُمُ النَّاسُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَمَنْ عَدَاهُمْ كَالْبَهَائِمِ فِي فَقْدِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾[7] فِي مَعْنَى الْإِنْكَارِ، وَاللَّامُ فِي ﴿السُّفَهَاءُ﴾[8] : مُشَارٌ بِهَا إِلَى النَّاسِ، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ: إِنَّ زَيْدًا قَدْ سَعَى بِكَ، فَيَقُولُ: أَوَقَدْ فَعَلَ السَّفِيهُ؟!

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة التَّوْبَة، الآية 25.

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْجِنْسِ، وَيَنْطَوِي تَحْتَهُ الْجَارِي ذِكْرُهُمْ عَلَى زَعْمِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ، لِأَنَّهُمْ عِنْدَهُمْ أَعْرَقُ النَّاسِ فِي السَّفَهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سَفَّهُوهُمْ وَاسْتَرَقُّوا عُقُولَهُمْ، وَهُمُ الْعُقَلَاءُ الْمَرَاجِيحُ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ وَإِخْلَالِهِمْ بِالنَّظَرِ وَإِنْصَافِ أَنْفُسِهِمُ اعْتَقَدُوا أَنَّ مَا هُمْ فِيهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا عَدَاهُ بَاطِلٌ، وَمَنْ رَكِبَ مَتْنَ الْبَاطِلِ كَانَ سَفِيهًا، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي رِيَاسَةٍ وَسِطَةٍ فِي قَوْمِهِمْ وَيَسَارٍ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ فُقَرَاءَ.

وَمِنْهُمْ مَوَالٍ كَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَخَبَّابٍ، فَدَعَوْهُمْ سُفَهَاءَ، تَحْقِيرًا لِشَأْنِهِمْ، أَوْ أَرَادُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ وَأَشْيَاعَهُ وَمُفَارَقَتَهُمْ دِينَهُمْ وَمَا غَاظَهُمْ مِنْ إِسْلَامِهِمْ، وَفَتَّ فِي أَعْضَادِهِمْ، قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّجَلُّدِ؛ تَوَقِّيًا مِنَ الشَّمَاتَةِ بِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ مِنَ السَّفَهِ بِمَعْزِلٍ، وَالسَّفَهُ سَخَافَةُ الْعَقْلِ وَخِفَّةُ الْحِلْمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ فُصِّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِ ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وَالَّتِي قَبْلَهَا بِ: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾[2]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَمْرَ الدِّيَانَةِ وَالْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ حَتَّى يَكْتَسِبَ النَّاظِرُ الْمَعْرِفَةَ.

وَأَمَّا النِّفَاقُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَغْيِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْعَادَاتِ، مَعْلُومٌ عِنْدَ النَّاسِ، خُصُوصًا عِنْدَ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، وَمَا كَانَ قَائِمًا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّغَاوُرِ، وَالتَّنَاحُرِ، وَالتَّحَارُبِ، وَالتَّحَازُبِ، فَهُوَ كَالْمَحْسُوسِ الْمُشَاهَدِ، وَلِأَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ السَّفَهُ –وَهُوَ جَهْلٌ– فَكَانَ ذِكْرُ الْعِلْمِ مَعَهُ أَحْسَنَ طِبَاقًا لَهُ.

مَسَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ بِخِلَافِ مَا سِيقَتْ لَهُ أَوَّلُ قِصَّةِ الْمُنَافِقِينَ فَلَيْسَ بِتَكْرِيرٍ، لِأَنَّ تِلْكَ فِي بَيَانِ مَذْهَبِهِمْ وَالتَّرْجَمَةِ عَنْ نِفَاقِهِمْ، وَهَذِهِ فِي بَيَانِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ عَلَيْهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّكْذِيبِ لَهُمْ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ وَلِقَائِهِمْ بِوُجُوهِ الْمُصَادِقِينَ، وَإِيهَامِهِمْ أَنَّهُمْ مَعَهُمْ، فَإِذَا فَارَقُوهُمْ إِلَى شُطَّارِ دِينِهِمْ صَدَّقُوهُمْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ.

وَرُوِيَ: "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا ذَاتَ يَوْمٍ فَاسْتَقْبَلَهُمْ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: انْظُرُوا كَيْفَ أَرُدُّ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءَ عَنْكُمْ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالصِّدِّيقِ سَيِّدِ بَنِي تَيْمٍ وَشَيْخِ الْإِسْلَامِ وَثَانِي رَسُولِ اللَّهِ فِي الْغَارِ، الْبَاذِلِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عُمَرَ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِسَيِّدِ بَنِي عَدِيٍّ الْفَارُوقِ الْقَوِيِّ فِي دِينِ اللَّهِ، الْبَاذِلِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ وَخَتَنِهِ، سَيِّدِ بَنِي هَاشِمٍ مَا خَلَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ افْتَرَقُوا، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ؟ فَأَثْنَوْا عَلَيْهِ خَيْرًا، فَنَزَلَتْ".

وَيُقَالُ: لَقِيتُهُ وَلَاقَيْتُهُ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ قَرِيبًا مِنْهُ، وَهُوَ جَارِي مُلَاقِيَّ وَمُرَاوِقِيَّ، وَقَرَأَ أَبُو حَنِيفَةَ: وَإِذَا لَاقَوْا.

وَخَلَوْتُ بِفُلَانٍ وَإِلَيْهِ إِذَا انْفَرَدْتَ مَعَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ "خَلَا" بِمَعْنَى: مَضَى، وَخَلَّاكَ ذَمٌّ: أَيْ عَدَاكَ وَمَضَى عَنْكَ، وَمِنْهُ: الْقُرُونُ الْخَالِيَةُ، وَمِنْهُ "خَلَوْتُ بِهِ": إِذَا سَخِرْتَ مِنْهُ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ: خَلَا فُلَانٌ بِعَرْضِ فُلَانٍ يَعْبَثُ بِهِ، وَمَعْنَاهُ: وَإِذَا أَنْهَوْا السُّخْرِيَةَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ وَحَدَّثُوهُمْ بِهَا، كَمَا تَقُولُ: أَحْمَدُ إِلَيْكَ فُلَانًا، وَأَذُمُّهُ إِلَيْكَ، وَشَيَاطِينُهُمْ: الَّذِينَ مَاثَلُوا الشَّيَاطِينَ فِي تَمَرُّدِهِمْ، وَقَدْ جَعَلَ سِيبَوَيْهِ نُونَ الشَّيْطَانِ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ أَصْلِيَّةً، وَفِي آخَرَ زَائِدَةً، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَصَالَتِهَا قَوْلُهُمْ: تَشَيْطَنَ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ "شَطَنَ" إِذَا بَعُدَ، لِبُعْدِهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ، وَمِنْ "شَاطَ" إِذَا بَطَلَ إِذَا جُعِلَتْ نُونُهُ زَائِدَةً، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْبَاطِلُ.

﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾[1]: إِنَّا مُصَاحِبُوكُمْ وَمُوَافِقُوكُمْ عَلَى دِينِكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَانَتْ مُخَاطَبَتُهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَشَيَاطِينِهِمْ بِالِاسْمِيَّةِ مُحَقَّقَةً بِـ(أَنَّ)؟

قُلْتُ: لَيْسَ مَا خَاطَبُوا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ جَدِيرًا بِأَقْوَى الْكَلَامَيْنِ وَأَوْكَدِهِمَا، لِأَنَّهُمْ فِي ادِّعَاءِ حُدُوثِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ وَنَشْئِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ، لَا فِي ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ أَوْحَدِيُّونَ فِي الْإِيمَانِ غَيْرُ مَشْقُوقٍ فِيهِ غُبَارُهُمْ، وَذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ أَنْفُسَهُمْ لَا تُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ، إِذْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ عَقَائِدِهِمْ بَاعِثٌ وَمُحَرِّكٌ، وَهَكَذَا كُلُّ قَوْلٍ لَمْ يَصْدُرْ عَنْ أَرِيحِيَّةٍ وَصِدْقِ رَغْبَةٍ وَاعْتِقَادٍ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَا يُرَوِّجُ عَنْهُمْ لَوْ قَالُوهُ عَلَى لَفْظِ التَّوْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ، وَكَيْفَ يَقُولُونَهُ وَيَطْمَعُونَ فِي رَوَاجِهِ وَهُمْ بَيْنَ ظَهَرَانَيِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ.

أَلَا تَرَى إِلَى حِكَايَةِ اللَّهِ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾[2]؟

وَأَمَّا مُخَاطَبَةُ إِخْوَانِهِمْ، فَهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَالْقَرَارِ عَلَى اعْتِقَادِ الْكُفْرِ، وَالْبُعْدِ مِنْ أَنْ يَزِلُّوا عَنْهُ عَلَى صِدْقِ رَغْبَةٍ، وَوُفُورِ نَشَاطٍ، وَارْتِيَاحٍ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 16.

لِلتَّكَلُّمِ بِهِ، وَمَا قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ رَائِجٌ عَنْهُمْ مُتَقَبَّلٌ مِنْهُمْ، فَكَانَ مَظِنَّةً لِلتَّحْقِيقِ وَمَثِنَّةً لِلتَّوْكِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَنَّى تَعَلُّقُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[1] بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾[2]؟

قُلْتُ: هُوَ تَوْكِيدٌ لَهُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾[3]، مَعْنَاهُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَقَوْلَهُ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[4] رَدٌّ لِلْإِسْلَامِ وَدَفْعٌ لَهُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ الْمُسْتَهْزِئَ بِالشَّيْءِ الْمُسْتَخِفَّ بِهِ مُنْكِرٌ لَهُ وَدَافِعٌ لِكَوْنِهِ مُعْتَدًّا بِهِ، وَدَفْعُ نَقِيضِ الشَّيْءِ تَأْكِيدٌ لِثَبَاتِهِ أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ، لِأَنَّ مَنْ حَقَّرَ الْإِسْلَامَ فَقَدْ عَظَّمَ الْكُفْرَ، أَوِ اسْتِئْنَافٌ، كَأَنَّهُمُ اعْتَرَضُوا عَلَيْهِمْ حِينَ قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾[5]، فَقَالُوا: فَمَا بَالُكُمْ إِنْ صَحَّ أَنَّكُمْ مَعَنَا تُوَافِقُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فَقَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

وَالِاسْتِهْزَاءُ: السُّخْرِيَةُ وَالِاسْتِخْفَافُ، وَأَصْلُ الْبَابِ الْخِفَّةُ –مِنَ الْهَزْءِ وَهُوَ الْقَتْلُ السَّرِيعُ– وَهَزَأَ يَهْزَأُ: مَاتَ عَلَى الْمَكَانِ، عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: مَشَيْتُ فَلَغِبْتُ، فَظَنَنْتُ لَأَهْزَأَنَّ عَلَى مَكَانِي، وَنَاقَتُهُ تَهْزَأُ بِهِ: أَيْ تُسْرِعُ وَتَخِفُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَا يَجُوزُ الِاسْتِهْزَاءُ عَلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، لِأَنَّهُ مُتَعَالٍ عَنِ الْقَبِيحِ، وَالسُّخْرِيَةُ مِنْ بَابِ الْعَيْبِ وَالْجَهْلِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[6]؟ فَمَا مَعْنَى اسْتِهْزَائِهِ بِهِمْ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ إِنْزَالُ الْهَوَانِ وَالْحَقَارَةِ بِهِمْ، لِأَنَّ الْمُسْتَهْزِئَ غَرَضُهُ الَّذِي يَرْمِيهِ هُوَ طَلَبُ الْخِفَّةِ وَالزِّرَايَةِ مِمَّنْ يَهْزَأُ بِهِ، وَإِدْخَالُ الْهَوَانِ وَالْحَقَارَةِ عَلَيْهِ، وَالِاشْتِقَاقُ –كَمَا ذَكَرْنَا– شَاهِدٌ لِذَلِكَ، وَقَدْ كَثُرَ التَّهَكُّمُ فِي كَلَامِ اللَّهِ –تَعَالَى– بِالْكَفَرَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ تَحْقِيرُ شَأْنِهِمْ وَازْدِرَاءِ أَمْرِهِمْ، وَالدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مَذَاهِبَهُمْ حَقِيقَةٌ بِأَنْ يَسْخَرَ مِنْهَا السَّاخِرُونَ وَيَضْحَكَ الضَّاحِكُونَ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية 67.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ مَا مَرَّ فِي: ﴿يُخَادِعُونَ﴾[1] مِنْ أَنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي الظَّاهِرِ، وَهُوَ مُبَطَّنٌ بِادِّخَارِ مَا يُرَادُ بِهِمْ.

وَقِيلَ: سُمِّيَ جَزَاءُ الِاسْتِهْزَاءِ بِاسْمِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2]، ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ابْتُدِئَ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[4]، وَلَمْ يُعْطَفْ عَلَى الْكَلَامِ قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: هُوَ اسْتِئْنَافٌ فِي غَايَةِ الْجَزَالَةِ وَالْفَخَامَةِ، وَفِيهِ أَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- هُوَ الَّذِي يَسْتَهْزِئُ بِهِمُ الِاسْتِهْزَاءَ الْأَبْلَغَ، الَّذِي لَيْسَ اسْتِهْزَاؤُهُمْ إِلَيْهِ بِاسْتِهْزَاءٍ وَلَا يُؤْبَهُ لَهُ فِي مُقَابَلَتِهِ، لِمَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ النَّكَالِ وَيَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْهَوَانِ وَالذُّلِّ، وَفِيهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى الِاسْتِهْزَاءَ بِهِمْ، انْتِقَامًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يُحْوِجُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعَارِضُوهُمْ بِاسْتِهْزَاءٍ مِثْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: اللَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ لِيَكُونَ طِبْقًا لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[5]؟

قُلْتُ: لِأَنَّ: ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾[6] يُفِيدُ حُدُوثَ الِاسْتِهْزَاءِ وَتَجَدُّدَهُ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ، وَهَكَذَا كَانَتْ نِكَايَاتُ اللَّهِ فِيهِمْ وَبَلَايَاهُ النَّازِلَةُ بِهِمْ ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[7]، وَمَا كَانُوا يَخْلُونَ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِمْ مِنْ تَهَتُّكِ أَسْتَارٍ وَتَكَشُّفِ أَسْرَارٍ، وَنُزُولٍ فِي شَأْنِهِمْ وَاسْتِشْعَارِ حَذَرٍ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِمْ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾[8].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾[9] مِنْ مَدَّ الْجَيْشَ وَأَمَدَّهُ إِذَا زَادَهُ وَأَلْحَقَ بِهِ مَا يُقَوِّيهِ وَيُكَثِّرُهُ، وَكَذَلِكَ مَدَّ الدَّاوَةَ وَأَمَدَّهَا: زَادَهَا مَا يُصْلِحُهَا، وَمَدَّدْتُ السَّرْجَ وَالْأَرْضَ: إِذَا اسْتَصْلَحْتَهُمَا بِالزَّيْتِ وَالسَّمَادِ، وَمَدَّهُ الشَّيْطَانُ فِي الْغَيِّ وَأَمَدَّهُ: إِذَا وَاصَلَهُ بِالْوَسَاوِسِ حَتَّى يَتَلَاحَقَ غَيُّهُ وَيَزْدَادَ انْهِمَاكًا فِيهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الشُّورَى، الآية 40.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 194.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة التَّوْبَة، الآية 126.

[8] سورة التَّوْبَة، الآية 64.

[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ زَعَمْتَ أَنَّهُ مِنَ الْمَدَدِ دُونَ الْمَدِّ فِي الْعُمْرِ وَالْإِمْلَاءِ وَالْإِمْهَالِ؟

قُلْتُ: كَفَاكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمَدَدِ دُونَ الْمَدِّ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ مُحَيْصِنٍ: (وَيُمِدُّهُمْ)، وَقِرَاءَةُ نَافِعٍ: (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ)[1] عَلَى أَنَّ الَّذِي بِمَعْنَى: أَمْهَلَهُ إِنَّمَا هُوَ مَدَّ لَهُ مَعَ اللَّامِ كَأَمْلَى لَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ جَازَ أَنْ يُوَلِّيَهُمُ اللَّهُ مَدَدًا فِي الطُّغْيَانِ وَهُوَ فِعْلُ الشَّيَاطِينِ؟

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾[2]؟

قُلْتُ: إِمَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمَّا مَنَعَهُمُ اللَّهُ أَلْطَافَهُ الَّتِي يَمْنَحُهَا الْمُؤْمِنِينَ، وَخَذَلَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، بَقِيَتْ قُلُوبُهُمْ بِتَزَايُدِ الرَّيْنِ وَالظُّلْمَةِ فِيهَا تَزَايُدَ الِانْشِرَاحِ وَالنُّورِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ التَّزَايُدُ مَدَدًا، وَأُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ –سُبْحَانَهُ–، لِأَنَّهُ مُسَبَّبٌ عَنْ فِعْلِهِ بِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَإِمَّا عَلَى مَنْعِ الْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ، وَإِمَّا عَلَى أَنْ يُسْنَدَ فِعْلُ الشَّيْطَانِ إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ بِتَمْكِينِهِ وَإِقْدَارِهِ وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِغْوَاءِ عِبَادِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى تَفْسِيرِ الْمَدِّ فِي الطُّغْيَانِ بِالْإِمْهَالِ وَمَوْضُوعُ اللُّغَةِ –كَمَا ذَكَرْتَ– لَا يُطَاوِعُ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: اسْتَجَرَّهُمْ إِلَى ذَلِكَ خَوْفُ الْإِقْدَامِ عَلَى أَنْ يُسْنِدُوا إِلَى اللَّهِ مَا أَسْنَدُوا إِلَى الشَّيَاطِينِ، لَكِنَّ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ مَا طَابَقَهُ اللَّفْظُ وَشَهِدَ لِصِحَّتِهِ، وَإِلَّا كَانَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْوَى مِنَ النَّعَامِ، وَمِنْ حَقِّ مُفَسِّرِ كِتَابِ اللَّهِ الْبَاهِرِ وَكَلَامِهِ الْمُعْجِزِ أَنْ يَتَعَاهَدَ فِي مَذَاهِبِهِ بَقَاءَ النَّظْمِ عَلَى حُسْنِهِ، وَالْبَلَاغَةَ عَلَى كَمَالِهَا وَمَا وَقَعَ بِهِ التَّحَدِّي سَلِيمًا مِنَ الْقَادِحِ، فَإِذَا لَمْ يَتَعَاهَدْ أَوْضَاعَ اللُّغَةِ فَهُوَ مِنْ تَعَاهُدِ النَّظْمِ وَالْبَلَاغَةِ عَلَى مَرَاحِلَ، وَيُعَضِّدُ مَا قُلْنَاهُ قَوْلُ الْحَسَنِ فِي تَفْسِيرِهِ: فِي ضَلَالَتِهِمْ يَتَمَادَوْنَ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الطَّبْعِ، وَالطُّغْيَانُ: الْغُلُوُّ فِي الْكُفْرِ، وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْعُتُوِّ.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (فِي طِغْيَانِهِمْ) بِالْكَسْرِ وَهُمَا لُغَتَانِ، كَـ"لُقْيَانٍ، وَلِقْيَانٍ، وَغُنْيَانٍ، وَغِنْيَانٍ".

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ نُكْتَةٍ فِي إِضَافَتِهِ إِلَيْهِمْ؟

قُلْتُ: فِيهَا أَنَّ الطُّغْيَانَ وَالتَّمَادِيَ فِي الضَّلَالَةِ مِمَّا اقْتَرَفَتْهُ أَنْفُسُهُمْ وَاجْتَرَحَتْهُ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ بَرِئَ مِنْهُمْ رَدًّا لِاعْتِقَادِ الْكَفَرَةِ الْقَائِلِينَ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا، وَنَفْيًا لِوَهْمِ مَنْ

---

[1] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 202.

[2] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 202.

عَسَى يَتَوَهَّمُ عِنْدَ إِسْنَادِ الْمَدِّ إِلَى ذَاتِهِ لَوْ لَمْ يُضَفِ الطُّغْيَانُ إِلَيْهِمْ، لِيُمِيطَ الشُّبَهَ وَيَقْلَعَهَا، وَيَدْفَعَ فِي صَدْرِ مَنْ يُلْحِدُ فِي صِفَاتِهِ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ أَسْنَدَ الْمَدَّ إِلَى الشَّيَاطِينِ أَطْلَقَ الْغَيَّ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ بِالْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾[1].

وَالْعَمَهُ: مِثْلُ الْعَمَى، إِلَّا أَنَّ الْعَمَى عَامٌّ فِي الْبَصَرِ وَالرَّأْيِ، وَالْعَمَهَ فِي الرَّأْيِ خَاصَّةً، وَهُوَ التَّحَيُّرُ وَالتَّرَدُّدُ، لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿بِالْجَاهِلِينَ الْعُمَّهِ﴾[2]، أَيِ الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا دِرَايَةَ بِالطُّرُقِ، وَسَلَكَ أَرْضًا عَمْهَاءَ: لَا مَنَارَ بِهَا.

وَمَعْنَى اشْتِرَاءِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى: اخْتِيَارُهَا عَلَيْهِ وَاسْتِبْدَالُهَا بِهِ، عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ، لِأَنَّ الِاشْتِرَاءَ فِيهِ إِعْطَاءُ بَدَلٍ وَأَخْذُ آخَرَ، وَمِنْهُ:

أَخَذْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْسًا أَزَعَرَا ... وَبِالثَّنَايَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرْدَرَا

وَبِالطَّوِيلِ الْعُمْرِ عُمْرًا حَيْدَرَا ... كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا

وَعَنْ وَهْبٍ: قَالَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– فِيمَا يَعِيبُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: "تَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتَعْلَمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَتَبْتَاعُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ".

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَمَا كَانُوا عَلَى هُدًى؟ قُلْتُ: جُعِلُوا لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْهُ وَإِعْرَاضِهِ لَهُمْ كَأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا تَرَكُوهُ إِلَى الضَّلَالَةِ فَقَدْ عَطَّلُوهُ وَاسْتَبْدَلُوهَا بِهِ، وَلِأَنَّ الدِّينَ الْقَيِّمَ هُوَ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، فَكُلُّ مَنْ ضَلَّ فَهُوَ مُسْتَبْدِلٌ خِلَافَ الْفِطْرَةِ.

وَ"الضَّلَالَةُ": الْجَوْرُ عَنِ الْقَصْدِ وَفَقْدُ الِاهْتِدَاءِ، يُقَالُ: ضَلَّ مَنْزِلَهُ، وَضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ، فَاسْتُعِيرَ لِلذَّهَابِ عَنِ الصَّوَابِ فِي الدِّينِ.

وَالرِّبْحُ: الْفَضْلُ عَلَى رَأْسِ الْمَالِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الشَّفَّ، مِنْ قَوْلِكَ: أَشَفَّ بَعْضَ وَلَدِهِ عَلَى بَعْضٍ إِذَا فَضَّلَهُ، وَلِهَذَا عَلَى هَذَا شَفٌّ، وَالتِّجَارَةُ: صِنَاعَةُ التَّاجِرِ، وَهُوَ الَّذِي يَبِيعُ وَيَشْتَرِي لِلرِّبْحِ، وَنَاقَةٌ تَاجِرَةٌ: كَأَنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا وَسِمَنِهَا تَبِيعُ نَفْسَهَا، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: (تِجَارَاتُهُمْ).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أُسْنِدَ الْخُسْرَانُ إِلَى التِّجَارَةِ وَهُوَ لِأَصْحَابِهَا؟

قُلْتُ: هُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَهُوَ أَنْ يُسْنَدَ الْفِعْلُ إِلَى شَيْءٍ يَتَلَبَّسُ بِالَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ، كَمَا تَلَبَّسَتِ التِّجَارَةُ بِالْمُشْتَرِينَ.

---

[1] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 202.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَصِحُّ: رَبِحَ عَبْدُكَ وَخَسِرَتْ جَارِيَتُكَ، عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، إِذَا دَلَّتِ الْحَالُ، وَكَذَلِكَ الشَّرْطُ فِي صِحَّةِ: رَأَيْتُ أَسَدًا، وَأَنْتَ تُرِيدُ الْمِقْدَامَ، إِنْ لَمْ تَقُمْ حَالٌ دَالَّةٌ لَمْ يَصِحَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَبْ أَنَّ شِرَاءَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَقَعَ مَجَازًا فِي مَعْنَى الِاسْتِبْدَالِ، فَمَا مَعْنَى ذِكْرِ الرِّبْحِ وَالتِّجَارَةِ كَأَنَّ ثَمَّ مُبَايَعَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ؟

قُلْتُ: هَذَا مِنَ الصَّنْعَةِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي تَبْلُغُ بِالْمَجَازِ الذُّرْوَةَ الْعُلْيَا، وَهُوَ أَنْ تُسَاقَ كَلِمَةٌ مَسَاقَ الْمَجَازِ، ثُمَّ تُقَفَّى بِأَشْكَالٍ لَهَا وَأَخَوَاتٍ، إِذَا تَلَاحَقْنَ لَمْ تَرَ كَلَامًا أَحْسَنَ مِنْهُ دِيبَاجَةً وَأَكْثَرَ مَاءً وَرَوْنَقًا، وَهُوَ الْمَجَازُ الْمُرَشَّحُ، وَذَلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الْعَرَبِ فِي الْبَلِيدِ: كَأَنَّ أُذُنَيْ قَلْبِهِ خَطَلًا، وَإِنْ جَعَلُوهُ كَالْحِمَارِ، ثُمَّ رَشَّحُوا ذَلِكَ رَوْمًا لِتَحْقِيقِ الْبَلَادَةِ، فَادَّعَوْا لِقَلْبِهِ أُذُنَيْنِ، وَادَّعَوْا لَهُمَا الْخَطَلَ؛ لِيُمَثِّلُوا الْبَلَادَةَ تَمْثِيلًا يُلْحِقُهَا بِبَلَادَةِ الْحِمَارِ مُشَاهَدَةً مُعَايَنَةً، وَنَحْوُهُ:

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنَ دَأْيَةٍ وَعَشَّشَ فِي وَكْرَيْهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي

لَمَّا شَبَّهَ الشَّيْبَ بِالنَّسْرِ، وَالشَّعَرَ الْفَاحِمَ بِالْغُرَابِ أَتْبَعَهُ ذِكْرَ التَّعْشِيشِ وَالْوَكْرِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُ بَعْضِ فُتَّاكِهِمْ فِي أُمِّهِ:

فَمَا أُمُّ الرُّدَيْنِ وَإِنْ أَدَلَّـــــتْ بِعَالِمَةٍ بِأَخْلَاقِ الْكِـــــــــــرَامِ

إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِي قَفَاهَـــا تَنَفَّقْنَاهُ بِالْحُبُلِ التُّـــــــــــوَامِ

أَيْ إِذَا دَخَلَ الشَّيْطَانُ فِي قَفَاهَا اسْتَخْرَجْنَاهُ مِنْ نَافِقَائِهِ بِالْحَبْلِ الْمَثْنِيِّ الْمُحْكَمِ، يُرِيدُ: إِذَا حَرَدَتْ وَأَسَاءَتِ الْخُلُقَ اجْتَهَدْنَا فِي إِزَالَةِ غَضَبِهَا وَإِمَاطَةِ مَا يَسُوءُ مِنْ خُلُقِهَا، اسْتَعَارَ التَّقْصِيعَ أَوَّلًا، ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهِ التَّنَفُّقَ، ثُمَّ الْحُبُلَ التُّوَامَ؛ فَكَذَلِكَ لَمَّا ذَكَرَ –سُبْحَانَهُ– الشِّرَاءَ أَتْبَعَهُ مَا يُشَاكِلُهُ وَيُوَاخِيهِ وَمَا يَكْمُلُ وَيَتِمُّ بِانْضِمَامِهِ إِلَيْهِ، تَمْثِيلًا لِخَسَارِهِمْ وَتَصْوِيرًا لِحَقِيقَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي يَطْلُبُهُ التُّجَّارُ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِمْ شَيْئَانِ: سَلَامَةُ رَأْسِ الْمَالِ، وَالرِّبْحُ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ أَضَاعُوا الطِّلْبَتَيْنِ مَعًا، لِأَنَّ رَأْسَ مَالِهِمْ كَانَ هُوَ الْهُدَى، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَعَ الضَّلَالَةِ، وَحِينَ لَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَّا الضَّلَالَةُ لَمْ يُوصَفُوا بِإِصَابَةِ الرِّبْحِ، وَإِنْ ظَفِرُوا بِمَا ظَفِرُوا بِهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، لِأَنَّ الضَّالَّ خَاسِرٌ دَامِرٌ، وَلِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

رَأْسُ مَالِهِ: قَدْ رَبِحَ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ لِطُرُقِ التِّجَارَةِ كَمَا يَكُونُ التُّجَّارُ الْمُتَصَرِّفُونَ الْعَالِمُونَ بِمَا يَرْبَحُ فِيهِمْ وَيَخْسَرُ.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[1]

لَمَّا جَاءَ بِحَقِيقَةِ صِفَتِهِمْ عَقَّبَهَا بِضَرْبِ الْمَثَلِ زِيَادَةً فِي الْكَشْفِ وَتَتْمِيمًا لِلْبَيَانِ، وَلِضَرْبِ الْعَرَبِ الْأَمْثَالَ وَاسْتِحْضَارِ الْعُلَمَاءِ الْمِثْلَ وَالنَّظَائِرَ شَأْنٌ لَيْسَ بِالْخَفِيِّ فِي إِبْرَازِ خَبِيَّاتِ الْمَعَانِي، وَرَفْعِ الْأَسْتَارِ عَنِ الْحَقَائِقِ، حَتَّى تُرِيَكَ الْمُتَخَيَّلَ فِي صُورَةِ الْمُحَقَّقِ، وَالْمُتَوَهَّمَ فِي مَعْرِضِ الْمُتَيَقَّنِ، وَالْغَائِبَ كَأَنَّهُ مُشَاهَدٌ، وَفِيهِ تَبْكِيتٌ لِلْخَصْمِ الْأَلَدِّ، وَقَمْعٌ لِسَوْرَةِ الْجَامِحِ الْأَبِيِّ، وَلِأَمْرٍ مَا أَكْثَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ وَفِي سَائِرِ كُتُبِهِ أَمْثَالَهُ، وَفَشَتْ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى–: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاّ الْعَالِمُونَ﴾[2]، وَمِنْ سُورِ الْإِنْجِيلِ سُورَةُ الْأَمْثَالِ.

وَالْمَثَلُ فِي أَصْلِ كَلَامِهِمْ: بِمَعْنَى الْمِثْلِ، وَهُوَ النَّظِيرُ، يُقَالُ: مَثَلٌ، وَمِثْلٌ، وَمَثِيلٌ، كَشَبَهٍ، وَشِبْهٍ، وَشَبِيهٍ، ثُمَّ قِيلَ لِلْقَوْلِ السَّائِرِ الْمُمَثَّلِ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ: مَثَلٌ، وَلَمْ يَضْرِبُوا مَثَلًا، وَلَا رَأَوْهُ أَهْلًا لِلتَّسْيِيرِ، وَلَا جَدِيرًا بِالتَّدَاوُلِ وَالْقَبُولِ إِلَّا قَوْلًا فِيهِ غَرَابَةٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَمِنْ ثَمَّ حُوفِظَ عَلَيْهِ وَحُمِيَ مِنَ التَّغْيِيرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[3] ؟ وَمَا مَثَلُ الْمُنَافِقِينَ وَمَثَلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، حَتَّى شُبِّهَ أَحَدُ الْمَثَلَيْنِ بِصَاحِبِهِ؟

قُلْتُ: قَدِ اسْتُعِيرَ الْمَثَلُ اسْتِعَارَةَ الْأَسَدِ لِلْمِقْدَامِ، لِلْحَالِ أَوِ الصِّفَةِ أَوِ الْقِصَّةِ، إِذَا كَانَ لَهَا شَأْنٌ وَفِيهَا غَرَابَةٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: حَالُهُمُ الْعَجِيبَةُ الشَّأْنِ كَحَالِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 43.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[1]، أَيْ: وَفِيمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنَ الْعَجَائِبِ قِصَّةُ الْجَنَّةِ الْعَجِيبَةِ، ثُمَّ أَخَذَ فِي بَيَانِ عَجَائِبِهَا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾[2]، أَيْ: صِفَتُهُمْ وَشَأْنُهُمُ الْمُتَعَجَّبُ مِنْهُ، وَلِمَا فِي الْمَثَلِ مِنْ مَعْنَى الْغَرَابَةِ قَالُوا: فُلَانٌ مُثْلَةٌ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَاشْتَقُّوا مِنْهُ صِفَةً لِلْعَجِيبِ الشَّأْنِ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ مُثِّلَتِ الْجَمَاعَةُ بِالْوَاحِدِ؟

قُلْتُ: وُضِعَ الَّذِي مَوْضِعَ الَّذِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾[3]، وَالَّذِي سَوَّغَ وَضْعَ الَّذِي مَوْضِعَ الَّذِينَ، وَلَمْ يُجِزْ وَضْعَ الْقَائِمِ مَوْضِعَ الْقَائِمِينَ وَلَا نَحْوِهِ مِنَ الصِّفَاتِ أَمْرَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ "الَّذِي" لِكَوْنِهِ وَصْلَةً إِلَى وَصْفِ كُلِّ مَعْرِفَةٍ بِجُمْلَةٍ، وَتَكَاثَرَ وُقُوعُهُ فِي كَلَامِهِمْ، وَلِكَوْنِهِ مُسْتَطَالًا بِصِلَتِهِ، حَقِيقٌ بِالتَّخْفِيفِ، وَلِذَلِكَ نَهَكُوهُ بِالْحَذْفِ فَحَذَفُوا يَاءَهُ ثُمَّ كَسْرَتَهُ ثُمَّ اقْتَصَرُوا بِهِ عَلَى اللَّامِ وَحْدَهَا فِي أَسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ وَالْمَفْعُولِينَ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ جَمْعَهُ لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ جَمْعِ غَيْرِهِ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ، وَإِنَّمَا ذَاكَ عَلَامَةٌ لِزِيَادَةِ الدَّلَالَةِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ سَائِرَ الْمَوْصُولَاتِ لَفْظُ الْجَمْعِ وَالْوَاحِدِ فِيهِنَّ وَاحِدٌ، أَوْ قُصِدَ جِنْسُ الْمُسْتَوْقَدِينَ، أَوْ أُرِيدَ الْجَمْعُ أَوِ الْفَوْجُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَذَوَاتَهُمْ لَمْ يُشَبَّهُوا بِذَاتِ الْمُسْتَوْقِدِ حَتَّى يَلْزَمَ مِنْهُ تَشْبِيهُ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ، إِنَّمَا شُبِّهَتْ قِصَّتُهُمْ بِقِصَّةِ الْمُسْتَوْقِدِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[4]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[5].

وَوُقُودُ النَّارِ: سُطُوعُهَا وَارْتِفَاعُ لَهَبِهَا، وَمِنْ أَخَوَاتِهِ: وَقَلَ فِي الْجَبَلِ إِذَا صَعِدَ وَعَلَا، وَالنَّارُ: جَوْهَرٌ لَطِيفٌ مُضِيءٌ حَارٌّ مُحْرِقٌ، وَالنُّورُ: ضَوْءُهَا وَضَوْءُ كُلِّ نَيِّرٍ، وَهُوَ نَقِيضُ الظُّلْمَةِ، وَاشْتِقَاقُهَا مِنْ نَارَ يَنُورُ إِذَا نَفَرَ، لِأَنَّ فِيهَا حَرَكَةً وَاضْطِرَابًا، وَالنُّورُ مُشْتَقٌّ مِنْهَا، وَالْإِضَاءَةُ: فَرْطُ الْإِنَارَةِ.

---

[1] سورة مُحَمَّدٍ، الآية 15.

[2] سورة النَّحْلِ، الآية 29.

[3] سورة التَّوْبَةِ، الآية 69.

[4] سورة الْجُمُعَةِ، الآية 5.

[5] سورة مُحَمَّدٍ، الآية 20.

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[1]، وَهِيَ فِي الْآيَةِ مُتَعَدِّيَةٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مُتَعَدِّيَةٍ مُسْنَدَةً إِلَى مَا حَوْلَهُ، وَالتَّأْنِيثُ لِلْحَمْلِ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَا حَوْلَ الْمُسْتَوْقِدِ أَمَاكِنُ وَأَشْيَاءُ؛ وَيُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ أَبِي عَبْلَةَ: (ضَاءَتْ).

وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَتِرَ فِي الْفِعْلِ ضَمِيرُ النَّارِ، وَيُجْعَلَ إِشْرَاقُ ضَوْءِ النَّارِ حَوْلَهُ بِمَنْزِلَةِ إِشْرَاقِ النَّارِ نَفْسِهَا، عَلَى أَنَّ "مَا" مَزِيدَةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ فِي مَعْنَى الْأَمْكِنَةِ، وَحَوْلَهُ: نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِ، وَتَأْلِيفُهُ لِلدَّوَرَانِ وَالْإِطَافَةِ، وَقِيلَ لِلْعَامِ حَوْلٌ، لِأَنَّهُ يَدُورُ ..

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ جَوَابُ "لَمَّا"؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنَّ جَوَابَهُ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[2].

– وَالثَّانِي: أَنَّهُ مَحْذُوفٌ كَمَا حُذِفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾[3].

وَإِنَّمَا جَازَ حَذْفُهُ لِاسْتِطَالَةِ الْكَلَامِ مَعَ أَمْنِ الْإِلْبَاسِ لِلدَّالِّ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْحَذْفُ أَوْلَى مِنَ الْإِثْبَاتِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَجَازَةِ، مَعَ الْإِعْرَابِ عَنِ الصِّفَةِ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا الْمُسْتَوْقِدُ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنَ اللَّفْظِ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ خَمَدَتْ، فَبَقُوا خَابِطِينَ فِي ظَلَامٍ، مُتَحَيِّرِينَ مُتَحَسِّرِينَ عَلَى فَوْتِ الضَّوْءِ، خَائِبِينَ بَعْدَ الْكَدْحِ فِي إِحْيَاءِ النَّارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا قُدِّرَ الْجَوَابُ مَحْذُوفًا فَبِمَ يَتَعَلَّقُ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: يَكُونُ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا، كَأَنَّهُمْ لَمَّا شُبِّهَتْ حَالُهُمْ بِحَالِ الْمُسْتَوْقِدِ الَّذِي طُفِئَتْ نَارُهُ اعْتَرَضَ سَائِلٌ فَقَالَ: مَا بَالُهُمْ قَدْ أُشْبِهَتْ حَالُهُمْ حَالَ هَذَا الْمُسْتَوْقِدِ؟ فَقِيلَ لَهُ: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، أَوْ يَكُونُ بَدَلًا مِنْ جُمْلَةِ التَّمْثِيلِ عَلَى سَبِيلِ الْبَيَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ رَجَعَ الضَّمِيرُ فِي هَذَا الْوَجْهِ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فَمَا مَرْجِعُهُ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي؟

قُلْتُ: مَرْجِعُهُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ.

وَأَمَّا جَمْعُ هَذَا الضَّمِيرِ وَتَوْحِيدُهُ فِي "حَوْلَهُ"، فَلِلْحَمْلِ عَلَى اللَّفْظِ تَارَةً، وَعَلَى الْمَعْنَى أُخْرَى.

---

[1] سورة يُونُسَ، الآية 5.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة يُوسُفَ، الآية 15.

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾[1]؟

قُلْتُ: إِذَا طُفِئَتِ النَّارُ بِسَبَبٍ سَمَاوِيٍّ رِيحٍ أَوْ مَطَرٍ فَقَدْ أَطْفَأَهَا اللَّهُ –تَعَالَى– وَذَهَبَ بِنُورِ الْمُسْتَوْقِدِ، وَوَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَوْقِدُ فِي هَذَا الْوَجْهِ مُسْتَوْقِدَ نَارٍ لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَارًا مَجَازِيَّةً كَنَارِ الْفِتْنَةِ وَالْعَدَاوَةِ لِلْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ النَّارُ مُتَقَاصِرَةٌ مُدَّةُ اشْتِعَالِهَا قَلِيلَةُ الْبَقَاءِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[2]؟!

وَإِمَّا نَارًا حَقِيقِيَّةً أَوْقَدَهَا الْغُوَاةُ لِيَتَوَصَّلُوا بِالِاسْتِضَاءَةِ بِهَا إِلَى بَعْضِ الْمَعَاصِي، وَيَهْتَدُوا بِهَا فِي طُرُقِ الْعَبَثِ، فَأَطْفَأَهَا اللَّهُ وَخَيَّبَ أَمَانِيَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ فِي النَّارِ الْمَجَازِيَّةِ أَنْ تُوصَفَ بِإِضَاءَةِ مَا حَوْلَ الْمُسْتَوْقِدِ؟

قُلْتُ: هُوَ خَارِجٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْمُرَشَّحِ، فَأَحْسِنْ تَدَبُّرَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: ذَهَبَ اللَّهُ بِضَوْئِهِمْ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾[3]؟

قُلْتُ: ذِكْرُ النُّورِ أَبْلَغُ، لِأَنَّ الضَّوْءَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الزِّيَادَةِ.

فَلَوْ قِيلَ: ذَهَبَ اللَّهُ بِضَوْئِهِمْ لَأَوْهَمَ الذَّهَابَ بِالزِّيَادَةِ وَبَقَاءَ مَا يُسَمَّى نُورًا، وَالْغَرَضُ إِزَالَةُ النُّورِ عَنْهُمْ رَأْسًا وَطَمْسُهُ أَصْلًا.

أَلَا تَرَى كَيْفَ ذُكِرَ عَقِيبَهُ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾[4]؟

وَالظُّلْمَةُ: عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ النُّورِ وَانْطِمَاسِهِ، وَكَيْفَ جَمَعَهَا، وَكَيْفَ نَكَّرَهَا، وَكَيْفَ أَتْبَعَهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا ظُلْمَةٌ مُبْهَمَةٌ لَا يَتَرَاءَى فِيهَا شَبَحَانِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾[5].

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ وُصِفَتْ بِالْإِضَاءَةِ؟

قُلْتُ: هَذَا عَلَى مَذْهَبِ قَوْلِهِمْ: لِلْبَاطِلِ صَوْلَةٌ ثُمَّ يَضْمَحِلُّ، وَلِرِيحِ الضَّلَالَةِ عَصْفَةٌ ثُمَّ تَخْفُتُ، وَنَارُ الْعَرْفَجِ مَثَلٌ لِنَزْوَةِ كُلِّ طَمَّاحٍ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ أَذْهَبَهُ وَذَهَبَ بِهِ أَنَّ مَعْنَى أَذْهَبَهُ أَزَالَهُ وَجَعَلَهُ ذَاهِبًا، وَيُقَالُ: ذَهَبَ بِهِ إِذَا اسْتَصْحَبَهُ وَمَضَى بِهِ مَعَهُ، وَذَهَبَ السُّلْطَانُ بِمَالِهِ: أَخَذَهُ،

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْمَائِدَة، الآية 64.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾[1] ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾[2]، وَمِنْهُ: ذَهَبَ بِهِ الْخُيَلَاءُ؛ وَالْمَعْنَى: أَخَذَ اللَّهُ نُورَهُمْ وَأَمْسَكَهُ، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾[3]، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْإِذْهَابِ.

وَقَرَأَ الْيَمَانِيُّ: (أَذْهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ)، وَتَرَكَ: بِمَعْنَى طَرَحَ وَخَلَّى، إِذَا عُلِّقَ بِوَاحِدٍ، كَقَوْلِهِمْ: تَرَكَهُ تَرْكَ ظَبْيٍ ظَلَّهُ، فَإِذَا عُلِّقَ بِشَيْئَيْنِ كَانَ مُضَمَّنًا مَعْنَى صَيَّرَ، فَيُجْرَى مَجْرَى أَفْعَالِ الْقُلُوبِ، كَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

فَتَرَكْتُهُ جَزْرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَـــــــــهُ

وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾[4] أَصْلُهُ: هُمْ فِي ظُلُمَاتٍ، ثُمَّ دَخَلَ (تَرَكَ) فَنَصَبَ الْجَزَأَيْنِ، وَالظُّلْمَةُ عَدَمُ النُّورِ، وَقِيلَ: عَرَضٌ يُنَافِي النُّورَ، وَاشْتِقَاقُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ: مَا ظَلَمَكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا، أَيْ: مَا مَنَعَكَ وَشَغَلَكَ، لِأَنَّهَا تَسُدُّ الْبَصَرَ وَتَمْنَعُ الرُّؤْيَةَ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (ظُلْمَاتٍ) بِسُكُونِ اللَّامِ، وَقَرَأَ الْيَمَانِيُّ: (فِي ظُلْمَةٍ) عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْمَفْعُولُ السَّاقِطُ مِنْ ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾[5] مِنْ قَبِيلِ الْمَتْرُوكِ الْمُطْرَحِ الَّذِي لَا يُلْتَفَتُ إِلَى إِخْطَارِهِ بِالْبَالِ، لَا مِنْ قَبِيلِ الْمُقَدَّرِ الْمَنْوِيِّ، كَأَنَّ الْفِعْلَ غَيْرُ مُتَعَدٍّ أَصْلًا، نَحْوُ: ﴿يَعْمَهُونَ﴾[6] فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[7].

فَإِنْ قُلْتَ: فِيمَ شُبِّهَتْ حَالُهُمْ بِحَالِ الْمُسْتَوْقِدِ؟

قُلْتُ: فِي أَنَّهُمْ غِبَّ الْإِضَاءَةِ خَبَطُوا فِي ظُلْمَةٍ وَتَوَرَّطُوا فِي حَيْرَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَأَيْنَ الْإِضَاءَةُ فِي حَالِ الْمُنَافِقِ؟ وَهَلْ هُوَ أَبَدًا إِلَّا حَائِرٌ خَابِطٌ فِي ظَلْمَاءِ الْكُفْرِ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ مَا اسْتَضَاءُوا بِهِ قَلِيلًا مِنَ الِانْتِفَاعِ بِالْكَلِمَةِ الْمُجْرَاةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وَوَرَاءَ اسْتِضَاءَتِهِمْ بِنُورِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ظُلْمَةُ النِّفَاقِ الَّتِي تَرْمِي بِهِمْ إِلَى ظُلْمَةِ سُخْطِ اللَّهِ وَظُلْمَةِ

---

[1] سورة يُوسُفَ، الآية 15.

[2] سورة الْمُؤْمِنُونَ ، الآية 91.

[3] سورة فَاطِرٍ، الآية 2.

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[7] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 186.

الْعِقَابِ السَّرْمَدِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُشَبَّهَ بِذَهَابِ اللَّهِ بِنُورِ الْمُسْتَوْقِدِ اطِّلَاعُ اللَّهِ عَلَى أَسْرَارِهِمْ، وَمَا افْتُضِحُوا بِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاتَّسَمُوا بِهِ مِنْ سِمَةِ النِّفَاقِ.

وَالْأَوْجَهُ: أَنْ يُرَادَ الطَّبْعُ، لِقَوْلِهِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[1].

وَفِي الْآيَةِ تَفْسِيرٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا وُصِفُوا بِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، عُقِّبَ ذَلِكَ بِهَذَا التَّمْثِيلِ لِيُمَثِّلَ هُدَاهُمُ الَّذِي بَاعُوهُ بِالنَّارِ الْمُضِيئَةِ مَا حَوْلَ الْمُسْتَوْقِدِ، وَالضَّلَالَةَ الَّتِي اشْتَرَوْهَا وَطُبِعَ بِهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ بِذَهَابِ اللَّهِ بِنُورِهِمْ وَتَرْكِهِ إِيَّاهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ، وَتَنْكِيرُ النَّارِ لِلتَّعْظِيمِ، كَانَتْ حَوَاسُّهُمْ سَلِيمَةً، وَلَكِنْ لَمَّا سَدُّوا عَنِ الْإِصَاخَةِ إِلَى الْحَقِّ مَسَامِعَهُمْ، وَأَبَوْا أَنْ يَنْطِقُوا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ، وَأَنْ يَنْظُرُوا وَيَتَبَصَّرُوا بِعُيُونِهِمْ جُعِلُوا كَأَنَّمَا أَيِفَتْ مَشَاعِرُهُمْ، وَانْتَقَضَتْ بُنَاهَا الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا لِلْإِحْسَاسِ وَالْإِدْرَاكِ، كَقَوْلِهِ:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِـــهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

****

أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيـــــــــــعُ

*****

أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أُرِيـــدُهُ وَأَسْمَعُ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ أُرِيـــــدُ

******

فَأَصْمَمْتُ عَمْرًا وَأَعْمَيْتُـــــــــهُ عَنِ الْجُودِ وَالْفَخْرِ يَوْمَ الْفَخَـــارِ

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَرِيقَتُهُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ؟

قُلْتُ: طَرِيقَةُ قَوْلِهِمْ: "هُمْ لُيُوثٌ" لِلشُّجْعَانِ، وَبُحُورٌ لِلْأَسْخِيَاءِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا فِي الصِّفَاتِ، وَذَاكَ فِي الْأَسْمَاءِ، وَقَدْ جَاءَتِ الِاسْتِعَارَةُ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ جَمِيعًا، تَقُولُ: رَأَيْتُ لُيُوثًا، وَلَقِيتُ صُمًّا عَنِ الْخَيْرِ، وَدَجَا الْإِسْلَامُ، وَأَضَاءَ الْحَقُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يُسَمَّى مَا فِي الْآيَةِ اسْتِعَارَةً؟

قُلْتُ: مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَالْمُحَقِّقُونَ عَلَى تَسْمِيَتِهِ تَشْبِيهًا بَلِيغًا لَا اسْتِعَارَةً، لِأَنَّ الْمُسْتَعَارَ لَهُ مَذْكُورٌ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَالِاسْتِعَارَةُ إِنَّمَا تُطْلَقُ حَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ، وَيُجْعَلُ الْكَلَامُ خُلُوًّا عَنْهُ صَالِحًا لِأَنْ يُرَادَ بِهِ الْمَنْقُولُ عَنْهُ وَالْمَنْقُولُ إِلَيْهِ، لَوْلَا دَلَالَةُ الْحَالِ أَوْ فَحْوَى الْكَلَامِ، كَقَوْلِ زُهَيْرٍ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّـــــــــمِ

وَمِنْ ثَمَّ تَرَى الْمُفْلِقِينَ السَّحَرَةَ مِنْهُمْ كَأَنَّهُمْ يَتَنَاسَوْنَ التَّشْبِيهَ وَيَضْرِبُونَ عَنْ تَوَهُّمِهِ صَفْحًا.

قَالَ أَبُو تَمَّامٍ:

وَيَصْعَدُ حَتَّى يُظَنَّ الْجَهُـــولُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَـــــاءِ

وَبَعْضُهُمْ:

لَا تَحْسَبُوا أَنَّ فِي سِرْبَالِهِ رَجُلًا فَفِيهِ غَيْثٌ وَلَيْثٌ مُسْبِلٌ مُشْبِلُ

وَلَيْسَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: طُوِيَ ذِكْرُهُمْ عَنِ الْجُمْلَةِ بِحَذْفِ الْمُبْتَدَأِ فَأَتَسَلَّقُ بِذَلِكَ إِلَى تَسْمِيَتِهِ اسْتِعَارَةً، لِأَنَّهُ فِي حُكْمِ الْمَنْطُوقِ بِهِ، نَظِيرُهُ قَوْلُ مَنْ يُخَاطِبُ الْحَجَّاجَ:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَـةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِـرِ

وَمَعْنَى ﴿لا يَرْجِعُونَ﴾[1]: أَنَّهُمْ لَا يَعُودُونَ إِلَى الْهُدَى بَعْدَ أَنْ بَاعُوهُ، أَوْ عَنِ الضَّلَالَةِ بَعْدَ أَنِ اشْتَرَوْهَا، تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ بِالطَّبْعِ، أَوْ أَرَادَ أَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُتَحَيِّرِينَ الَّذِينَ بَقُوا جَامِدِينَ فِي مَكَانِهِمْ لَا يَبْرَحُونَ، وَلَا يَدْرُونَ أَيَتَقَدَّمُونَ أَمْ يَتَأَخَّرُونَ؟ وَكَيْفَ يَرْجِعُونَ إِلَى حَيْثُ ابْتَدَءُوا مِنْهُ؟!

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]

ثُمَّ ثَنَّى اللَّهُ –سُبْحَانَهُ– فِي شَأْنِهِمْ بِتَمْثِيلٍ آخَرَ، لِيَكُونَ كَشْفًا لِحَالِهِمْ بَعْدَ كَشْفٍ، وَإِيضَاحًا غِبَّ إِيضَاحٍ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَى الْبَلِيغِ فِي مَظَانِّ الْإِجْمَالِ وَالْإِيجَازِ أَنْ يُجَمِّلَ وَيُوجِزَ، فَكَذَلِكَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فِي مَوَارِدِ التَّفْصِيلِ وَالْإِشْبَاعِ أَنْ يُفَصِّلَ وَيُشْبِعَ.

أَنْشَدَ الْجَاحِظُ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

يُوحُونَ بِالْخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيَ الْمُلَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَـــاءِ

وَمِمَّا ثُنِّي مِنَ التَّمْثِيلِ فِي التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾[1].

وَأَلَا تَرَى إِلَى ذِي الرُّمَّةِ كَيْفَ صَنَعَ فِي قَصِيدَتِهِ؟

أَذَاكَ أَمْ نَمَشٌ بِالْوَشْيِ أَكْرَعُهُ أَذَاكَ أَمْ خَاضِبٌ بِالسَّيِّ مَرْتَعُهُ

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ شُبِّهَ الْمُنَافِقُ فِي التَّمْثِيلِ الْأَوَّلِ بِالْمُسْتَوْقِدِ نَارًا، وَإِظْهَارُهُ الْإِيمَانَ بِالْإِضَاءَةِ، وَانْقِطَاعُ انْتِفَاعِهِ بِانْطِفَاءِ النَّارِ، فَمَاذَا شُبِّهَ فِي التَّمْثِيلِ الثَّانِي بِالصَّيِّبِ وَبِالظُّلُمَاتِ وَبِالرَّعْدِ وَبِالْبَرْقِ وَبِالصَّوَاعِقِ؟

قُلْتُ: لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: شُبِّهَ دِينُ الْإِسْلَامِ بِالصَّيِّبِ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَحْيَا بِهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ شَبَهِ الْكُفَّارِ بِالظُّلُمَاتِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ، وَمَا يُصِيبُ الْكَفَرَةَ مِنَ الْأَفْزَاعِ وَالْبَلَايَا وَالْفِتَنِ مِنْ جِهَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالصَّوَاعِقِ، وَالْمَعْنَى: أَوْ كَمَثَلِ ذَوِي صَيِّبٍ، وَالْمُرَادُ كَمَثَلِ قَوْمٍ أَخَذَتْهُمُ السَّمَاءُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَلَقُوا مِنْهَا مَا لَقُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا تَشْبِيهُ أَشْيَاءَ بِأَشْيَاءَ فَأَيْنَ ذِكْرُ الْمُشَبَّهَاتِ؟ وَهَلَّا صُرِّحَ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ﴾[2]، وَفِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًـــــا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

قُلْتُ: كَمَا جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فَقَدْ جَاءَ مَطْوِيًّا ذِكْرُهُ عَلَى سَنَنِ الِاسْتِعَارَةِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[3]، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾[4].

وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ لَا يَتَخَطَّوْنَهُ: أَنَّ التَّمْثِيلَيْنِ جَمِيعًا مِنْ جُمْلَةِ التَّمْثِيلَاتِ الْمُرَكَّبَةِ دُونَ الْمُفَرَّقَةِ، لَا يَتَكَلَّفُ الْوَاحِدُ وَاحِدَ شَيْءٍ يَقْدِرُ شِبْهَهُ بِهِ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْفَحْلُ وَالْمَذْهَبُ الْجَزْلُ.

---

[1] سورة فَاطِرٍ، الآية 21.

[2] سورة غَافِرٍ، الآية 58.

[3] سورة فَاطِرٍ، الآية 12.

[4] سورة الزُّمَرِ، الآية 39.

بَيَانُهُ: أَنَّ الْعَرَبَ تَأْخُذُ أَشْيَاءَ فُرَادَى، مَعْزُولًا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، لَمْ يَأْخُذْ هَذَا بِحُجْزَةِ ذَاكَ فَتُشَبِّهُهَا بِنَظَائِرِهَا، كَمَا فَعَلَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ، وَتُشَبَّهُ كَيْفِيَّةٌ حَاصِلَةٌ مِنْ مَجْمُوعِ أَشْيَاءٍ قَدْ تَضَامَّتْ وَتَلَاصَقَتْ حَتَّى عَادَتْ شَيْئًا وَاحِدًا بِأُخْرَى مِثْلِهَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾[1] الْآيَةَ، الْغَرَضُ تَشْبِيهُ حَالِ الْيَهُودِ فِي جَهْلِهَا بِمَا مَعَهَا مِنَ التَّوْرَاةِ وَآيَاتِهَا الْبَاهِرَةِ بِحَالِ الْحِمَارِ فِي جَهْلِهِ بِمَا يَحْمِلُ مِنْ أَسْفَارِ الْحِكْمَةِ، وَتَسَاوِي الْحَالَتَيْنِ عِنْدَهُ مِنْ حَمْلِ أَسْفَارِ الْحِكْمَةِ وَحَمْلِ مَا سِوَاهَا مِنَ الْأَوْقَارِ، لَا يَشْعُرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا يَمُرُّ بِدَفَّيْهِ مِنَ الْكَدِّ وَالتَّعَبِ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾[2].

الْمُرَادُ: قِلَّةُ بَقَاءِ زَهْرَةِ الدُّنْيَا كَقِلَّةِ بَقَاءِ الْخَضِرِ، فَأَمَّا أَنْ يُرَادَ تَشْبِيهُ الْأَفْرَادِ بِالْأَفْرَادِ غَيْرَ مَنُوطٍ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَمَصِيرُهُ شَيْئًا وَاحِدًا فَلَا.

فَكَذَلِكَ لَمَّا وُصِفَ وُقُوعُ الْمُنَافِقِينَ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَمَا خَبَطُوا فِيهِ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالدَّهْشَةِ شُبِّهَتْ حَيْرَتُهُمْ وَشِدَّةُ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ بِمَا يُكَابِدُ مَنْ طُفِئَتْ نَارُهُ بَعْدَ إِيقَادِهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَخَذَتْهُ السَّمَاءُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ مَعَ رَعْدٍ وَبَرْقٍ وَخَوْفٍ مِنَ الصَّوَاعِقِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الَّذِي كُنْتَ تُقَدِّرُهُ فِي الْمُفْرَقِ مِنَ التَّشْبِيهِ مِنْ حَذْفِ الْمُضَافِ وَهُوَ قَوْلُكَ: "أَوْ كَمَثَلِ ذَوِي صَيِّبٍ" هَلْ تُقَدِّرُ مِثْلَهُ فِي الْمُرَكَّبِ مِنْهُ؟

قُلْتُ: لَوْلَا طَلَبُ الرَّاجِعِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[3] مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ لَكُنْتُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ تَقْدِيرِهِ، لِأَنِّي أُرَاعِي الْكَيْفِيَّةَ الْمُنْتَزَعَةَ مِنْ مَجْمُوعِ الْكَلَامِ فَلَا عَلَيَّ أَوَلِيَ حَرْفَ التَّشْبِيهِ مُفْرَدٌ يَتَأَتَّى التَّشْبِيهُ بِهِ أَمْ لَمْ يَلِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[4] الْآيَةَ، كَيْفَ وَلِيَ الْمَاءُ الْكَافَ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ تَشْبِيهُ الدُّنْيَا بِالْمَاءِ وَلَا بِمُفْرَدٍ آخَرَ يُتَمَحَّلُ لِتَقْدِيرِهِ، وَمِمَّا هُوَ بَيِّنٌ فِي هَذَا قَوْلُ لَبِيدٍ:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلُهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بِلَاقِعُ

لَمْ يُشَبِّهِ النَّاسَ بِالدِّيَارِ، وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ وَفَنَائِهِمْ بِحُلُولِ أَهْلِ الدِّيَارِ فِيهَا وَوَشْكِ نُهُوضِهِمْ عَنْهَا، وَتَرْكِهَا خَلَاءً خَاوِيَةً.

---

[1] سورة الْجُمُعَةِ، الآية 5.

[2] سورة الْكَهْفِ، الآية 45.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة يُونُسَ، الآية 24.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ التَّمْثِيلَيْنِ أَبْلَغُ؟

قُلْتُ: الثَّانِي، لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى فَرْطِ الْحَيْرَةِ وَشِدَّةِ الْأَمْرِ وَفَظَاعَتِهِ، وَلِذَلِكَ أُخِّرَ، وَهُمْ يَتَدَرَّجُونَ فِي نَحْوِ هَذَا مِنَ الْأَهْوَنِ إِلَى الْأَغْلَظِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عُطِفَ أَحَدُ التَّمْثِيلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ بِحَرْفِ الشَّكِّ؟

قُلْتُ: "أَوْ" فِي أَصْلِهَا لِتَسَاوِي شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا فِي الشَّكِّ، ثُمَّ اتُّسِعَ فِيهَا فَاسْتُعِيرَتْ لِلتَّسَاوِي فِي غَيْرِ الشَّكِّ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: جَالِسِ الْحَسَنَ أَوِ ابْنَ سِيرِينَ، تُرِيدُ أَنَّهُمَا سِيَّانِ فِي اسْتِصْوَابِ أَنْ يُجَالَسَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[1]، أَيِ الْآثِمُ وَالْكَفُورُ مُتَسَاوِيَانِ فِي وُجُوبِ عِصْيَانِهِمَا، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[2]، مَعْنَاهُ: أَنَّ كَيْفِيَّةَ قِصَّةِ الْمُنَافِقِينَ مُشْبِهَةٌ لِكَيْفِيَّتَيْ هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ، وَأَنَّ الْقِصَّتَيْنِ سَوَاءٌ فِي اسْتِقْلَالِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِوَجْهِ التَّمْثِيلِ، فَبِأَيَّتِهِمَا مَثَّلْتَهَا فَأَنْتَ مُصِيبٌ، وَإِنْ مَثَّلْتَهَا بِهِمَا جَمِيعًا فَكَذَلِكَ.

وَالصَّيِّبُ، الْمَطَرُ الَّذِي يُصَوَّبُ، أَيْ: يَنْزِلُ وَيَقَعُ، وَيُقَالُ لِلسَّحَابِ صَيِّبٌ أَيْضًا.

قَالَ الشَّمَّاخُ:

وَأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرَّعْدِ صَيِّبِ

وَتَنْكِيرُ صَيِّبٍ، لِأَنَّهُ أُرِيدَ نَوْعٌ مِنَ الْمَطَرِ شَدِيدٌ هَائِلٌ، كَمَا نُكِّرَتِ النَّارُ فِي التَّمْثِيلِ الْأَوَّلِ، وَقُرِئَ: "كَصَائِبٍ"، وَالصَّيِّبُ أَبْلَغُ.

وَالسَّمَاءُ هَذِهِ الْمِظَلَّةُ، وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهَا مَوْجٌ مَكْفُوفٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾[3] مَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهِ، وَالصَّيِّبُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ السَّمَاءِ؟ قُلْتُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ جَاءَ بِالسَّمَاءِ مَعْرِفَةً فَنُفِيَ أَنْ يَتَصَوَّبَ مِنْ سَمَاءٍ، أَيْ مِنْ أُفُقٍ وَاحِدٍ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْآفَاقِ، لِأَنَّ كُلَّ أُفُقٍ مِنْ آفَاقِهَا سَمَاءٌ، كَمَا أَنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنَ الطِّبَاقِ سَمَاءٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[4].

الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ:

وَمِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بَيْنَنَا وَسَمَـــاءِ

---

[1] سورة الْإِنْسَانِ، الآية 24.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية 12.

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ غَمَامٌ مُطَبَقٌ آخِذٌ بِآفَاقِ السَّمَاءِ، كَمَا جَاءَ بِصَيِّبٍ، وَفِيهِ مُبَالَغَاتٌ مِنْ جِهَةِ التَّرْكِيبِ وَالْبِنَاءِ وَالتَّنْكِيرِ، أَمَدَّ ذَلِكَ بِأَنَّ جَعَلَهُ مُطْبَقًا، وَفِيهِ أَنَّ السَّحَابَ مِنَ السَّمَاءِ يَنْحَدِرُ وَمِنْهَا يَأْخُذُ مَاءَهُ، لَا كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبَحْرِ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ ارْتَفَعَ ظُلُمَاتٌ؟

قُلْتُ: بِالظَّرْفِ عَلَى الِاتِّفَاقِ لِاعْتِمَادِهِ عَلَى مَوْصُوفٍ.

وَالرَّعْدُ: الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ السَّحَابِ، كَأَنَّ أَجْرَامَ السَّحَابِ تَصْطَرِبُ وَتَنْتَقِضُ إِذَا حَدَتْهَا الرِّيحُ فَتُصَوِّتُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الِارْتِعَادِ، وَالْبَرْقُ الَّذِي يَلْمَعُ مِنَ السَّحَابِ، مِنْ بَرَقَ الشَّيْءُ بَرِيقًا إِذَا لَمَعَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ جُعِلَ الصَّيِّبُ مَكَانًا لِلظُّلُمَاتِ فَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يُرَادَ بِهِ السَّحَابُ أَوِ الْمَطَرُ، فَأَيُّهُمَا أُرِيدَ فَمَا ظُلُمَاتُهُ؟

قُلْتُ: أَمَّا ظُلُمَاتُ السَّحَابِ فَإِذَا كَانَ أَسْحَمَ مُطْبِقًا فَظُلْمَتَا سُحْمَتِهِ وَتَطْبِيقِهِ مَضْمُومَةٌ إِلَيْهِمَا ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَأَمَّا ظُلُمَاتُ الْمَطَرِ فَظُلْمَةُ تَكَاثُفِهِ وَانْتِسَاجِهِ بِتَتَابُعِ الْقَطْرِ، وَظُلْمَةُ إِظْلَالِ غَمَامِهِ مَعَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ الْمَطَرُ مَكَانًا لِلْبَرْقِ وَالرَّعْدِ وَإِنَّمَا مَكَانُهُمَا السَّحَابُ؟

قُلْتُ: إِذَا كَانَا فِي أَعْلَاهُ وَمَصَبِّهِ وَمُلْتَبِسَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ فَهُمَا فِيهِ.

أَلَا تُرَاكَ تَقُولُ: فُلَانٌ فِي الْبَلَدِ، وَمَا هُوَ مِنْهُ إِلَّا فِي حَيِّزٍ يَشْغَلُهُ جِرْمُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا جُمِعَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ أَخْذًا بِالْأَبْلَغِ، كَقَوْلِ الْبُحْتُرِيِّ:

يَا عَارِضًا مُتَلَفِّعًا بِبُـــرُودِهِ يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ وَرُعُودِهِ

وَكَمَا قِيلَ: ظُلُمَاتٌ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ الْعَيْنَانِ، وَلَكِنَّهُمَا لَمَّا كَانَا مَصْدَرَيْنِ فِي الْأَصْلِ –يُقَالُ: رَعَدَتِ السَّمَاءُ رَعْدًا وَبَرَقَتْ بَرْقًا– رُوعِيَ حُكْمُ أَصْلِهِمَا بِأَنْ تُرِكَ جَمْعُهُمَا وَإِنْ أُرِيدَ مَعْنَى الْجَمْعِ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يُرَادَ الْحَدَثَانِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِرْعَادٌ وَإِبْرَاقٌ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مُنَكَّرَاتٍ، لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنْوَاعٌ مِنْهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: فِيهِ ظُلُمَاتٌ دَاجِيَةٌ، وَرَعْدٌ قَاصِفٌ، وَبَرْقٌ خَاطِفٌ، وَجَازَ

---

[1] سورة النُّور، الآية 43.

رُجُوعُ الضَّمِيرِ فِي يَجْعَلُونَ إِلَى أَصْحَابِ الصَّيِّبِ مَعَ كَوْنِهِ مَحْذُوفًا قَائِمًا مَقَامَهُ الصَّيِّبُ، كَمَا قَالَ: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[1]، لِأَنَّ الْمَحْذُوفَ بَاقٍ مَعْنَاهُ وَإِنْ سَقَطَ لَفْظُهُ.

أَلَا تَرَى إِلَى حَسَّانَ كَيْفَ عَوَّلَ عَلَى بَقَاءِ مَعْنَاهُ فِي قَوْلِهِ:

يُسْقَوْنَ مِنْ وِرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمُ بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

حَيْثُ ذَكَرَ يُصَفِّقُ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: مَاءَ بَرَدَى، وَلَا مَحَلَّ لِقَوْلِهِ: ﴿يَجْعَلُونَ﴾[2] لِكَوْنِهِ مُسْتَأْنَفًا، لِأَنَّهُ لَمَّا ذُكِرَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ عَلَى مَا يُؤْذِنُ بِالشِّدَّةِ وَالْهَوْلِ؛ فَكَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: فَكَيْفَ حَالُهُمْ مَعَ مِثْلِ ذَلِكَ الرَّعْدِ؟ فَقِيلَ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[3]، ثُمَّ قَالَ: فَكَيْفَ حَالُهُمْ مَعَ مِثْلِ ذَلِكَ الْبَرْقِ؟

فَقِيلَ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: رُأَيْسُ الْأُصْبُعِ هُوَ الَّذِي يُجْعَلُ فِي الْأُذُنِ، فَهَلَّا قِيلَ: أَنَامِلَهُمْ؟

قُلْتُ: هَذَا مِنَ الِاتِّسَاعَاتِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي لَا يَكَادُ الْحَاصِرُ يَحْصُرُهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾[5]، ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[6] أَرَادَ الْبَعْضَ الَّذِي هُوَ إِلَى الْمِرْفَقِ وَالَّذِي إِلَى الرُّسْغِ، وَأَيْضًا فَفِي ذِكْرِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِ الْأَنَامِلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالْأُصْبُعُ الَّتِي تُسَدُّ بِهَا الْأُذُنُ أُصْبُعٌ خَاصَّةٌ، فَلِمَ ذُكِرَ الِاسْمُ الْعَامُّ دُونَ الْخَاصِّ.

قُلْتُ: لِأَنَّ السَّبَّابَةَ فَعَّالَةٌ مِنَ السَّبِّ فَكَانَ اجْتِنَابُهَا أَوْلَى بِآدَابِ الْقُرْآنِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قَدِ اسْتَبْشَعُوهَا فَكَنَّوْا عَنْهَا بِالْمُسَبِّحَةِ وَالسَّبَّاحَةِ وَالْمُهَلِّلَةِ وَالدَّعَّاءَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا ذُكِرَ بَعْضُ هَذِهِ الْكِنَايَاتِ؟

قُلْتُ: هِيَ أَلْفَاظٌ مُسْتَحْدَثَةٌ لَمْ يَتَعَارَفْهَا النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَإِنَّمَا أَحْدَثُوهَا بَعْدُ.

---

[1] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 4.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْمَائِدَةِ، الآية 6.

[6] سورة الْمَائِدَةِ، الآية 6.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾[1] مُتَعَلِّقٌ بِيَجْعَلُونَ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ الصَّوَاعِقِ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، كَقَوْلِكَ: سَقَاهُ مِنَ الْعَيْمَةِ، وَالصَّاعِقَةُ: قَصْفَةُ رَعْدٍ تَنْقَضُّ مَعَهَا شَقَّةٌ مِنْ نَارٍ.

قَالُوا: تَنْقَدِحُ مِنَ السَّحَابِ إِذَا اصْطَكَّتْ أَجْرَامُهُ، وَهِيَ نَارٌ لَطِيفَةٌ حَدِيدَةٌ، لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا أَتَتْ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهَا مَعَ حِدَّتِهَا سَرِيعَةُ الْخُمُودِ، يُحْكَى أَنَّهَا سَقَطَتْ عَلَى نَخْلَةٍ فَأَحْرَقَتْ نَحْوَ النِّصْفِ ثُمَّ طُفِئَتْ، وَيُقَالُ: صَعَقَتْهُ الصَّاعِقَةُ إِذَا أَهْلَكَتْهُ، فَصَعِقَ، أَيْ: مَاتَ إِمَّا بِشِدَّةِ الصَّوْتِ أَوْ بِالْإِحْرَاقِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[2].

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (مِنَ الصَّوَاقِعِ)، وَلَيْسَ بِقَلْبٍ لِلصَّوَاعِقِ، لِأَنَّ كِلَا الْبِنَاءَيْنِ سَوَاءٌ فِي التَّصَرُّفِ، وَإِذَا اسْتَوَيَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ بِنَاءً عَلَى حِيَالِهِ.

أَلَا تُرَاكَ تَقُولُ: صَقَعَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَصُقِعَ الدِّيكُ، وَخَطِيبٌ مِصْقَعٌ: مُجْهِرٌ بِخُطْبَتِهِ، وَنَظِيرُهُ: "جَبَذَ" فِي "جَذَبَ" لَيْسَ بِقَلْبِهِ لِاسْتِوَائِهِمَا فِي التَّصَرُّفِ، وَبِنَاؤُهَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِقَصْفَةِ الرَّعْدِ، أَوْ لِلرَّعْدِ، وَالتَّاءُ مُبَالَغَةٌ كَمَا فِي الرَّاوِيَةِ، أَوْ مَصْدَرًا كَالْكَاذِبَةِ وَالْعَافِيَةِ.

وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى: "حِذَارَ الْمَوْتِ" وَانْتُصِبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، كَقَوْلِهِ:

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادِّخَـــارَهُ

وَالْمَوْتُ: فَسَادُ بِنْيَةِ الْحَيَوَانِ، وَقِيلَ: عَرَضٌ لَا يَصِحُّ مَعَهُ إِحْسَاسٌ مُعَاقِبٌ لِلْحَيَاةِ، وَإِحَاطَةُ اللَّهِ بِالْكَافِرِينَ مَجَازٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونَهُ كَمَا لَا يَفُوتُ الْمُحَاطُ بِهِ الْمُحِيطَ بِهِ حَقِيقَةً.

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ لَا مَحَلَّ لَهَا، وَالْخَطْفُ: الْأَخْذُ بِسُرْعَةٍ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: (يَخْطِفُ) بِكَسْرِ الطَّاءِ، وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ وَأَعْلَى، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (يَخْتَطِفُ)، وَعَنِ الْحَسَنِ: (يَخَطَفُ)، بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْخَاءِ، وَأَصْلُهُ: يَخْتَطِفُ، وَعَنْهُ: (يِخطِفُ)، بِكَسْرِهِمَا عَلَى إِتْبَاعِ الْيَاءِ الْخَاءَ، وَعَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: (يَخْطِفُ) مِنْ خَطَفَ، وَعَنْ أُبَيٍّ: (يَتَخَطَّفُ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[3].

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾[4] اسْتِئْنَافٌ ثَالِثٌ كَأَنَّهُ جَوَابٌ لِمَنْ يَقُولُ: كَيْفَ يَصْنَعُونَ فِي تَارَتَيِ خُفُوقِ الْبَرْقِ وَخِفْيَتِهِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَاف، الآية 143.

[3] سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 67.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ بِشِدَّتِهِ عَلَى أَصْحَابِ الصَّيِّبِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ غَايَةِ التَّحَيُّرِ وَالْجَهْلِ بِمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ، إِذَا صَادَفُوا مِنَ الْبَرْقِ خَفْقَةً، مَعَ خَوْفِ أَنْ يَخْطَفَ أَبْصَارَهُمْ، انْتَهَزُوا تِلْكَ الْخَفْقَةَ فُرْصَةً فَخَطُوا خُطُوَاتٍ يَسِيرَةً، فَإِذَا خَفِيَ وَفَتَرَ لَمَعَانُهُ بَقُوا وَاقِفِينَ مُتَقَيِّدِينَ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَزَادَ فِي قَصِيفِ الرَّعْدِ فَأَصَمَّهُمْ، أَوْ فِي ضَوْءِ الْبَرْقِ فَأَعْمَاهُمْ، وَأَضَاءَ: إِمَّا مُتَعَدٍّ بِمَعْنَى: كُلَّمَا نَوَّرَ لَهُمْ مَمْشًى وَمَسْلَكًا أَخَذُوهُ وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ، وَإِمَّا غَيْرُ مُتَعَدٍّ بِمَعْنَى: كُلَّمَا لَمَعَ لَهُمْ "مَشَوْا" فِي مَطْرَحِ نُورِهِ وَمُلْقَى ضَوْئِهِ، وَيُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ أَبِي عَبْلَةَ: (كُلَّمَا ضَاءَ لَهُمْ)، وَالْمَشْيُ: جِنْسُ الْحَرَكَةِ الْمَخْصُوصَةِ، فَإِذَا اشْتَدَّ فَهُوَ سَعْيٌ، فَإِذَا ازْدَادَ فَهُوَ عَدْوٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ مَعَ الْإِضَاءَةِ: كُلَّمَا، وَمَعَ الْإِظْلَامِ: إِذَا؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ حُرَّاصٌ عَلَى وُجُودِ مَا هُمُّهُمْ بِهِ مَعْقُودٌ مِنْ إِمْكَانِ الْمَشْيِ وَتَأَتِّيهِ، فَكُلَّمَا صَادَفُوا مِنْهُ فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ التَّوَقُّفُ وَالتَّحَبُّسُ، وَأَظْلَمَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتَعَدٍّ وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَعَدِّيًا مَنْقُولًا مِنْ ظَلِمَ اللَّيْلُ، وَتَشْهَدُ لَهُ قِرَاءَةُ يَزِيدَ بْنِ قُطَيْبٍ: (أُظْلِمَ)، عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وَجَاءَ فِي شِعْرِ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ:

هُمَا أَظْلَمَا حَالَيَّ ثُمَّتْ أَجْلَيَـــــا ظَلَامَيْهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشِيبِ

وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مُحْدَثًا لَا يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي اللُّغَةِ، فَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، فَاجْعَلْ مَا يَقُولُهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يَرْوِيهِ.

أَلَا تُرَى إِلَى قَوْلِ الْعُلَمَاءِ: الدَّلِيلُ عَلَيْهِ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ، فَيَقْتَنِعُونَ بِذَلِكَ لِوُثُوقِهِمْ بِرِوَايَتِهِ وَإِتْقَانِهِ، وَمَعْنَى "قَامُوا": وَقَفُوا وَثَبَتُوا فِي مَكَانِهِمْ، وَمِنْهُ: قَامَتِ السُّوقُ إِذَا رَكَدَتْ، وَقَامَ الْمَاءُ: جَمَدَ، وَمَفْعُولُ "شَاءَ" مَحْذُوفٌ، لِأَنَّ الْجَوَابَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ لَذَهَبَ بِهَا، وَلَقَدْ تَكَاثَرَ هَذَا الْحَذْفُ فِي "شَاءَ" وَ"أَرَادَ" لَا يَكَادُونَ يُبْرِزُونَ الْمَفْعُولَ إِلَّا فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَغْرَبِ كَنَحْوِ قَوْلِهِ:

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُـــهُ

وَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾[1]، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[2].

---

[1] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 17.

[2] سورة الزُّمَرِ، الآية 4.

وَأَرَادَ: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ بِقَصِيفِ الرَّعْدِ، وَأَبْصَارِهِمْ بِوَمِيضِ الْبَرْقِ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: (لَأَذْهَبَ بِأَسْمَاعِهِمْ) بِزِيَادَةِ الْبَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾[1].

وَالشَّيْءُ: مَا صَحَّ أَنْ يُعْلَمَ وَيُخْبَرَ عَنْهُ، قَالَ سِيبَوَيْهِ –فِي سَاقَةِ الْبَابِ الْمُتَرْجَمِ بِبَابِ مَجَارِي أَوَاخِرِ الْكَلِمِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ –: وَإِنَّمَا يَخْرُجُ التَّأْنِيثُ مِنَ التَّذْكِيرِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّيْءَ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَا أُخْبِرَ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُعْلَمَ أَذَكَرٌ هُوَ أَمْ أُنْثَى؟ وَالشَّيْءُ: مُذَكَّرٌ، وَهُوَ أَعَمُّ الْعَامِّ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ أَخَصُّ الْخَاصِّ يَجْرِي عَلَى الْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَالْقَدِيمِ، تَقُولُ: شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ، أَيْ: مَعْلُومٌ لَا كَسَائِرِ الْمَعْلُومَاتِ، وَعَلَى الْمَعْدُومِ وَالْمُحَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وَفِي الْأَشْيَاءِ مَا لَا تَعَلُّقَ بِهِ لِلْقَادِرِ كَالْمُسْتَحِيلِ وَفِعْلِ قَادِرٍ آخَرَ؟

قُلْتُ: مَشْرُوطٌ فِي حَدِّ الْقَادِرِ أَلَّا يَكُونَ الْفِعْلُ مُسْتَحِيلًا، فَالْمُسْتَحِيلُ مُسْتَثْنًى فِي نَفْسِهِ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَادِرِ عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُسْتَقِيمٍ قَدِيرٌ، وَنَظِيرُهُ: فُلَانٌ أَمِيرٌ عَلَى النَّاسِ أَيْ عَلَى مَنْ وَرَاءَهُ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُدْخِلْ فِيهِمْ نَفْسَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ النَّاسِ، وَأَمَّا الْفِعْلُ بَيْنَ قَادِرَيْنِ فَمُخْتَلَفٌ فِيهِ .

فَإِنْ قُلْتَ: مِمَّ اشْتِقَاقُ الْقَدِيرِ؟

قُلْتُ: مِنَ التَّقْدِيرِ، لِأَنَّهُ يُوقِعُ فِعْلَهُ عَلَى مِقْدَارِ قُوَّتِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ وَمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْعَاجِزِ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]

لَمَّا عَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى فِرَقَ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَذَكَرَ صِفَاتِهِمْ وَأَحْوَالَهُمْ وَمَصَارِفَ أُمُورِهِمْ، وَمَا اخْتُصَّتْ بِهِ كُلُّ فِرْقَةٍ مِمَّا يُسْعِدُهَا وَيُشْقِيهَا، وَيُحْظِيهَا عِنْدَ اللَّهِ وَيُرْدِيهَا، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالْخِطَابِ، وَهُوَ مِنَ الِالْتِفَاتِ الْمَذْكُورِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية 195.

[2] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، وَهُوَ فَنٌّ مِنَ الْكَلَامِ جَزْلٌ، فِيهِ هَزٌّ وَتَحْرِيكٌ مِنَ السَّامِعِ، كَمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ حَاكِيًا عَنْ ثَالِثٍ لَكُمَا: إِنَّ فُلَانًا مِنْ قِصَّتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَصَصْتَ عَلَيْهِ مَا فَرَطَ مِنْهُ، ثُمَّ عَدَلْتَ بِخِطَابِكَ إِلَى الثَّالِثِ؛ فَقُلْتَ: يَا فُلَانُ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَلْزَمَ الطَّرِيقَةَ الْحَمِيدَةَ فِي مَجَارِي أُمُورِكَ، وَتَسْتَوِيَ عَلَى جَادَّةِ السَّدَادِ فِي مَصَادِرِكَ وَمَوَارِدِكَ، نَبَّهْتَهُ بِالْتِفَاتِكَ نَحْوَهُ فَضْلَ تَنْبِيهٍ، وَاسْتَدْعَيْتَ إِصْغَاءَهُ إِلَى إِرْشَادِكَ زِيَادَةَ اسْتِدْعَاءٍ، وَأَوْجَدْتَهُ بِالِانْتِقَالِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ هَازًّا مِنْ طَبْعِهِ مَا لَا يَجِدُهُ إِذَا اسْتَمَرَرْتَ عَلَى لَفْظِ الْغَيْبَةِ ، وَهَكَذَا الِافْتِنَانُ فِي الْحَدِيثِ، وَالْخُرُوجُ فِيهِ مِنْ صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ يَسْتَفْتِحُ الْآذَانَ لِلِاسْتِمَاعِ، وَيَسْتَهِشُّ الْأَنْفُسَ لِلْقَبُولِ.

وَبَلَغَنَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَزَلَ فِيهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾[2] فَهُوَ مَكِّيٌّ، وَ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، فَهُوَ مَدَنِيٌّ، فَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[4]: خِطَابٌ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ، وَ"يَا" حَرْفٌ وُضِعَ فِي أَصْلِهِ لِنِدَاءِ الْبَعِيدِ، صَوْتٌ يَهْتِفُ بِهِ الرَّجُلُ بِمَنْ يُنَادِيهِ، وَأَمَّا نِدَاءُ الْقَرِيبِ فَلَهُ "أَيْ، وَالْهَمْزَةُ"، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي مُنَادَاةِ مَنْ سَهَا وَغَفَلَ وَإِنْ قَرُبَ؛ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ مِنْ بَعُدَ، فَإِذَا نُودِيَ بِهِ الْقَرِيبُ الْمُفَاطِنُ فَذَلِكَ لِلتَّأْكِيدِ الْمُؤْذِنِ بِأَنَّ الْخِطَابَ الَّذِي يَتْلُوهُ مَعْنِيٌّ بِهِ جِدًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بَالُ الدَّاعِي يَقُولُ فِي جُؤَارِهِ: يَا رَبِّ، وَيَا أَللَّهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَأَسْمَعُ بِهِ وَأَبْصَرُ؟

قُلْتُ: هُوَ اسْتِقْصَارٌ مِنْهُ لِنَفْسِهِ، وَاسْتِبْعَادٌ لَهَا مِنْ مَظَانِّ الزُّلْفَى وَمَا يُقَرِّبُهُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَمَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ؛ هَضْمًا لِنَفْسِهِ وَإِقْرَارًا عَلَيْهَا بِالتَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، مَعَ فَرْطِ التَّهَالُكِ عَلَى اسْتِجَابَةِ دَعْوَتِهِ وَالْإِذْنِ لِنِدَائِهِ وَابْتِهَالِهِ.

وَ"أَيْ" وَصْلَةٌ إِلَى نِدَاءِ مَا فِيهِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ، كَمَا أَنَّ "ذُو" وَ"الَّذِي" وَصْلَتَانِ إِلَى الْوَصْفِ بِأَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ وَوَصْفِ الْمَعَارِفِ بِالْجُمَلِ. وَهُوَ اسْمٌ مُبْهَمٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى مَا يُوَضِّحُهُ وَيُزِيلُ إِبْهَامَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُرْدِفَهُ اسْمُ جِنْسٍ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ يَتَّصِفُ بِهِ حَتَّى يَصِحَّ الْمَقْصُودُ بِالنِّدَاءِ، فَالَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ حَرْفُ النِّدَاءِ هُوَ "أَيْ" وَالِاسْمُ التَّابِعُ لَهُ صِفَتُهُ، كَقَوْلِكَ: يَا زَيْدُ

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ ، الآية .

الظَّرِيفُ، إِلَّا أَنَّ "أَيًّا" لَا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ اسْتِقْلَالَ "زَيْدٍ" فَلَمْ يَنْفَكَّ مِنَ الصِّفَةِ، وَفِي هَذَا التَّدَرُّجِ مِنَ الْإِبْهَامِ إِلَى التَّوْضِيحِ ضَرْبٌ مِنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّشْدِيدِ، وَكَلِمَةُ التَّنْبِيهِ الْمُقْحَمَةُ بَيْنَ الصِّفَةِ وَمَوْصُوفِهَا لِفَائِدَتَيْنِ: مُعَاضَدَةِ حَرْفِ النِّدَاءِ وَمُكَانَفَتِهِ بِتَأْكِيدِ مَعْنَاهُ، وَوُقُوعِهَا عِوَضًا مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ، أَيْ مِنَ الْإِضَافَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَثُرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ النِّدَاءُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مَا لَمْ يَكْثُرْ فِي غَيْرِهِ؟

قُلْتُ: لِاسْتِقْلَالِهِ بِأَوْجُهٍ مِنَ التَّأْكِيدِ وَأَسْبَابٍ مِنَ الْمُبَالَغَةِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا نَادَى اللَّهُ لَهُ عِبَادَهُ –مِنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَعِظَاتِهِ وَزَوَاجِرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَاقْتِصَاصِ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الدَّارِجَةِ عَلَيْهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَنْطَقَ بِهِ كِتَابَهُ– أُمُورٌ عِظَامٌ، وَخُطُوبٌ جِسَامٌ، وَمَعَانٍ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَيَقَّظُوا لَهَا، وَيَمِيلُوا بِقُلُوبِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ إِلَيْهَا، وَهُمْ عَنْهَا غَافِلُونَ، فَاقْتَضَتِ الْحَالُ أَنْ يُنَادُوا بِالْآكَدِ الْأَبْلَغِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَا يَخْلُو الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ جَمِيعًا، أَوْ إِلَى كُفَّارِ مَكَّةَ خَاصَّةً، عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ عَلْقَمَةَ وَالْحَسَنِ، فَالْمُؤْمِنُونَ عَابِدُونَ رَبَّهُمْ، فَكَيْفَ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُلْتَبِسُونَ بِهِ؟ وَهَلْ هُوَ إِلَّا كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

فَلَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كُنْتُ كَمَنْ تَسْـأَلُهُ وَهُوَ قَائِمٌ أَنْ يَقُومَا

وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ، وَلَا يُقِرُّونَ بِهِ فَكَيْفَ يَعْبُدُونَهُ؟ قُلْتُ: الْمُرَادُ بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ: ازْدِيَادُهُمْ مِنْهَا وَإِقْبَالُهُمْ وَثَبَاتُهُمْ عَلَيْهَا، وَأَمَّا عِبَادَةُ الْكُفَّارِ فَمَشْرُوطٌ فِيهَا مَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ وَهُوَ الْإِقْرَارُ، كَمَا يُشْتَرَطُ عَلَى الْمَأْمُورِ بِالصَّلَاةِ شَرَائِطُهَا مِنَ الْوُضُوءِ وَالنِّيَّةِ وَغَيْرِهِمَا، وَمَا لَا بُدَّ لِلْفِعْلِ مِنْهُ، فَهُوَ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ الْأَمْرِ بِهِ وَإِنْ لَمْ يُذْكَرْ، حَيْثُ لَمْ يَنْفَعِلْ إِلَّا بِهِ، وَكَانَ مِنْ لَوَازِمِهِ، عَلَى أَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ كَانُوا يَعْرِفُونَ اللَّهَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ جَعَلْتَ قَوْلَهُ: "اعْبُدُوا" مُتَنَاوِلًا شَيْئَيْنِ مَعًا: الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ، وَالْأَمْرُ بِازْدِيَادِهَا.

قُلْتُ: الِازْدِيَادُ مِنَ الْعِبَادَةِ عِبَادَةٌ وَلَيْسَ شَيْئًا آخَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: "رَبَّكُمْ" مَا الْمُرَادُ بِهِ؟

---

[1] سورة الزُّخْرُفِ، الآية 87.

قُلْتُ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ مُعْتَقِدِينَ رُبُوبِيَّتَيْنِ: رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ، وَرُبُوبِيَّةَ آلِهَتِهِمْ، فَإِنْ خُصُّوا بِالْخِطَابِ فَالْمُرَادُ بِهِ اسْمٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهَا أَرْبَابًا، وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[1] صِفَةً مُوَضِّحَةً مُمَيِّزَةً، وَإِنْ كَانَ الْخِطَابُ لِلْفِرَقِ جَمِيعًا فَالْمُرَادُ بِهِ: "رَبَّكُمْ" عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالَّذِي خَلَقَكُمْ: صِفَةٌ جَرَتْ عَلَيْهِ عَلَى طَرِيقِ الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَا يَمْتَنِعُ هَذَا الْوَجْهُ فِي خِطَابِ الْكَفَرَةِ خَاصَّةً، إِلَّا أَنَّ الْأَوَّلَ أَوْضَحُ وَأَصَحُّ.

وَالْخَلْقُ: إِيجَادُ الشَّيْءِ عَلَى تَقْدِيرٍ وَاسْتِوَاءٍ، يُقَالُ: خَلَقَ النَّعْلَ إِذَا قَدَّرَهَا وَسَوَّاهَا بِالْمِقْيَاسِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: (خَلْقَكُمْ) بِالْإِدْغَامِ، وَقَرَأَ ابْنُ السَّمَيْفَعِ: (وَخَلَقَ مَنْ قَبْلَكُمْ) وَفِي قِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ: (وَالَّذِينَ مَنْ قَبْلَكُمْ)، وَهِيَ قِرَاءَةٌ مُشْكِلَةٌ، وَوَجْهُهَا عَلَى إِشْكَالِهَا أَنْ يُقَالَ: أَقْحَمَ الْمَوْصُولَ الثَّانِيَ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَصِلَتِهِ تَأْكِيدًا، كَمَا أَقْحَمَ جَرِيرٌ فِي قَوْلِهِ:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُـــمْ

تَيْمًا الثَّانِيَ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَمَا أُضِيفَ إِلَيْهِ، وَكَإِقْحَامِهِمْ لَامَ الْإِضَافَةِ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ فِي: لَا أَبَا لَكَ.

وَلَعَلَّ لِلتَّرَجِّي أَوِ الْإِشْفَاقِ، تَقُولُ: لَعَلَّ زَيْدًا يُكْرِمُنِي، وَلَعَلَّهُ يُهِينُنِي، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى-: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2] وَ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[3].

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[4]؟ وَقَدْ جَاءَتْ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْمَاعِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ إِطْمَاعٌ مِنْ كَرِيمٍ رَحِيمٍ إِذَا أَطْمَعَ فَعَلَ مَا يُطْمِعُ فِيهِ لَا مَحَالَةَ؛ لِجَرْيِ إِطْمَاعِهِ مَجْرَى وَعْدِهِ الْمَحْتُومِ وَفَاؤُهُ بِهِ؟!

قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّ "لَعَلَّ": بِمَعْنَى: "كَيْ"، وَ"لَعَلَّ" لَا تَكُونُ بِمَعْنَى: "كَيْ"؟! وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ، وَأَيْضًا فَمِنْ دَيْدَنِ الْمُلُوكِ وَمَا عَلَيْهِ أَوْضَاعُ أَمْرِهِمْ وَرُسُومِهِمْ أَنْ يَقْتَصِرُوا فِي مَوَاعِيدِهِمُ الَّتِي يُوَطِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى إِنْجَازِهَا عَلَى أَنْ يَقُولُوا: عَسَى، وَلَعَلَّ، وَنَحْوَهُمَا مِنَ الْكَلِمَاتِ أَوْ يُخِيلُوا إِخَالَةً، أَوْ يُظْفَرَ مِنْهُمْ بِالرَّمْزَةِ أَوِ الِابْتِسَامَةِ أَوِ النَّظْرَةِ الْحُلْوَةِ، فَإِذَا عُثِرَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ لَمْ يَبْقَ لِلطَّالِبِ مَا عِنْدَهُمْ شَكٌّ فِي النَّجَاحِ وَالْفَوْزِ بِالْمَطْلُوبِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة طَه، الآية 44.

[3] سورة الشُّورَى، الآية 17.

[4] سورة الشُّورَى، الآية 18.

فَعَلَى مِثْلِهِ وَرَدَ كَلَامُ مَالِكِ الْمُلُوكِ ذِي الْعِزِّ وَالْكِبْرِيَاءِ، أَوْ يَجِيءُ عَلَى طَرِيقِ الْإِطْمَاعِ دُونَ التَّحْقِيقِ، لِئَلَّا يَتَّكِلَ الْعِبَادُ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: فَ"لَعَلَّ" الَّتِي فِي الْآيَةِ مَا مَعْنَاهَا، وَمَا مَوْقِعُهَا؟

قُلْتُ: لَيْسَتْ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى رَجَاءِ اللَّهِ تَقْوَاهُمْ، لِأَنَّ الرَّجَاءَ لَا يَجُوزُ عَلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَحَمْلُهُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَهُمْ رَاجِينَ لِلتَّقْوَى لَيْسَ بِسَدِيدٍ أَيْضًا، وَلَكِنْ "لَعَلَّ": وَاقِعَةٌ فِي الْآيَةِ مَوْقِعَ الْمَجَازِ لَا الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– خَلَقَ عِبَادَهُ لِيَتَعَبَّدَهُمْ بِالتَّكْلِيفِ، وَرَكَّبَ فِيهِمُ الْعُقُولَ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَزَاحَ الْعِلَّةَ فِي أَقْدَارِهِمْ وَتَمْكِينِهِمْ وَهَدَاهُمُ النَّجْدَيْنِ، وَوَضَعَ فِي أَيْدِيهِمْ زِمَامَ الِاخْتِيَارِ، وَأَرَادَ مِنْهُمُ الْخَيْرَ وَالتَّقْوَى، فَهُمْ فِي صُورَةِ الْمَرْجُوِّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَّقُوا لِيَتَرَجَّحَ أَمْرُهُمْ –وَهُمْ مُخْتَارُونَ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ– كَمَا تَرَجَّحَتْ حَالُ الْمُرْتَجِي بَيْنَ أَنْ يَفْعَلَ وَأَلَّا يَفْعَلَ، وَمِصْدَاقُهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾[4]، وَإِنَّمَا يَبْلُو وَيَخْتَبِرُ مَنْ تُخْفَى عَلَيْهِ الْعَوَاقِبُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ بِالِاخْتِبَارِ بِنَاءُ أَمْرِهِمْ عَلَى الِاخْتِيَارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَمَا خَلَقَ الْمُخَاطَبِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَكَذَلِكَ خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِذَلِكَ، فَلِمَ قَصَرَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ مَنْ قَبْلَهُمْ؟

قُلْتُ: لَمْ يَقْصُرْهُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ غَلَّبَ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْغَائِبِينَ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى عَلَى إِرَادَتِهِمْ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: تَعْبُدُونَ لِأَجَلِ ﴿اعْبُدُوا﴾[5]؟ أَوِ اتَّقُوا لِمَكَانِ ﴿تَتَّقُونَ﴾[6] لِيَتَجَاوَبَ طَرَفَا النَّظْمِ؟

---

[1] سورة التَّحْرِيم، الآية 8.

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْمُلْك، الآية 2.

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قُلْتُ: لَيْسَتِ التَّقْوَى غَيْرَ الْعِبَادَةِ حَتَّى يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى تَنَافُرِ النَّظْمِ، وَإِنَّمَا التَّقْوَى قُصَارَى أَمْرِ الْعَابِدِ وَمُنْتَهَى جُهْدِهِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[1] لِلاسْتِيلَاءِ عَلَى أَقْصَى غَايَاتِ الْعِبَادَةِ كَانَ أَبْعَثَ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَأَشَدَّ إِلْزَامًا لَهَا، وَأَثْبَتَ لَهَا فِي النُّفُوسِ، وَنَحْوُهُ أَنْ تَقُولَ لِعَبْدِكَ: احْمِلْ خَرِيطَةَ الْكُتُبِ، فَمَا مَلَكَتْكَ يَمِينِي إِلَّا لِجَرِّ الْأَثْقَالِ، وَلَوْ قُلْتَ: لِحَمْلِ خَرَائِطِ الْكُتُبِ لَمْ يَقَعْ مِنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ الْمَوْقِعَ.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]

قَدَّمَ –سُبْحَانَهُ– مِنْ مُوجِبَاتِ عِبَادَتِهِ وَمُلْزِمَاتِ حَقِّ الشُّكْرِ لَهُ خَلْقَهُمْ أَحْيَاءً قَادِرِينَ أَوَّلًا، لِأَنَّهُ سَابِقَةُ أُصُولِ النِّعَمِ وَمُقَدِّمَتُهَا، وَالسَّبَبُ فِي التَّمَكُّنِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالشُّكْرِ وَغَيْرِهِمَا، ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مَكَانُهُمْ وَمُسْتَقَرُّهُمُ الَّذِي لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ عَرْصَةِ الْمَسْكَنِ وَمُتَقَلَّبِهِ وَمُفْتَرَشِهِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ الَّتِي هِيَ كَالْقُبَّةِ الْمَضْرُوبَةِ وَالْخَيْمَةِ الْمُطْنِبَةِ عَلَى هَذَا الْقَرَارِ، ثُمَّ مَا سَوَّاهُ –عَزَّ وَجَلَّ– مِنْ شِبْهِ عَقْدِ النِّكَاحِ بَيْنَ الْمُقِلَّةِ وَالْمُظِلَّةِ بِإِنْزَالِ الْمَاءِ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَالْإِخْرَاجِ بِهِ مِنْ بَطْنِهَا –أَشْبَاهَ النَّسْلِ الْمُنْتَجِ مِنَ الْحَيَوَانِ– مِنْ أَلْوَانِ الثِّمَارِ رِزْقًا لِبَنِي آدَمَ، لِيَكُونَ لَهُمْ ذَلِكَ مُعْتَبَرًا، وَمُتَسَلَّقًا إِلَى النَّظَرِ الْمُوصِلِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالِاعْتِرَافِ، وَنِعْمَةً يَتَعَرَّفُونَهَا فَيُقَابِلُونَهَا بِلَازِمِ الشُّكْرِ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَخَلْقِ مَا فَوْقَهُمْ وَتَحْتَهُمْ، وَأَنَّ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِ شَيْءٍ مِنْهَا، فَيَتَيَقَّنُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ خَالِقٍ لَيْسَ كَمِثْلِهَا، حَتَّى لَا يَجْعَلُوا الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ أَنْدَادًا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى نَحْوِ مَا هُوَ عَلَيْهِ قَادِرٌ، وَالْمَوْصُولُ مَعَ صِلَتِهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ وَصْفًا كَالَّذِي خَلَقَكُمْ، أَوْ عَلَى الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ رَفْعًا عَلَى الِابْتِدَاءِ وَفِيهِ مَا فِي النَّصْبِ مِنَ الْمَدْحِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَقَرَأَ يَزِيدُ الشَّامِيّ "بِسَاطًا" وَقَرَأَ طَلْحَةُ: "مِهَادًا" وَمَعْنَى جَعْلِهَا فِرَاشًا وَبِسَاطًا وَمِهَادًا لِلنَّاسِ: أَنَّهُمْ يَقْعُدُونَ عَلَيْهَا وَيَنَامُونَ وَيَتَقَلَّبُونَ كَمَا يَتَقَلَّبُ أَحَدُهُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَبِسَاطِهِ وَمِهَادِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ مُسَطَّحَةٌ وَلَيْسَتْ بِكُرِيَّةٍ؟

قُلْتُ: لَيْسَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ يَفْتَرِشُونَهَا كَمَا يَفْعَلُونَ بِالْمَفَارِشِ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ عَلَى شَكْلِ السَّطْحِ أَوْ شَكْلِ الْكُرَةِ، فَالِافْتِرَاشُ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وَلَا مَدْفُوعٍ، لِعِظَمِ حَجْمِهَا وَاتِّسَاعِ جُرْمِهَا وَتَبَاعُدِ أَطْرَافِهَا، وَإِذَا كَانَ مُتَسَهَّلًا فِي الْجَبَلِ وَهُوَ وَتَدٌ مِنْ أَوْتَادِ الْأَرْضِ، فَهُوَ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ أَسَهَلُ.

وَالْبِنَاءُ مَصْدَرٌ سُمِّيَ بِهِ الْمَبْنِيُّ -بَيْتًا كَانَ أَوْ قُبَّةً أَوْ خِبَاءً أَوْ طِرَافًا- وَأَبْنِيَةُ الْعَرَبِ: أَخْبِيَتُهُمْ، وَمِنْهُ بَنَى عَلَى امْرَأَتِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَزَوَّجُوا ضَرَبُوا عَلَيْهَا خِبَاءً جَدِيدًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى إِخْرَاجِ الثَّمَرَاتِ بِالْمَاءِ وَإِنَّمَا خَرَجَتْ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَ الْمَاءَ سَبَبًا فِي خُرُوجِهَا وَمَادَّةً لَهَا، كَمَاءِ الْفَحْلِ فِي خَلْقِ الْوَلَدِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ الْأَجْنَاسَ كُلَّهَا بِلَا أَسْبَابٍ وَلَا مَوَادَّ كَمَا أَنْشَأَ نُفُوسَ الْأَسْبَابِ وَالْمَوَادِّ، وَلَكِنَّ لَهُ فِي إِنْشَاءِ الْأَشْيَاءِ مُدَرِّجًا لَهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَنَاقِلًا مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى مَرْتَبَةٍ حِكَمًا وَدَوَاعِيَ يُجَدِّدُ فِيهَا لِمَلَائِكَتِهِ وَالنُّظَّارِ بِعُيُونِ الِاسْتِبْصَارِ مِنْ عِبَادِهِ عِبَرًا وَأَفْكَارًا صَالِحَةً، وَزِيَادَةَ طُمَأْنِينَةٍ، وَسُكُونَ إِلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَغَرَائِبِ حِكْمَتِهِ، لَيْسَ ذَلِكَ فِي إِنْشَائِهَا بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ تَدْرِيجٍ وَتَرْتِيبٍ.

وَ"مِنْ" فِي: ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[1] لِلتَّبْعِيضِ بِشَهَادَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[2]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾[3]؛ وَلِأَنَّ الْمُنَكَّرَيْنِ أَعْنِي: (مَاءً وَرِزْقًا) يَكْتَنِفَانِهِ، وَقَدْ قُصِدَ بِتَنْكِيرِهِمَا مَعْنَى الْبَعْضِيَّةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ بَعْضَ الْمَاءِ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ بَعْضَ الثَّمَرَاتِ؛ لِيَكُونَ بَعْضُ رِزْقِكُمْ، وَهَذَا هُوَ الْمُطَابِقُ لِصِحَّةِ الْمَعْنَى، لِأَنَّهُ لَمْ يُنْزِلْ مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ كُلَّهُ، وَلَا أَخْرَجَ بِالْمَطَرِ جَمِيعَ الثَّمَرَاتِ، وَلَا جَعَلَ الرِّزْقَ كُلَّهُ فِي الثَّمَرَاتِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْبَيَانِ، كَقَوْلِكَ: أَنْفَقْتُ مِنَ الدَّرَاهِمِ أَلْفًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فِيمَ انْتَصَبَ "رِزْقًا"؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَاف، الآية 57.

[3] سورة فَاطِر، الآية 27.

قُلْتُ: إِنْ كَانَتْ "مِنْ" لِلتَّبْعِيضِ كَانَ انْتِصَابُهُ بِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَإِنْ كَانَتْ مَبْنِيَّةً كَانَ مَفْعُولًا لِأَخْرَجَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالثَّمَرُ الْمُخْرَجُ بِمَاءِ السَّمَاءِ كَثِيرٌ جَمٌّ فَلِمَ قِيلَ (الثَّمَرَاتِ) دُونَ الثَّمَرِ وَالثِّمَارِ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقْصَدَ بِالثَّمَرَاتِ جَمَاعَةُ الثَّمَرَةِ الَّتِي فِي قَوْلِكَ: فُلَانٌ أَدْرَكَتْ ثَمَرَةُ بُسْتَانِهِ، تُرِيدُ ثِمَارَهُ، وَنَظِيرَهُ قَوْلُهُمْ: كَلِمَةُ الْحُوَيْدِرَةِ لِقَصِيدَتِهِ، وَقَوْلُهُمْ لِلْقَرْيَةِ: الْمَدَرَةُ، وَإِنَّمَا هِيَ مَدَرٌ مُتَلَاحِقٌ.

– وَالثَّانِي: أَنَّ الْجُمُوعَ يَتَعَاوَرُ بَعْضُهَا مَوْقِعَ بَعْضٍ، لِالْتِقَائِهَا فِي الْجَمْعِيَّةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾[1] وَ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[2].

وَيُعَضِّدُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ قِرَاءَةُ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمَيْقَعُ: (مِنَ الثَّمَرَةِ) عَلَى التَّوْحِيدِ، "لَكُمْ" صِفَةٌ جَارِيَةٌ عَلَى الرِّزْقِ إِنْ أُرِيدَ بِهِ الْعَيْنُ، وَإِنْ جُعِلَ اسْمًا لِلْمَعْنَى فَهُوَ مَفْعُولٌ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: رِزْقًا إِيَّاكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ ﴿فَلا تَجْعَلُوا﴾[3]؟

قُلْتُ: فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْأَمْرِ، أَيِ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ "أَنْدَادًا"، لِأَنَّ أَصْلَ الْعِبَادَةِ وَأَسَاسَهَا التَّوْحِيدُ، وَأَلَّا يُجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَلَا شَرِيكًا، أَوْ بِلَعَلَّ، عَلَى أَنْ يَنْتَصِبَ تَجْعَلُوا انْتِصَابَ "فَاطَّلَعَ" فِي قَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[4] فِي رِوَايَةِ حَفْصٍ عَنْ عَاصِمٍ، أَيْ: خَلَقَكُمْ لِكَيْ تَتَّقُوا وَتَخَافُوا عِقَابَهُ، فَلَا تُشَبِّهُوهُ بِخَلْقِهِ، أَوْ بِ(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ) إِذَا رَفَعْتَهُ عَلَى الِابْتِدَاءِ، أَيْ هُوَ الَّذِي خَصَّكُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالدَّلَائِلِ النَّيِّرَةِ الشَّاهِدَةِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، فَلَا تَتَّخِذُوا لَهُ شُرَكَاءَ، وَالنِّدُّ: الْمِثْلُ، وَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلْمِثْلِ الْمُخَالِفِ الْمُنَاوِئِ.

قَالَ جَرِيرٌ:

---

[1] سورة الدُّخَانِ، الآية 25.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية 228.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة غَافِرٍ، الآيتان 36–37.

أَتَيْمًا يَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا وَمَا تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيـدًا

وَنَادَدْتُ الرَّجُلَ: خَالَفْتُهُ وَنَافَرْتُهُ، مِنْ نَدَّ نُدُودًا إِذَا نَفَرَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: لَيْسَ لِلَّهِ نِدٌّ وَلَا ضِدٌّ نَفْيُ مَا يَسُدُّ مَسَدَّهُ، وَنَفْيُ مَا يُنَافِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانُوا يُسَمُّونَ أَصْنَامَهُمْ بِاسْمِهِ وَيُعَظِّمُونَهَا بِمَا يُعَظَّمُ بِهِ مِنَ الْقُرَبِ، وَمَا كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُخَالِفُ اللَّهَ وَتُنَاوِيهِ؟

قُلْتُ: لَمَّا تَقَرَّبُوا إِلَيْهَا وَعَظَّمُوهَا وَسَمَّوْهَا آلِهَةً أُشْبِهَتْ حَالُهُمْ حَالَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا آلِهَةٌ مِثْلُهُ، قَادِرَةٌ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَمُضَادَّتِهِ، فَقِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، كَمَا تَهَكَّمَ بِهِمْ بِلَفْظِ النِّدِّ، شَنَّعَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَفْظَعَ شَأْنَهُمْ بِأَنْ جَعَلُوا أَنْدَادًا كَثِيرَةً لِمَنْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ نِدٌّ قَطُّ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ حِينَ فَارَقَ دِينَ قَوْمِهِ:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْــفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُــــورُ؟

وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمَيْفَعِ: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدًّا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَحَالُكُمْ وَصِفَتُكُمْ أَنَّكُمْ مِنْ صِحَّةِ تَمْيِيزِكُمْ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِدَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِ الْأَحْوَالِ، وَالْإِصَابَةِ فِي التَّدَابِيرِ، وَالدَّهَاءِ وَالْفِطْنَةِ، بِمَنْزِلٍ لَا تُدْفَعُونَ عَنْهُ، وَهَكَذَا كَانَتِ الْعَرَبُ، خُصُوصًا سَاكِنُو الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ، لَا يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ فِي اسْتِحْكَامِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ وَحُسْنِ الْإِحَاطَةِ بِهَا، وَمَفْعُولُ "تَعْلَمُونَ" مَتْرُوكٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَالتَّوْبِيخُ فِيهِ آكَدُ، أَيْ: أَنْتُمُ الْعَرَّافُونَ الْمُمَيِّزُونَ، ثُمَّ إِنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دِيَانَتِكُمْ مِنْ جَعْلِ الْأَصْنَامِ لِلَّهِ أَنْدَادًا هُوَ غَايَةُ الْجَهْلِ وَنِهَايَةُ سَخَافَةِ الْعَقْلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يُمَاثَلُ، أَوْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ، أَوْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَا تَفْعَلُ مِثْلَ أَفْعَالِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[2].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الرُّوم، الآية 40.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]

لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يُثْبِتُ الْوَحْدَانِيَّةَ وَيُحَقِّقُهَا، وَيُبْطِلُ الْإِشْرَاكَ وَيَهْدِمُهُ، وَعُلِمَ الطَّرِيقُ إِلَى إِثْبَاتِ ذَلِكَ وَتَصْحِيحِهِ، وَعَرَّفَهُمْ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فَقَدْ كَابَرَ عَقْلَهُ، وَغَطَّى عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَتَمْيِيزِهِ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ مَا هُوَ الْحُجَّةُ عَلَى إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَا يَدْحَضُ الشُّبْهَةَ فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ مُعْجِزَةً، وَأَرَاهُمْ كَيْفَ يَتَعَرَّفُونَ أَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ – كَمَا يَدَّعِي – أَمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ كَمَا يَدَّعُونَ، بِإِرْشَادِهِمْ إِلَى أَنْ يَحْزِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَذُوقُوا طِبَاعَهُمْ وَهُمْ أَبْنَاءُ جِنْسِهِ وَأَهْلُ جِلْدَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾[2] عَلَى لَفْظِ "التَّنْزِيلِ" دُونَ "الْإِنْزَالِ"؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمُرَادَ النُّزُولُ عَلَى سَبِيلِ التَّدْرِيجِ وَالتَّنْجِيمِ، وَهُوَ مِنْ مَجَازِهِ لِمَكَانِ التَّحَدِّي، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُخَالِفًا لِمَا يَكُونُ مِنْ عِنْدِ النَّاسِ لَمْ يَنْزِلْ هَكَذَا نُجُومًا سُورَةً بَعْدَ سُورَةٍ وَآيَاتٍ غِبَّ آيَاتٍ، عَلَى حَسَبِ النَّوَازِلِ وَكَفَاءِ الْحَوَادِثِ، وَعَلَى سَنَنِ مَا نَرَى عَلَيْهِ أَهْلَ الْخَطَابَةِ وَالشِّعْرِ، مِنْ وُجُودِ مَا يُوجَدُ مِنْهُمْ مُفَرَّقًا حِينًا فَحِينًا، وَشَيْئًا فَشَيْئًا حَسَبَ مَا يَعِنُّ لَهُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَالْحَاجَاتِ السَّانِحَةِ، لَا يُلْقِي النَّاظِمُ دِيوَانَ شِعْرِهِ دُفْعَةً، وَلَا يَرْمِي النَّاثِرُ بِمَجْمُوعِ خُطَبِهِ أَوْ رَسَائِلِهِ ضَرْبَةً، فَلَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ لَأَنْزَلَهُ خِلَافَ هَذِهِ الْعَادَةِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[3]، فَقِيلَ: إِنِ ارْتَبْتُمْ فِي هَذَا الَّذِي وَقَعَ إِنْزَالُهُ هَكَذَا عَلَى مَهَلٍ وَتَدْرِيجٍ فَهَاتُوا أَنْتُمْ نَوْبَةً وَاحِدَةً مِنْ نُوَبِهِ، وَهَلُمُّوا نَجْمًا فَرْدًا مِنْ نُجُومِهِ، سُورَةً مِنْ أَصْغَرِ السُّوَرِ، أَوْ آيَاتٍ شَتَّى مُفْتَرَيَاتٍ، وَهَذِهِ غَايَةُ التَّبْكِيتِ، وَمُنْتَهَى إِزَاحَةِ الْعِلَلِ، وَقُرِئَ: (عَلَى عِبَادِنَا) يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأُمَّتَهُ.

وَالسُّورَةُ: الطَّائِفَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُتَرْجَمَةُ الَّتِي أَقَلُّهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ، وَوَاوُهَا إِنْ كَانَتْ أَصْلًا، فَإِمَّا أَنْ تُسَمَّى بِسُورَةِ الْمَدِينَةِ وَهِيَ حَائِطُهَا، لِأَنَّهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ مَحْدُودَةٌ مُحَوَّزَةٌ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْفُرْقَان، الآية 32.

عَلَى حِيَالِهَا، كَالْبَلَدِ الْمُسَوَّرِ، أَوْ لِأَنَّهَا مُحْتَوِيَةٌ عَلَى فُنُونٍ مِنَ الْعِلْمِ وَأَجْنَاسٍ مِنَ الْفَوَائِدِ كَاحْتِوَاءِ سُورَةِ الْمَدِينَةِ عَلَى مَا فِيهَا، وَإِمَّا أَنْ تُسَمَّى بِالسُّورَةِ الَّتِي هِيَ الرُّتْبَةُ.

قَالَ النَّابِغَةُ:

وَلِرَهْطِ حَرَّابٍ وَقَدَّ سُورَةٌ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمُطَـــــارِ

لِأَحَدِ مَعْنَيَيْنِ، لِأَنَّ السُّوَرَ بِمَنْزِلَةِ الْمَنَازِلِ وَالْمَرَاتِبِ يَتَرَقَّى فِيهَا الْقَارِئُ، وَهِيَ –أَيْضًا– فِي أَنْفُسِهَا مُتَرَتِّبَةً: طِوَالٌ، وَأَوْسَاطٌ، وَقِصَارٌ، أَوْ لِرِفْعَةِ شَأْنِهَا وَجَلَالَةِ مَحَلِّهَا فِي الدِّينِ، وَإِنْ جُعِلَتْ وَاوُهَا مُنْقَلِبَةً عَنْ هَمْزَةٍ، فَلِأَنَّهَا قِطْعَةٌ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ، كَالسُّورَةِ الَّتِي هِيَ الْبَقِيَّةُ مِنَ الشَّيْءِ وَالْفَضْلَةُ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ تَفْصِيلِ الْقُرْآنِ وَتَقْطِيعِهِ سُورًا؟

قُلْتُ: لَيْسَتِ الْفَائِدَةُ فِي ذَلِكَ وَاحِدَةً، وَلِأَمَرٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَسَائِرَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ مُسَوَّرَةً مُتَرْجَمَةَ السُّوَرِ، وَبَوَّبَ الْمُصَنِّفُونَ فِي كُلِّ فَنٍّ كُتُبَهُمْ أَبْوَابًا مُوَشَّحَةَ الصُّدُورِ بِالتَّرَاجِمِ.

وَمِنْ فَوَائِدِهِ: أَنَّ الْجِنْسَ إِذَا انْطَوَتْ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ، وَاشْتَمَلَ عَلَى أَصْنَافٍ، كَانَ أَحْسَنَ وَأَنْبَلَ وَأَفْخَمَ، مِنْ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا وَاحِدًا، وَمِنْهَا أَنَّ الْقَارِئَ إِذَا خَتَمَ سُورَةً أَوْ بَابًا مِنَ الْكِتَابِ ثُمَّ أَخَذَ فِي آخَرَ كَانَ أَنْشَطَ لَهُ وَأَهَزَّ لِعِطْفِهِ، وَأَبْعَثَ عَلَى الدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ مِنْهُ لَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى الْكِتَابِ بِطُولِهِ، وَمِثْلُهُ الْمُسَافِرُ، إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَطَعَ مِيلًا، أَوْ طَوَى فَرْسَخًا، أَوِ انْتَهَى إِلَى رَأْسِ بَرِيدٍ نَفَّسَ ذَلِكَ مِنْهُ وَنَشَّطَهُ لِلسَّيْرِ، وَمِنْ ثَمَّ جَزَّأَ الْقُرَّاءُ الْقُرْآنَ أَسْبَاعًا، وَأَجْزَاءً، وَعُشُورًا، وَأَخْمَاسًا، وَمِنْهَا أَنَّ الْحَافِظَ إِذَا حَذَقَ السُّورَةَ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ طَائِفَةً مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا لَهَا فَاتِحَةٌ وَخَاتِمَةٌ، فَيَعْظُمُ عِنْدَهُ مَا حَفِظَهُ، وَيُجَلُّ فِي نَفْسِهِ وَيَغْتَبِطُ بِهِ.

وَمِنْهُ حَدِيثُ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا" وَمِنْ ثَمَّةَ كَانَتِ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ بِسُورَةٍ تَامَّةٍ أَفْضَلَ، وَمِنْهَا أَنَّ التَّفْصِيلَ سَبَبُ تَلَاحُقِ الْأَشْكَالِ وَالنَّظَائِرِ وَمُلَاءَمَةِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ، وَبِذَلِكَ تَتَلَاحَظُ الْمَعَانِي وَيَتَجَاوَبُ النَّظْمُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَنَافِعِ.

﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾[1] مُتَعَلِّقٌ بِسُورَةٍ صِفَةً لَهَا، أَيْ: بِسُورَةٍ كَائِنَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَالضَّمِيرُ لِـ﴿مَا نَزَّلْنَا﴾[2] أَوْ لِـ﴿عَبْدِنَا﴾[3]، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأْتُوا﴾[4]، وَالضَّمِيرُ لِلْعَبْدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا مِثْلُهُ حَتَّى يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْمِثْلِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِمَّا هُوَ عَلَى صِفَتِهِ فِي الْبَيَانِ الْغَرِيبِ وَعُلُوِّ الطَّبَقَةِ فِي حُسْنِ النَّظْمِ، أَوْ فَأْتُوا مِمَّنْ هُوَ عَلَى حَالِهِ مِنْ كَوْنِهِ بَشَرًا عَرَبِيًّا أَوْ أُمِّيًّا لَمْ يَقْرَأِ الْكُتُبَ وَلَمْ يَأْخُذْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا قَصْدَ إِلَى مِثْلٍ وَنَظِيرٍ هُنَالِكَ، وَلَكِنَّهُ نَحْوُ قَوْلِ الْقَبَعْثَرِيِّ لِلْحَجَّاجِ، وَقَدْ قَالَ لَهُ: (لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى الْأَدْهَمِ): مِثْلُ الْأَمِيرِ حَمَلَ عَلَى الْأَدْهَمِ وَالْأَشْهَبِ، أَرَادَ مَنْ كَانَ عَلَى صِفَةِ الْأَمِيرِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ، وَلَمْ يَقْصِدْ أَحَدًا يَجْعَلُهُ مِثْلًا لِلْحَجَّاجِ، وَرَدُّ الضَّمِيرِ إِلَى الْمُنَزَّلِ أَوْجَهُ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–:﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾[5]، ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[6]، وَلِأَنَّ الْقُرْآنَ جَدِيرٌ بِسَلَامَةِ التَّرْتِيبِ وَالْوُقُوعِ عَلَى أَصَحِّ الْأَسَالِيبِ، وَالْكَلَامُ مَعَ رَدِّ الضَّمِيرِ إِلَى الْمُنَزَّلِ أَحْسَنُ تَرْتِيبًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَدِيثَ فِي الْمُنَزَّلِ لَا فِي الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَسُوقٌ إِلَيْهِ وَمَرْبُوطٌ بِهِ، فَحَقُّهُ أَلَّا يُفَكَّ عَنْهُ بِرَدِّ الضَّمِيرِ إِلَى غَيْرِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْنَى: وَإِنِ ارْتَبْتُمْ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهَاتُوا أَنْتُمْ نُبَذًا مِمَّا يُمَاثِلُهُ وَيُجَانِسُهُ، وَقَضِيَّةُ التَّرْتِيبِ لَوْ كَانَ الضَّمِيرُ مَرْدُودًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يُقَالَ: وَإِنِ ارْتَبْتُمْ فِي أَنَّ مُحَمَّدًا مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ فَهَاتُوا قُرْآنًا مِنْ مِثْلِهِ؛ وَلِأَنَّهُمْ إِذَا خُوطِبُوا جَمِيعًا –وَهُمُ الْجَمُّ الْغَفِيرُ– بِأَنْ يَأْتُوا بِطَائِفَةٍ يَسِيرَةٍ مِنْ جِنْسِ مَا أَتَى بِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ كَانَ أَبْلَغَ فِي التَّحَدِّي مِنْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لِيَأْتِ وَاحِدٌ آخَرُ بِنَحْوِ مَا أَتَى بِهِ هَذَا الْوَاحِدُ، وَلِأَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ هُوَ الْمُلَائِمُ لِقَوْلِهِ: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾[7].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة هُودَ، الآية 11.

[6] سورة الْإِسْرَاء، الآية 88.

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَالشُّهَدَاءُ جَمْعُ شَهِيدٍ بِمَعْنَى الْحَاضِرِ أَوِ الْقَائِمِ بِالشَّهَادَةِ، وَمَعْنَى "دُونَ" أَدْنَى مِنْ مَكَانٍ مِنَ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ الشَّيْءُ الدُّونُ، وَهُوَ الدَّنِيُّ الْحَقِيرُ، وَدَوَّنَ الْكُتُبَ إِذَا جَمَعَهَا، لِأَنَّ جَمْعَ الْأَشْيَاءِ إِدْنَاءُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْلِيلُ الْمَسَافَةِ بَيْنَهَا، يُقَالُ: هَذَا دُونَ ذَاكَ، إِذَا كَانَ أَحَطَّ مِنْهُ قَلِيلًا، وَدُونَكَ هَذَا: أَصْلُهُ خُذْهُ مِنْ دُونِكَ، أَيْ: مِنْ أَدْنَى مَكَانٍ مِنْكَ، فَاخْتُصِرَ وَاسْتُعِيرَ لِلتَّفَاوُتِ فِي الْأَحْوَالِ وَالرُّتَبِ، فَقِيلَ: زَيْدٌ دُونَ عَمْرٍو فِي الشَّرَفِ وَالْعِلْمِ، وَمِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ لِعَدُوِّهِ وَقَدْ رَاءَاهُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ: أَنَا دُونَ هَذَا وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ، وَاتُّسِعَ فِيهِ فَاسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ تَجَاوُزِ حَدٍّ إِلَى حَدٍّ وَتَخَطِّي حُكْمٍ إِلَى حُكْمٍ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، أَيْ: لَا يَتَجَاوَزُوا وِلَايَةَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى وِلَايَةِ الْكَافِرِينَ، وَقَالَ أُمَيَّةُ:

يَا نَفْسُ مَا لَكِ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَاقِي

أَيْ: إِذَا تَجَاوَزْتِ وِقَايَةَ اللَّهِ وَلَمْ تَنَالِيهَا لَمْ يَقِكِ غَيْرُهُ.

وَ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[2] مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿ادْعُوا﴾[3] أَوْ بِـ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾[4]، فَإِنْ عَلَّقْتَهُ بِـ(شُهَدَاءَكُمْ)، فَمَعْنَاهُ: ادْعُوا الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ، أَوِ ادْعُوا الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، مِنْ قَوْلِ الْأَعْشَى:

تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَـــهُ

أَيْ: تُرِيكَ الْقَذَى قُدَّامَهَا وَهِيَ قُدَّامُ الْقَذَى؛ لِرِقَّتِهَا وَصَفَائِهَا، وَفِي أَمْرِهِمْ أَنْ يَسْتَظْهِرُوا بِالْجَمَادِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ فِي مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ بِفَصَاحَتِهِ غَايَةُ التَّهَكُّمِ بِهِمْ.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[5]، أَيْ: مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِهِ وَمِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَشْهَدُوا لَكُمْ أَنَّكُمْ أَتَيْتُمْ بِمِثْلِهِ، وَهَذَا مِنَ الْمُسَاهَلَةِ وَإِرْخَاءِ الْعِنَانِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ شُهَدَاءَهُمْ –وَهُمْ مُدَارَةُ الْقَوْمِ، الَّذِينَ هُمْ وُجُوهُ الْمَشَاهِدِ وَفُرْسَانُ الْمُقَاوَلَةِ وَالْمُنَاقَلَةِ– تَأْبَى عَلَيْهِمُ الطِّبَاعُ وَتَجْمَحُ بِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْأَنَفَةُ أَنْ يَرْضُوا لِأَنْفُسِهِمُ الشَّهَادَةَ بِصِحَّةِ الْفَاسِدِ الْبَيِّنِ عِنْدَهُمْ فَسَادُهُ وَاسْتِقَامَةِ الْمُحَالِ الْجَلِيِّ فِي عُقُولِهِمْ إِحَالَتُهُ، وَتَعْلِيقُهُ بِالدُّعَاءِ فِي هَذَا الْوَجْهِ جَائِزٌ،

---

[1] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 28.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

وَإِنْ عَلَّقْتَهُ بِالدُّعَاءِ فَمَعْنَاهُ: ادْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُهَدَاءَكُمْ، يَعْنِي لَا تَسْتَشْهِدُوا بِاللَّهِ، وَلَا تَقُولُوا: اللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ مَا نَدَّعِيهِ حَقٌّ، كَمَا يَقُولُهُ الْعَاجِزُ عَنْ إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ، وَادْعُوا الشُّهَدَاءَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ شَهَادَتُهُمْ بَيِّنَةٌ تُصَحَّحُ بِهَا الدَّعَاوَى عِنْدَ الْحُكَّامِ، وَهَذَا تَعْجِيزٌ لَهُمْ وَبَيَانٌ لِانْقِطَاعِهِمْ وَانْخِذَالِهِمْ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ بَهَرَتْهُمْ وَلَمْ تُبْقِ لَهُمْ مُتَشَبَّثًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ: اللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّا صَادِقُونَ، وَقَوْلُهُمْ هَذَا تَسْجِيلٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَنَاهِي الْعَجْزِ وَسُقُوطِ الْقُدْرَةِ.

وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ نَسَبِهِ، فَقَالَ: قُرَشِيٌّ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقِيلَ لَهُ: قَوْلُكَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ" فِي هَذَا الْمَقَامِ رِيبَةٌ، أَوِ ادْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُهَدَاءَكُمْ يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ شَاهِدُكُمْ، لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَهُوَ بَيْنُكُمْ وَبَيْنَ أَعْنَاقِ رَوَاحِلِكُمْ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ شَاهِدُوكُمْ، فَادْعُوا كُلَّ مَنْ يَشْهَدُكُمْ وَاسْتَظْهِرُوا بِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا اللَّهَ -تَعَالَى-، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ دُونَ كُلِّ شَاهِدٍ مِنْ شُهَدَائِكُمْ، فَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾[1] الْآيَةَ.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[2]

لَمَّا أَرْشَدَهُمْ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي مِنْهَا يَتَعَرَّفُونَ أَمْرَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَا جَاءَ بِهِ حَتَّى يَعْثُرُوا عَلَى حَقِيقَتِهِ وَسِرِّهِ وَامْتِيَازِ حَقِّهِ مِنْ بَاطِلِهِ، قَالَ لَهُمْ: فَإِذَا لَمْ تُعَارِضُوهُ، وَلَمْ يَتَسَهَّلْ لَكُمْ مَا تَبْغُونَ، وَبَانَ لَكُمْ أَنَّهُ مَعْجُوزٌ عَنْهُ، فَقَدْ صَرَّحَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ وَوَجَبَ التَّصْدِيقُ، فَآمِنُوا وَخَافُوا الْعَذَابَ الْمُعَدَّ لِمَنْ كَذَّبَ، وَفِيهِ دَلِيلَانِ عَلَى إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ: صِحَّةُ كَوْنِ الْمُتَحَدَّى بِهِ مُعْجِزًا، وَالْإِخْبَارُ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَفْعَلُوا وَهُوَ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: انْتِفَاءُ إِتْيَانِهِمْ بِالسُّورَةِ وَاجِبٌ، فَهَلَّا جِيءَ بِـ"إِذَا" الَّذِي لِلْوُجُوبِ دُونَ: "إِنِ" الَّذِي لِلشَّكِّ.

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

---

[1] سورة الْإِسْرَاءِ، الآية 88.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يُسَاقَ الْقَوْلُ مَعَهُمْ عَلَى حَسَبِ حُسْبَانِهِمْ وَطَمَعِهِمْ، وَأَنَّ الْعَجْزَ عَنِ الْمُعَارَضَةِ كَانَ قَبْلَ التَّأَمُّلِ، كَالْمَشْكُوكِ فِيهِ لَدَيْهِمْ لِاتِّكَالِهِمْ عَلَى فَصَاحَتِهِمْ وَاقْتِدَارِهِمْ عَلَى الْكَلَامِ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَتَهَكَّمَ بِهِمْ كَمَا يَقُولُ الْمَوْصُوفُ بِالْقُوَّةِ الْوَاثِقُ مِنْ نَفْسِهِ بِالْغَلَبَةِ عَلَى مَنْ يُقَاوِيهِ: إِنْ غَلَبْتُكَ لَمْ أُبْقِ عَلَيْكَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَالِبُهُ وَيَتَيَقَّنُهُ؛ تَهَكُّمًا بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ عُبِّرَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْفِعْلِ، وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي تَرْكِهِ إِلَيْهِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ فِعْلٌ مِنَ الْأَفْعَالِ، تَقُولُ: أَتَيْتُ فَلَانًا، فَيُقَالُ لَكَ: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ، وَالْفَائِدَةُ فِيهِ: أَنَّهُ جَارٍ مَجْرَى الْكِنَايَةِ الَّتِي تُعْطِيكَ اخْتِصَارًا وَوَجَازَةً تُغْنِيكَ عَنْ طُولِ الْمُكَنَّى عَنْهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ: ضَرَبْتُ زَيْدًا فِي مَوْضِعِ كَذَا عَلَى صِفَةِ كَذَا، وَشَتَمْتُهُ وَنَكَّلْتُ بِهِ، وَيَعُدُّ كَيْفِيَّاتٍ وَأَفْعَالًا، فَتَقُولُ: بِئْسَمَا فَعَلْتَ، وَلَوْ ذَكَرْتَ مَا أَنَّبْتَهُ عَنْهُ لَطَالَ عَلَيْكَ، وَكَذَلِكَ لَوْ لَمْ يُعْدَلْ عَنْ لَفْظِ الْإِتْيَانِ إِلَى لَفْظِ الْفِعْلِ لَاسْتُطِيلَ أَنْ يُقَالَ: فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَلَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[1] مَا مَحَلُّهَا؟

قُلْتُ: لَا مَحَلَّ لَهَا، لِأَنَّهَا جُمْلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا حَقِيقَةُ: "لَنْ" فِي بَابِ النَّفْيِ؟

قُلْتُ: "لَا"، وَ"لَنْ" أُخْتَانِ فِي نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، إِلَّا أَنَّ فِي "لَنْ" تَوْكِيدًا وَتَشْدِيدًا، تَقُولُ لِصَاحِبِكَ: لَا أُقِيمُ غَدًا، فَإِنْ أَنْكَرَ عَلَيْكَ قُلْتَ: لَنْ أُقِيمَ غَدًا، كَمَا تَفْعَلُ فِي: أَنَا مُقِيمٌ، وَإِنِّي مُقِيمٌ، وَهِيَ عِنْدُ الْخَلِيلِ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ أَصْلُهَا، "لَا أَنْ"، وَعِنْدَ الْفَرَّاءِ: "لَا" أُبْدِلَتْ أَلِفُهَا نُونًا، وَعِنْدَ سِيبَوَيْهِ وَإِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنِ الْخَلِيلِ: حَرْفٌ مُقْتَضَبٌ لِتَأْكِيدِ نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّهُ إِخْبَارٌ بِالْغَيْبِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ حَتَّى يَكُونَ مُعْجِزَةً؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ لَوْ عَارَضُوهُ بِشَيْءٍ لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَتَوَاصَفَهُ النَّاسُ وَيَتَنَاقَلُوهُ، إِذْ خَفَاءُ مِثْلِهِ فِيمَا عَلَيْهِ مَبْنَى الْعَادَةِ مُحَالٌ، لَا سِيَّمَا وَالطَّاعِنُونَ فِيهِ أَكْثَفُ عَدَدًا مِنَ الذَّابِّينَ عَنْهُ، فَحِينَ لَمْ يُنْقَلْ عُلِمَ أَنَّهُ إِخْبَارٌ بِالْغَيْبِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ فَكَانَ مُعْجِزَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى اشْتِرَاطِهِ فِي اتِّقَاءِ النَّارِ انْتِفَاءَ إِتْيَانِهِمْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قُلْتُ: إِنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَأْتُوا بِهَا وَتَبَيَّنَ عَجْزُهُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ صَحَّ عِنْدَهُمْ صِدْقُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَإِذَا صَحَّ عِنْدَهُمْ صِدْقُهُ ثُمَّ لَزِمُوا الْعِنَادَ وَلَمْ يَنْقَادُوا وَلَمْ يُشَايِعُوا اسْتَوْجَبُوا الْعِقَابَ بِالنَّارِ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنِ اسْتَبَنْتُمُ الْعَجْزَ فَاتْرُكُوا الْعِنَادَ، فَوُضِعَ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾[1] مَوْضِعَهُ، لِأَنَّ اتِّقَاءَ النَّارِ لَصِيقُهُ وَضَمِيمُهُ تَرْكُ الْعِنَادِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مِنْ نَتَائِجِهِ، لِأَنَّ مَنِ اتَّقَى النَّارَ تَرَكَ الْمُعَانَدَةَ، وَنَظِيرُهُ أَنْ يَقُولَ الْمَلِكُ لِحَشَمِهِ: إِنْ أَرَدْتُمُ الْكَرَامَةَ عِنْدِي فَاحْذَرُوا سُخْطِي، يُرِيدُ: فَأَطِيعُونِي وَاتَّبِعُوا أَمْرِي، وَافْعَلُوا مَا هُوَ نَتِيجَةُ حَذَرِ السُّخْطِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ الَّتِي هِيَ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْبَلَاغَةِ، وَفَائِدَتُهُ الْإِيجَازُ الَّذِي هُوَ مِنْ حِلْيَةِ الْقُرْآنِ، وَتَهْوِيلُ شَأْنِ الْعِنَادِ بِإِنَابَةِ اتِّقَاءِ النَّارِ مَنَابَهُ وَإِبْرَازِهِ فِي صُورَتِهِ، مُشَيِّعًا ذَلِكَ بِتَهْوِيلِ صِفَةِ النَّارِ وَتَفْظِيعِ أَمْرِهَا.

وَالْوَقُودُ: مَا تُرْفَعُ بِهِ النَّارُ.

وَأَمَّا الْمَصْدَرُ فَمَضْمُومٌ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ الْفَتْحُ.

قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَسَمِعْنَا مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: وَقَدْتُ النَّارَ وَقُودًا عَالِيًا، ثُمَّ قَالَ: وَالْوُقُودُ أَكْثَرُ، وَالْوَقُودُ الْحَطَبُ، وَقَرَأَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ الْهَمْدَانِيُّ -بِالضَّمِّ- تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ فَخْرُ قَوْمِهِ وَزَيْنُ بَلَدِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ قَوْلِكَ: حَيَاةُ الْمِصْبَاحِ السَّلِيطُ، أَيْ: لَيْسَ حَيَاتُهُ إِلَّا بِهِ ، فَكَأَنَّ نَفْسَ السَّلِيطِ حَيَاتُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: صِلَةُ "الَّذِي" وَ"الَّتِي" يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قِصَّةً مَعْلُومَةً لِلْمُخَاطَبِ، فَكَيْفَ عَلِمَ أُولَئِكَ أَنَّ نَارَ الْآخِرَةِ تُوقَدُ بِالنَّاسِ وَالْحِجَارَةِ؟

قُلْتُ: لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَقَدَّمَ لَهُمْ بِذَلِكَ سَمَاعٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ سَمِعُوا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَهُ -تَعَالَى- فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جَاءَتِ النَّارُ الْمَوْصُوفَةُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مُنَكَّرَةً فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ، وَهَهُنَا مَعْرِفَةً؟

قُلْتُ: تِلْكَ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، فَعَرَفُوا مِنْهَا نَارًا مَوْصُوفَةً بِهَذِهِ الصِّفَةِ، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ بِالْمَدِينَةِ، مُشَارًا بِهَا إِلَى مَا عَرَفُوهُ أَوَّلًا.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة التَّحْرِيم، الآية 6.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهَا نَارٌ مُمْتَازَةٌ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ النِّيرَانِ، بِأَنَّهَا لَا تَتَّقِدُ إِلَّا بِالنَّاسِ وَالْحِجَارَةِ، وَبِأَنَّ غَيْرَهَا إِنْ أُرِيدَ إِحْرَاقُ النَّاسِ بِهَا أَوْ إِحْمَاءُ الْحِجَارَةِ أُوقِدَتْ أَوَّلًا بِوَقُودٍ ثُمَّ طُرِحَ فِيهَا مَا يُرَادُ إِحْرَاقُهُ أَوْ إِحْمَاؤُهُ، وَتِلْكَ –أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ– تُوقَدُ بِنَفْسِ مَا يُحْرَقُ وَيُحْمَى بِالنَّارِ، وَبِأَنَّهَا لِإِفْرَاطِ حَرِّهَا وَشِدَّةِ ذَكَائِهَا إِذَا اتَّصَلَتْ بِمَا لَا تَشْتَعِلُ بِهِ نَارٌ اشْتَعَلَتْ وَارْتَفَعَ لَهَبُهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: أَنَارُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا مُوقَدَةٌ بِالنَّاسِ وَالْحِجَارَةِ، أَمْ هِيَ نِيرَانٌ شَتَّى مِنْهَا نَارٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ؟

قُلْتُ: بَلْ هِيَ نِيرَانٌ شَتَّى، مِنْهَا نَارٌ تُوقَدُ بِالنَّاسِ وَالْحِجَارَةِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَنْكِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى–: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2]، ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾[3].

وَلَعَلَّ لِكُفَّارِ الْجِنِّ وَشَيَاطِينِهِمْ نَارًا وَقُودُهَا الشَّيَاطِينُ، كَمَا أَنَّ لِكَفَرَةِ الْإِنْسِ نَارًا وَقُودُهَا هُمْ؛ جَزَاءً لِكُلِّ جِنْسٍ بِمَا يُشَاكِلُهُ مِنَ الْعَذَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قُرِنَ النَّاسُ بِالْحِجَارَةِ وَجُعِلَتِ الْحِجَارَةُ مَعَهُمْ وَقُودًا؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ قَرَنُوا بِهَا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ نَحَتُوهَا أَصْنَامًا وَجَعَلُوهَا لِلَّهِ أَنْدَادًا، أَوْ عَبَدُوهَا مِنْ دُونِهِ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[4].

وَهَذِهِ الْآيَةُ مُفَسِّرَةٌ لِمَا نَحْنُ فِيهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[5] فِي مَعْنَى النَّاسِ وَالْحِجَارَةِ، وَ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[6] فِي مَعْنَى وَقُودِهَا.

وَلَمَّا اعْتَقَدَ الْكُفَّارُ فِي حِجَارَتِهِمُ الْمَعْبُودَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَّهَا الشُّفَعَاءُ وَالشُّهَدَاءُ الَّذِينَ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِمْ وَيَسْتَدْفِعُونَ الْمَضَارَّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَكَانِهِمْ جَعَلَهَا اللَّهُ عَذَابَهُمْ، فَقَرَنَهُمْ بِهَا مُحْمَاةً فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ إِبْلَاغًا فِي إِيلَامِهِمْ وَإِغْرَاقًا فِي تَحْسِيرِهِمْ، وَنَحْوُهُمْ مَا يَفْعَلُهُ بِالْكَانِزِينَ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة التَّحْرِيم، الآية 6.

[3] سورة اللَّيْل، الآية 14.

[4] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 98.

[5] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 98.

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

الَّذِينَ جَعَلُوا ذَهَبَهُمْ وَفِضَّتَهُمْ عِدَّةً وَذَخِيرَةً فَشَحُّوا بِهَا وَمَنَعُوهَا مِنَ الْحُقُوقِ، حَيْثُ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ.

وَقِيلَ: هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ، وَهُوَ تَخْصِيصٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، وَذَهَابٌ عَمَّا هُوَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ الْوَاقِعُ الْمَشْهُودُ لَهُ بِمَعَانِي التَّنْزِيلِ.

﴿أُعِدَّتْ﴾[1]، هُيِّئَتْ لَهُمْ وَجُعِلَتْ عُدَّةً لِعَذَابِهِمْ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (أَعْتَدْتُ) مِنَ الْعَتَادِ بِمَعْنَى الْعُدَّةِ.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ
كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ
وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]

مِنْ عَادَتِهِ –عَزَّ وَجَلَّ– فِي كِتَابِهِ أَنْ يَذْكُرَ التَّرْغِيبَ مَعَ التَّرْهِيبِ، وَيَشْفَعَ الْبِشَارَةَ بِالْإِنْذَارِ؛ إِرَادَةَ التَّنْشِيطِ، لِاكْتِسَابِ مَا يُزْلِفُ، وَالتَّثْبِيطِ عَنِ اقْتِرَافِ مَا يُتْلِفُ، فَلَمَّا ذَكَرَ الْكُفَّارَ وَأَعْمَالَهُمْ وَأَوْعَدَهُمْ بِالْعِقَابِ قَفَّاهُ بِبِشَارَةِ عِبَادِهِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ التَّصْدِيقِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي، وَحَمَوْهَا مِنَ الْإِحْبَاطِ بِالْكُفْرِ وَالْكَبَائِرِ بِالثَّوَابِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَنِ الْمَأْمُورُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: "وَبَشِّرْ"؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ أَحَدٍ، كَمَا قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ وَاحِدًا بِعَيْنِهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ أَحَدٍ مَأْمُورٍ بِهِ، وَهَذَا الْوَجْهُ أَحْسَنُ وَأَجْزَلُ، لِأَنَّهُ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْأَمْرَ لِعِظَمِهِ وَفَخَامَةِ شَأْنِهِ مَحْقُوقٌ بِأَنْ يُبَشِّرَ بِهِ كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبِشَارَةِ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عُطِفَ هَذَا الْأَمْرُ وَلَمْ يَسْبِقْ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَصِحُّ عَطْفُهُ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: لَيْسَ الَّذِي اعْتُمِدَ بِالْعَطْفِ هُوَ الْأَمْرُ حَتَّى يُطْلَبَ لَهُ مُشَاكِلٌ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ يُعْطَفُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا الْمُعْتَمَدُ بِالْعَطْفِ هُوَ جُمْلَةُ وَصْفِ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

جُمْلَةِ وَصْفِ عِقَابِ الْكَافِرِينَ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ يُعَاقَبُ بِالْقَيْدِ وَالْإِرْهَاقِ، وَبَشِّرْ عَمْرًا بِالْعَفْوِ وَالْإِطْلَاقِ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: "فَاتَّقُوا" كَمَا تَقُولُ: يَا بَنِي تَمِيمٍ احْذَرُوا عُقُوبَةَ مَا جَنَيْتُمْ، وَبَشِّرْ يَا فُلَانُ بَنِي أَسَدٍ بِإِحْسَانِي إِلَيْهِمْ، وَفِي قِرَاءَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: (وَبُشِّرَ) عَلَى لَفْظِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ عَطْفًا عَلَى "أُعِدَّتْ".

وَالْبِشَارَةُ: الْإِخْبَارُ مِمَّا يُظْهِرُ سُرُورَ الْمُخْبَرِ بِهِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِذَا قَالَ لِعَبِيدِهِ: أَيُّكُمْ بَشَّرَنِي بِقُدُومِ فُلَانٍ فَهُوَ حُرٌّ، فَبَشَّرُوهُ فُرَادَى، عَتَقَ أَوَّلُهُمْ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَظْهَرَ سُرُورَهُ بِخَبَرِهِ دُونَ الْبَاقِينَ، وَلَوْ قَالَ مَكَانَ "بَشَّرَنِي" "أَخْبَرَنِي": عَتَقُوا جَمِيعًا، لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا أَخْبَرُوهُ، وَمِنْهُ: الْبَشَرَةُ لِظَاهِرِ الْجِلْدِ، وَتَبَاشِيرُ الصُّبْحِ: مَا ظَهَرَ مِنْ أَوَائِلِ ضَوْئِهِ.

وَأَمَّا، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، فَمِنَ الْعَكْسِ فِي الْكَلَامِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الِاسْتِهْزَاءُ الزَّائِدُ فِي غَيْظِ الْمُسْتَهْزَأِ بِهِ وَتَأَلُّمِهِ وَاغْتِمَامِهِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِعَدُوِّهِ: أَبْشِرْ بِقَتْلِ ذَرِّيَّتِكَ وَنَهْبِ مَالِكَ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلَـــــــــــمِ

وَالصَّالِحَةُ نَحْوُ الْحَسَنَةِ فِي جَرْيِهَا مَجْرَى الِاسْمِ.

قَالَ الْحُطَيْئَةُ:

كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ مِنْ آلِ لَأْمٍ بِظَهْرِ الْغَيْبِ تَأْتِينِي

وَالصَّالِحَاتُ: كُلُّ مَا اسْتَقَامَ مِنَ الْأَعْمَالِ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاللَّامُ لِلْجِنْسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ لَامِ الْجِنْسِ دَاخِلَةً عَلَى الْمُفْرَدِ، وَبَيْنَهَا دَاخِلَةً عَلَى الْمَجْمُوعِ؟

قُلْتُ: إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْمُفْرَدِ كَانَ صَالِحًا لِأَنْ يُرَادَ بِهِ الْجِنْسُ إِلَى أَنْ يُحَاطَ بِهِ، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ بَعْضُهُ إِلَى الْوَاحِدِ مِنْهُ، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْمَجْمُوعِ صَلُحَ أَنْ يُرَادَ بِهِ جَمِيعُ الْجِنْسِ، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ بَعْضُهُ لَا إِلَى الْوَاحِدِ مِنْهُ، لِأَنَّ وِزَانَهُ فِي تَنَاوُلِ الْجَمْعِيَّةِ فِي الْجِنْسِ وِزَانُ الْمُفْرَدِ فِي تَنَاوُلِ الْجِنْسِيَّةِ، وَالْجَمْعِيَّةُ فِي جُمَلِ الْجِنْسِ لَا فِي وِحْدَانِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْمُرَادُ بِهَذَا الْمَجْمُوعِ مَعَ اللَّامِ؟

قُلْتُ: الْجُمْلَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي الدِّينِ عَلَى حَسَبِ حَالِ الْمُؤْمِنِ فِي مَوَاجِبِ التَّكْلِيفِ.

---

[1] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 21.

وَالْجَنَّةُ: الْبُسْتَانُ مِنَ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ الْمُتَكَاثِفُ الْمُظَلِّلُ بِالْتِفَافِ أَغْصَانِهِ.

قَالَ زُهَيْرٌ:

تَسْقِي جَنَّةً سُحُقًّـــــــــــا

أَيْ نَخْلًا طِوَالًا، وَالتَّرْكِيبُ دَائِرٌ عَلَى مَعْنَى السَّتْرِ، وَكَأَنَّهَا لِتَكَاثُفِهَا وَتَظْلِيلِهَا سُمِّيَتْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ الْمَرَّةُ مِنْ مَصْدَرِ جَنَّهُ إِذَا سَتَرَهُ، كَأَنَّهَا سُتْرَةٌ وَاحِدَةٌ لِفَرْطِ الْتِفَافِهَا، وَسُمِّيَتْ دَارُ الثَّوَابِ: "جَنَّةً" لِمَا فِيهَا مِنَ الْجِنَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْجَنَّةُ مَخْلُوقَةٌ أَمْ لَا؟

قُلْتُ: قَدِ اخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ، وَالَّذِي يَقُولُ إِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ يَسْتَدِلُّ بِسُكْنَى آدَمَ وَحَوَّاءَ الْجَنَّةَ وَبِمَجِيئِهَا فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَهْجِ الْأَسْمَاءِ الْغَالِبَةِ اللَّاحِقَةِ بِالْأَعْلَامِ، كَالنَّبِيِّ وَالرَّسُولِ وَالْكِتَابِ وَنَحْوِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى جَمْعِ الْجَنَّةِ وَتَنْكِيرِهَا؟

قُلْتُ: الْجَنَّةُ اسْمٌ لِدَارِ الثَّوَابِ كُلِّهَا، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى جِنَانٍ كَثِيرَةٍ مُرَتَّبَةٍ مَرَاتِبَ عَلَى حَسَبِ اسْتِحْقَاقَاتِ الْعَامِلِينَ، لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهُمْ جَنَّاتٍ مِنْ تِلْكَ الْجِنَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا يُشْتَرَطُ فِي اسْتِحْقَاقِ الثَّوَابِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَلَّا يُحْبِطَهُمَا الْمُكَلَّفُ بِالْكُفْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى الْكَبَائِرِ، وَأَلَّا يَنْدَمَ عَلَى مَا أَوْجَدَهُ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ وَتَرْكِ الْمَعْصِيَةِ؟ فَهَلَّا شُرِطَ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: لَمَّا جُعِلَ الثَّوَابُ مُسْتَحَقًّا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْبِشَارَةُ مُخْتَصَّةً بِمَنْ يَتَوَلَّاهُمَا، وَرَكَزَ فِي الْعُقُولِ أَنَّ الْإِحْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ عَلَيْهِ الْمَثُوبَةَ وَالثَّنَاءَ، إِذَا لَمْ يَتَعَقَّبْهُ بِمَا يُفْسِدُهُ وَيَذْهَبُ بِحُسْنِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى مَعَ وُجُودِ مُفْسِدِهِ إِحْسَانًا.

وَأَعْلَمَ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى– لِنَبِيِّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَهُوَ أَكْرَمُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَعَزُّهُمْ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1].

وَقَالَ –تَعَالَى– لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾[2]، كَانَ اشْتِرَاطُ حِفْظِهِمَا مِنَ الْإِحْبَاطِ وَالنَّدَمِ كَالدَّاخِلِ تَحْتَ الذِّكْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صُورَةُ جَرْيِ الْأَنْهَارِ مِنْ تَحْتِهَا؟

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية 65.

[2] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 2.

قُلْتُ: كَمَا تَرَى الْأَشْجَارَ النَّابِتَةَ عَلَى شَوَاطِئِ الْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، وَعَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ، وَأَنْزَهُ الْبَسَاتِينِ وَأَكْرَمُهَا مَنْظَرًا مَا كَانَتْ أَشْجَارُهُ مُظَلِّلَةً، وَالْأَنْهَارُ فِي خِلَالِهَا مُطَّرِدَةٌ.

وَلَوْلَا أَنَّ الْمَاءَ الْجَارِيَ مِنَ النِّعْمَةِ الْعُظْمَى وَاللَّذَّةِ الْكُبْرَى، وَأَنَّ الْجِنَانَ وَالرِّيَاضَ –وَإِنْ كَانَتْ آنَقَ شَيْءٍ وَأَحْسَنَهُ– لَا تَرُوقُ النَّوَاظِرَ وَلَا تُبْهِجُ الْأَنْفُسَ وَلَا تَجْلِبُ الْأَرْيَحِيَّةَ وَالنَّشَاطَ حَتَّى يَجْرِيَ فِيهَا الْمَاءُ، وَإِلَّا كَانَ الْأُنْسُ الْأَعْظَمُ فَائِتًا، وَالسُّرُورُ الْأَوْفَرُ مَفْقُودًا، وَكَانَتْ كَتَمَاثِيلَ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا، وَصُوَرٍ لَا حَيَاةَ لَهَا، لَمَا جَاءَ اللَّهُ –تَعَالَى– بِذِكْرِ الْجَنَّاتِ مَشْفُوعًا بِذِكْرِ الْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ مِنْ تَحْتِهَا، مَسُوقَيْنِ عَلَى قَرْنٍ وَاحِدٍ كَالشَّيْئَيْنِ لَا بُدَّ لِأَحَدِهِمَا مِنْ صَاحِبِهِ، وَلَمَا قَدَّمَهُ عَلَى سَائِرِ نُعُوتِهَا.

وَالنَّهَرُ: الْمَجْرَى الْوَاسِعُ فَوْقَ الْجَدْوَلِ وَدُونَ الْبَحْرِ، يُقَالُ لِبَرَدَى: نَهَرُ دِمَشْقَ، وَلِلنِّيلِ: نَهَرُ مِصْرَ، وَاللُّغَةُ الْعَالِيَةُ: "النَّهَرُ" بِفَتْحِ الْهَاءِ، وَمَدَارُ التَّرْكِيبِ عَلَى السَّعَةِ، وَإِسْنَادُ الْجَرْيِ إِلَى الْأَنْهَارِ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ كَقَوْلِهِمْ: بَنُو فُلَانٍ يَطَؤُهُمُ الطَّرِيقُ، وَصِيدَ عَلَيْهِ يَوْمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نُكِّرَتِ الْجَنَّاتُ وَعُرِّفَتِ الْأَنْهَارُ؟

قُلْتُ: أَمَّا تَنْكِيرُ الْجَنَّاتِ فَقَدْ ذُكِرَ، وَأَمَّا تَعْرِيفُ الْأَنْهَارِ فَأَنْ يُرَادَ الْجِنْسُ، كَمَا تَقُولُ: لِفُلَانٍ بُسْتَانٌ فِيهِ الْمَاءُ الْجَارِي وَالتِّينُ وَالْعِنَبُ وَأَلْوَانُ الْفَوَاكِهِ، تُشِيرُ إِلَى الْأَجْنَاسِ الَّتِي فِي عِلْمِ الْمُخَاطَبِ، أَوْ يُرَادَ أَنْهَارُهَا، فَعَوَّضَ التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ مِنْ تَعْرِيفِ الْإِضَافَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[1] أَوْ يُشَارَ بِاللَّامِ إِلَى الْأَنْهَارِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾[2] الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾[3]، لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ صِفَةً ثَانِيَةً لِجَنَّاتٍ، أَوْ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَوْ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً، لِأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: إِنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ لَمْ يَخْلُ خَلَدُ السَّامِعِ أَنْ يَقَعَ فِيهِ: أَثْمَارُ تِلْكَ الْجَنَّاتِ أَشْبَاهُ ثِمَارِ جَنَّاتِ الدُّنْيَا، أَمْ أَجْنَاسٌ أُخَرُ لَا تُشَابِهُ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ؟ فَقِيلَ: إِنَّ ثِمَارَهَا أَشْبَاهُ ثِمَارِ جَنَّاتِ الدُّنْيَا، أَيْ: أَجْنَاسُهَا أَجْنَاسُهَا، وَإِنْ تَفَاوَتَتْ إِلَى غَايَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ.

---

[1] سورة مَرْيَمَ، الآية 4.

[2] سورة مُحَمَّدٍ، الآية 15.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَوْقِعُ: ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾[1]؟

قُلْتُ: هُوَ كَقَوْلِكَ: كُلَّمَا أَكَلْتُ مِنْ بُسْتَانِكَ مِنَ الرُّمَّانِ شَيْئًا حَمِدْتُكَ، فَمَوْقِعُ: ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾[2] مَوْقِعُ قَوْلِكَ: مِنَ الرُّمَّانِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كُلَّمَا رُزِقُوا مِنَ الْجَنَّاتِ مِنْ أَيِّ ثَمَرَةٍ كَانَتْ مِنْ تُفَّاحِهَا أَوْ رُمَّانِهَا أَوْ عِنَبِهَا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ رِزْقًا قَالُوا ذَلِكَ، فَ(مِنْ) الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ كِلْتَاهُمَا لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، لِأَنَّ الرِّزْقَ قَدِ ابْتُدِئَ مِنَ الْجَنَّاتِ، وَالرِّزْقُ مِنَ الْجَنَّاتِ قَدِ ابْتُدِئَ مِنْ ثَمَرِهِ، وَتَنْزِيلُهُ تَنْزِيلُ أَنْ تَقُولَ: رَزَقَنِي فُلَانٌ، فَيُقَالُ لَكَ: مِنْ أَيْنَ؟ فَتَقُولُ: مِنْ بُسْتَانِهِ، فَيُقَالُ: مِنْ أَيِّ ثَمَرَةٍ رَزَقَكَ مِنْ بُسْتَانِهِ؟ فَتَقُولُ: مِنْ رُمَّانٍ، وَتَحْرِيرُهُ أَنَّ "رُزِقُوا": جُعِلَ مُطْلَقًا مُبْتَدَأً مِنْ ضَمِيرِ الْجَنَّاتِ، ثُمَّ جُعِلَ مُقَيَّدًا بِالِابْتِدَاءِ مِنْ ضَمِيرِ الْجَنَّاتِ، مُبْتَدَأً مِنْ ثَمَرَةٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالثَّمَرَةِ التُّفَّاحَةَ الْوَاحِدَةَ أَوِ الرُّمَّانَةَ الْفَذَّةَ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ النَّوْعُ مِنْ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ.

وَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾[3]: بَيَانًا عَلَى مِنْهَاجِ قَوْلِكَ: رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا، تُرِيدُ أَنْتَ أَسَدٌ، وَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِالثَّمَرَةِ النَّوْعَ مِنَ الثِّمَارِ، وَالْجَنَّاتِ الْوَاحِدَةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾[4]؟ وَكَيْفَ تَكُونُ ذَاتُ الْحَاضِرِ عِنْدَهُمْ فِي الْجَنَّةِ هِيَ ذَاتَ الَّذِي رُزِقُوهُ فِي الدُّنْيَا؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ هَذَا مِثْلُ الَّذِي رُزِقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَشِبْهُهُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[5]، وَهَذَا كَقَوْلِكَ: أَبُو يُوسُفَ أَبُو حَنِيفَةَ ، تُرِيدُ أَنَّهُ لِاسْتِحْكَامِ الشَّبَهِ كَأَنَّ ذَاتَهُ ذَاتُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِلَامَ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾[6]؟

قُلْتُ: إِلَى الْمَرْزُوقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾[7]: انْطَوَى تَحْتَهُ ذِكْرُ مَا رُزِقُوهُ فِي الدَّارَيْنِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية .

2 سورة الْبَقَرَة، الآية .

3 سورة الْبَقَرَة، الآية .

4 سورة الْبَقَرَة، الآية .

5 سورة الْبَقَرَة، الآية .

6 سورة الْبَقَرَة، الآية .

7 سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَوْلَى بِهِمَا﴾[1]، أَيْ بِجِنْسَيِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا عَلَى الْجِنْسَيْنِ، وَلَوْ رَجَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْمُتَكَلَّمِ بِهِ، لَقِيلَ: (أَوْلَى بِهِ) عَلَى التَّوْحِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِأَيِّ غَرَضٍ يَتَشَابَهُ ثَمَرُ الدُّنْيَا وَثَمَرُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ ثَمَرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَكُنْ أَجْنَاسًا أُخَرَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِالْمَأْلُوفِ آنَسُ، وَإِلَى الْمَعْهُودِ أَمْيَلُ، وَإِذَا رَأَى مَا لَمْ يَأْلَفْهُ نَفَرَ عَنْهُ طَبْعُهُ وَعَافَتْهُ نَفْسُهُ، وَلِأَنَّهُ إِذَا ظَفِرَ بِشَيْءٍ مِنْ جِنْسِ مَا سَلَفَ لَهُ بِهِ عَهْدٌ وَتَقَدَّمَ مَعَهُ أَلْفٌ، وَرَأَى فِيهِ مِزِيَّةً ظَاهِرَةً، وَفَضِيلَةً بَيِّنَةً، وَتَفَاوُتًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا عَهِدَ بَلِيغًا، أَفْرَطَ ابْتِهَاجُهُ وَاغْتِبَاطُهُ، وَطَالَ اسْتِعْجَابُهُ وَاسْتِغْرَابُهُ، وَتَبَيَّنَ كُنْهَ النِّعْمَةِ فِيهِ، وَتَحَقَّقَ مِقْدَارَ الْغِبْطَةِ بِهِ، وَلَوْ كَانَ جِنْسًا لَمْ يَعْهَدْهُ –وَإِنْ كَانَ فَائِقًا– حَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ الْجِنْسَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ، فَلَا يَتَبَيَّنُ مَوْقِعَ النِّعْمَةِ حَقَّ التَّبَيُّنِ، فَحِينَ أَبْصَرُوا الرُّمَّانَةَ مِنْ رُمَّانِ الدُّنْيَا وَمَبْلَغَهَا فِي الْحَجْمِ، وَأَنَّ الْكُبْرَى لَا تَفْضُلُ عَنْ حَدِّ الْبِطِّيخَةِ الصَّغِيرَةِ.

ثُمَّ يُبْصِرُونَ رُمَّانَةَ الْجَنَّةِ تُشْبِعُ السَّكَنَ، وَالنَّبْقَةَ مِنْ نَبْقِ الدُّنْيَا فِي حَجْمِ الْفَلْكَةِ.

ثُمَّ يَرَوْنَ نَبْقَ الْجَنَّةِ كَقِلَالِ هَجَرَ، كَمَا رَأَوْا ظِلَّ الشَّجَرَةِ مِنْ شَجَرِ الدُّنْيَا وَقَدْرَ امْتِدَادِهِ.

ثُمَّ يَرَوْنَ الشَّجَرَةَ فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهُ، كَانَ ذَلِكَ أَبْيَنَ لِلْفَضْلِ، وَأَظْهَرَ لِلْمَزِيَّةِ، وَأَجْلَبَ لِلسُّرُورِ، وَأَزْيَدَ فِي التَّعَجُّبِ مِنْ أَنْ يُفَاجَئُوا ذَلِكَ الرُّمَّانَ وَذَلِكَ النَّبْقَ مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ سَابِقٍ بِجِنْسِهِمَا، وَتَرْدِيدُهُمْ هَذَا الْقَوْلَ وَنُطْقُهُمْ بِهِ عِنْدَ كُلِّ ثَمَرَةٍ يُرْزَقُونَهَا دَلِيلٌ عَلَى تَنَاهِي الْأَمْرِ وَتَمَادِي الْحَالِ فِي ظُهُورِ الْمَزِيَّةِ وَتَمَامِ الْفَضِيلَةِ، وَعَلَى أَنَّ ذَلِكَ التَّفَاوُتَ الْعَظِيمَ هُوَ الَّذِي يَسْتَمْلِي تَعَجُّبَهُمْ، وَيَسْتَدْعِي تَبَجُّحَهُمْ فِي كُلِّ أَوَانٍ.

عَنْ مَسْرُوقٍ: "نَخْلُ الْجَنَّةِ نَضِيدٌ مِنْ أَصْلِهَا إِلَى فَرْعِهَا، وَثَمَرُهَا أَمْثَالُ الْقِلَالِ، كُلَّمَا نُزِعَتْ ثَمَرَةٌ عَادَتْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَأَنْهَارُهَا تَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ، وَالْعُنْقُودُ اثْنَتَا عَشْرَةَ ذِرَاعًا".

وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ فِي (أَتَوْا بِهِ) إِلَى الرِّزْقِ، كَمَا أَنَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّ مَا يُرْزَقُونَهُ مِنْ ثَمَرَاتِ الْجَنَّةِ يَأْتِيهِمْ مُتَجَانِسًا فِي نَفْسِهِ، كَمَا يُحْكَى عَنِ الْحَسَنِ: يُؤْتَى أَحَدُهُمْ بِالصَّحْفَةِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْأُخْرَى فَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي أُتِينَا بِهِ مِنْ قَبْلُ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: كُلْ، فَاللَّوْنُ وَاحِدٌ، وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ.

---

[1] سورة النِّسَاءِ، الآية 135.

وَعَنْهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَنَاوَلُ الثَّمَرَةَ لِيَأْكُلَهَا فَمَا هِيَ بِوَاصِلَةٍ إِلَى فِيهِ حَتَّى يُبَدِّلَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِثْلَهَا "فَإِذَا أَبْصَرُوهَا –وَالْهَيْئَةُ هَيْئَةُ الْأُولَى– قَالُوا ذَلِكَ، وَالتَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ هُوَ هُوَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ مَوْقِعُ قَوْلِهِ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[1] مِنْ نَظْمِ الْكَلَامِ؟

قُلْتُ: هُوَ كَقَوْلِكَ: فُلَانٌ أَحْسَنَ بِفُلَانٍ وَنِعْمَ مَا فَعَلَ، وَرَأَى مِنَ الرَّأْيِ كَذَا وَكَانَ صَوَابًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْجُمَلِ الَّتِي تُسَاقُ فِي الْكَلَامِ مُعْتَرِضَةً لِلتَّقْرِيرِ.

وَالْمُرَادُ بِتَطْهِيرِ الْأَزْوَاجِ: أَنْ طُهِّرْنَ مِمَّا يُخْتَصُّ بِالنِّسَاءِ مِنَ الْحَيْضِ وَالِاسْتِحَاضَةِ، وَمَا لَا يُخْتَصُّ بِهِنَّ مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَدْنَاسِ، وَيَجُوزُ –لِمَجِيئِهِ مُطْلَقًا– أَنْ يَدْخُلَ تَحْتَهُ الطُّهْرُ مِنْ دَنَسِ الطِّبَاعِ وَطَبْعِ الْأَخْلَاقِ الَّذِي عَلَيْهِ نِسَاءُ الدُّنْيَا، مِمَّا يَكْتَسِبْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ، وَمِمَّا يَأْخُذْنَهُ مِنْ أَعْرَاقِ السُّوءِ وَالْمَنَاصِبِ الرَّدِيئَةِ وَالْمَنَاشِئِ الْمُفْسِدَةِ، وَمِنْ سَائِرِ عُيُوبِهِنَّ وَمَثَالِبِهِنَّ وَخُبْثِهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا جَاءَتِ الصِّفَةُ مَجْمُوعَةً كَمَا فِي الْمَوْصُوفِ؟

قُلْتُ: هُمَا لُغَتَانِ فَصِيحَتَانِ، يُقَالُ: النِّسَاءُ فَعَلْنَ، وَهُنَّ فَاعِلَاتٌ وَفَوَاعِلُ، وَالنِّسَاءُ فَعَلَتْ، وَهِيَ فَاعِلَةٌ، وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ:

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالدُّخَانِ تَقَنَّعَـتْ وَاسْتَعْجَلَتْ نَصْبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتِ

وَالْمَعْنَى: وَجَمَاعَةُ أَزْوَاجٍ مُطَهَّرَةٍ، وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: (مُطَهَّرَاتٌ) وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ : "مُطَّهَّرَةٌ" بِمَعْنَى مُتَطَهِّرَةٍ، وَفِي كَلَامِ بَعْضِ الْعَرَبِ: مَا أَحْوَجَنِي إِلَى بَيْتِ اللَّهِ، فَأَطَّهَّرَ بِهِ أَطْهَرَةً، أَيْ فَأَتَطَهَّرُ بِهِ تَطَهُّرَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: طَاهِرَةٌ؟

قُلْتُ: فِي "مُطَهَّرَةٌ" فَخَامَةٌ لِصِفَتِهِنَّ لَيْسَتْ فِي طَاهِرَةٍ، وَهِيَ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ مُطَهَّرًا طُهْرَهُنَّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُرِيدُ بِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ أَنْ يُخَوِّلَهُمْ كُلَّ مَزِيَّةٍ فِيمَا أَعَدَّ لَهُمْ.

الْخُلْدُ: الثَّبَاتُ الدَّائِمُ وَالْبَقَاءُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[3].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة النَّمْلِ، الآية 34.

[3] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 34.

وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

أَلَا أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي؟

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّـــدٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَـــــــــالِ؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1]

سِيقَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِبَيَانِ أَنَّ مَا اسْتَنْكَرَهُ الْجَهَلَةُ وَالسُّفَهَاءُ وَأَهْلُ الْعِنَادِ وَالْمِرَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَاسْتَغْرَبُوهُ –مِنْ أَنْ تَكُونَ الْمُحَقَّرَاتُ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَضْرُوبًا بِهَا الْمَثَلُ– لَيْسَ بِمَوْضِعٍ لِلِاسْتِنْكَارِ وَالِاسْتِغْرَابِ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ التَّمْثِيلَ إِنَّمَا يُصَارُ إِلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنْ كَشْفِ الْمَعْنَى وَرَفْعِ الْحِجَابِ عَنِ الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ، وَإِدْنَاءِ الْمُتَوَهَّمِ مِنَ الْمَشَاهَدِ، فَإِنْ كَانَ الْمُتَمَثَّلُ لَهُ عَظِيمًا كَانَ الْمُتَمَثَّلُ بِهِ مِثْلَهُ، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا كَانَ الْمُتَمَثَّلُ بِهِ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ الْعِظَمُ وَالْحَقَارَةُ فِي الْمَضْرُوبِ بِهِ الْمَثَلُ إِذًا إِلَّا أَمْرًا تَسْتَدْعِيهِ حَالُ الْمُتَمَثَّلِ لَهُ وَتَسْتَجِرُّهُ إِلَى نَفْسِهَا، فَيَعْمَلُ الضَّارِبُ لِلْمَثَلِ عَلَى حَسَبِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، أَلَا تَرَى إِلَى الْحَقِّ لَمَّا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا أَبْلَجَ كَيْفَ تُمُثِّلَ لَهُ بِالضِّيَاءِ وَالنُّورِ؟ وَإِلَى الْبَاطِلِ لَمَّا كَانَ بِضِدِّ صِفَتِهِ كَيْفَ تُمُثِّلَ لَهُ بِالظُّلْمَةِ؟

وَلَمَّا كَانَتْ حَالُ الْآلِهَةِ الَّتِي جَعَلَهَا الْكُفَّارُ أَنْدَادًا لِلَّهِ –تَعَالَى– لَا حَالَ أَحْقَرُ مِنْهَا وَأَقَلُّ، وَلِذَلِكَ جُعِلَ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ مَثَلَهَا فِي الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، وَجُعِلَتْ أَقَلَّ مِنَ الذُّبَابِ وَأَخَسَّ قَدْرًا، وَضُرِبَتْ لَهَا الْبَعُوضَةُ فَالَّذِي دُونَهَا مَثَلًا لَمْ يُسْتَنْكَرْ وَلَمْ يُسْتَبْدَعْ، وَلَمْ يُقَلْ لِلْمُتَمَثِّلِ: اسْتَحِ مِنْ تَمْثِيلِهَا بِالْبَعُوضَةِ، لِأَنَّهُ مُصِيبٌ فِي تَمْثِيلِهِ، مُحِقٌّ فِي قَوْلِهِ، سَائِقٌ لِلْمَثَلِ عَلَى قَضِيَّةِ مَضْرَبِهِ، مُحْتَذٍ عَلَى مِثَالِ مَا يَحْتَكِمُهُ وَيَسْتَدْعِيهِ، وَلِبَيَانِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَادَتْهُمُ الْإِنْصَافُ وَالْعَمَلُ عَلَى الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ بِنَاظِرِ الْعَقْلِ إِذَا سَمِعُوا بِمِثْلِ هَذَا التَّمْثِيلِ عَلِمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَمُرُّ الشُّبْهَةُ بِسَاحَتِهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَالصَّوَابُ الَّذِي لَا يَرْتَعُ الْخَطَأُ حَوْلَهُ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ غَلَبَهُمُ الْجَهْلُ عَلَى عُقُولِهِمْ، وَغَصَبَهُمْ عَلَى بَصَائِرِهِمْ فَلَا يَتَفَطَّنُونَ وَلَا يُلْقُونَ أَذْهَانَهُمْ، أَوْ عَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ إِلَّا أَنَّ حُبَّ الرِّيَاسَةِ وَهَوَى الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ لَا يُخَلِّيهِمْ أَنْ يُنْصِفُوا، فَإِذَا سَمِعُوهُ عَانَدُوا وَكَابَرُوا وَقَضَوْا عَلَيْهِ بِالْبُطْلَانِ، وَقَابَلُوهُ بِالْإِنْكَارِ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ زِيَادَةِ هُدَى الْمُؤْمِنِينَ وَانْهِمَاكِ الْفَاسِقِينَ فِي غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ.

وَالْعَجَبُ مِنْهُمْ كَيْفَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ وَمَا زَالَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ الْأَمْثَالَ بِالْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ وَأَحْنَاشِ الْأَرْضِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْهَوَامِّ، وَهَذِهِ أَمْثَالُ الْعَرَبِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مُسَيَّرَةٌ فِي حَوَاضِرِهِمْ وَبَوَادِيهِمْ قَدْ تَمَثَّلُوا فِيهَا بِأَحْقَرِ الْأَشْيَاءِ فَقَالُوا: أَجْمَعُ مِنْ ذَرَّةٍ، وَأَجْرَأُ مِنَ الذُّبَابِ، وَأَسْمَعُ مِنْ قُرَادٍ، وَأَصْرَدُ مِنْ جَرَادَةٍ، وَأَضْعَفُ مِنْ فَرَاشَةٍ، وَآكَلُ مِنَ السُّوسِ، وَقَالُوا فِي الْبَعُوضَةِ: أَضْعَفُ مِنْ بَعُوضَةٍ، وَأَعَزُّ مِنْ مُخِّ الْبَعُوضِ، وَكَلَّفَتْنِي مُخَّ الْبَعُوضِ، وَلَقَدْ ضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ فِي الْإِنْجِيلِ بِالْأَشْيَاءِ الْمُحَقَّرَةِ، كَالزُّوَانِ وَالنُّخَالَةِ وَحَبَّةِ الْخَرْدَلِ، وَالْحَصَاةِ، وَالْأَرَضَةِ، وَالدُّودِ، وَالزَّنَابِيرِ، وَالتَّمْثِيلُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَبِأَحْقَرَ مِنْهَا مِمَّا لَا تُغْنِي اسْتِقَامَتُهُ وَصِحَّتُهُ عَلَى مَنْ بِهِ أَدْنَى مُسْكَةٍ، وَلَكِنْ دَيْدَنُ الْمَحْجُوجِ الْمَبْهُوتِ –الَّذِي لَا يَبْقَى لَهُ مُتَمَسَّكٌ بِدَلِيلٍ وَلَا مُتَشَبَّثٌ بِأَمَارَةٍ وَلَا إِقْنَاعٍ – أَنْ يَرْمِيَ – لِفَرْطِ الْحَيْرَةِ وَالْعَجْزِ عَنْ إِعْمَالِ الْحِيلَةِ– بِدَفْعِ الْوَاضِحِ وَإِنْكَارِ الْمُسْتَقِيمِ وَالتَّعْوِيلِ عَلَى الْمُكَابَرَةِ وَالْمُغَالَطَةِ إِذَا لَمْ يَجِدْ سِوَى ذَلِكَ مُعَوَّلًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: "لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمَثَلَ ضَحِكَتِ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– هَذِهِ الْآيَةَ".

وَالْحَيَاءُ: تَغَيُّرٌ وَانْكِسَارٌ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ تَخَوُّفِ مَا يُعَابُ بِهِ وَيُذَمُّ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْحَيَاةِ، يُقَالُ: حَيِيَ الرَّجُلُ، كَمَا يُقَالُ: نَسِيَ وَحَشِيَ وَشَظِيَ الْفَرَسُ إِذَا اعْتَلَّتْ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ، جُعِلَ الْحَيِيُّ لِمَا يَعْتَرِيهِ مِنَ الِانْكِسَارِ وَالتَّغَيُّرِ مُنْتَكِسَ الْقُوَّةِ مُنْتَقِصَ الْحَيَاةِ، كَمَا قَالُوا: هَلَكَ فُلَانٌ حَيَاءً مِنْ كَذَا، وَمَاتَ حَيَاءً، وَرَأَيْتُ الْهَلَاكَ فِي وَجْهِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَيَاءِ، وَذَابَ حَيَاءً، وَجَمَدَ فِي مَكَانِهِ خَجَلًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ وَصْفُ الْقَدِيمِ سُبْحَانَهُ بِهِ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّغَيُّرُ وَالْخَوْفُ وَالذَّمُّ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ الْعَبْدُ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا حَتَّى يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا"؟

قُلْتُ: هُوَ جَارٍ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ مِثْلَ تَرْكِهِ تَخْيِيبَ الْعَبْدِ وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّ يَدَيْهِ صِفْرًا مِنْ عَطَائِهِ؛ لِكَرَمِهِ بِتَرْكِ مَنْ يَتْرُكُ رَدَّ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ حَيَاءً مِنْهُ، وَكَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا

يَسْتَحْيِي﴾[1]، أَيْ لَا يَتْرُكُ ضَرْبَ الْمَثَلِ بِالْبَعُوضَةِ تَرْكَ مَنْ يَسْتَحْيِي أَنْ يَتَمَثَّلَ بِهَا لِحَقَارَتِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ تَقَعَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي كَلَامِ الْكَفَرَةِ، فَقَالُوا: أَمَا يَسْتَحْيِي رَبُّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ فَجَاءَتْ عَلَى سَبِيلِ الْمُقَابَلَةِ وَإِطْبَاقِ الْجَوَابِ عَلَى السُّؤَالِ، وَهُوَ فَنٌّ مِنْ كَلَامِهِمْ بَدِيعٌ، وَطِرَازٌ عَجِيبٌ، مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يُعْرُبَ كُلَّهَا أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْـــزِلِ؟

وَشَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ شُرَيْحٍ فَقَالَ: إِنَّكَ لَسِبْطُ الشَّهَادَةِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّهَا لَمْ تُجْعَدْ عَنِّي، فَقَالَ: لِلَّهِ بِلَادُكَ، وَقَبِلَ شَهَادَتَهُ، فَالَّذِي سَوَّغَ بِنَاءَ الْجَارِ وَتَجْعِيدَ الشَّهَادَةِ هُوَ مُرَاعَاةُ الْمُشَاكَلَةِ، وَلَوْلَا بِنَاءُ الدَّارِ لَمْ يَصِحَّ بِنَاءُ الْجَارِ، وَسُبُوطَةُ الشَّهَادَةِ لَامْتَنَعَ تَجْعِيدُهَا، وَلِلَّهِ دَرُّ أَمْرِ التَّنْزِيلِ وَإِحَاطَتُهُ بِفُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَشُعَبِهَا، لَا تَكَادُ تَسْتَغْرِبُ مِنْهَا فَنًّا إِلَّا عَثَرْتَ عَلَيْهِ فِيهِ عَلَى أَقْوَمِ مَنَاهِجِهِ وَأَسَدِّ مَدَارِجِهِ، وَقَدِ اسْتُعِيرَ الْحَيَاءُ فِيمَا لَا يَصِحُّ فِيهِ:

إِذَا مَا اسْتَحَيْنَ الْمَاءَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنٍ بِسِبْتٍ فِي إِنَاءٍ مِنَ الْـــــوَرْدِ

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي رِوَايَةِ شِبْلٍ: (يَسْتَحِي) بِيَاءٍ وَاحِدَةٍ، وَفِيهِ لُغَتَانِ: التَّعَدِّي بِالْجَارِّ، وَالتَّعَدِّي بِنَفْسِهِ، يَقُولُونَ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَاسْتَحْيَيْتُهُ، وَهُمَا مُحْتَمَلَتَانِ هَهُنَا.

وَضَرْبُ الْمَثَلِ: اعْتِمَادُهُ وَصُنْعُهُ، مِنْ ضَرْبِ اللَّبِنِ وَضَرْبِ الْخَاتَمِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "اضْطَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ".

وَ"مَا" هَذِهِ إِبْهَامِيَّةٌ، وَهِيَ الَّتِي إِذَا اقْتَرَنَتْ بِاسْمٍ نَكِرَةٍ أَبْهَمَتْهُ إِبْهَامًا وَزَادَتْهُ شِيَاعًا وَعُمُومًا، كَقَوْلِكَ: أَعْطِنِي كِتَابًا مَا، تُرِيدُ أَيَّ كِتَابٍ كَانَ، أَوْ صِلَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، كَالَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾[2]، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا حَقًّا أَوِ الْبَتَّةَ، هَذَا إِذَا نَصَبْتَ: "بَعُوضَةً" فَإِنْ رَفَعْتَهَا فَهِيَ مَوْصُولَةٌ، صِلَتُهَا الْجُمْلَةُ، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: هُوَ بَعُوضَةٌ، فَحُذِفَ صَدْرُ الْجُمْلَةِ كَمَا حُذِفَ فِي ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾[3].

وَوَجْهٌ آخَرُ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الَّتِي فِيهَا مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، لَمَّا اسْتَنْكَفُوا مِنْ تَمْثِيلِ اللَّهِ لِأَصْنَامِهِمْ بِالْمُحَقَّرَاتِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ لِلْأَنْدَادِ مَا شَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُحَقَّرَةِ مَثَلًا، بَلْهَ الْبَعُوضَةَ فَمَا فَوْقَهَا، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ لَا يُبَالِي بِمَا وَهَبَ مَا دِينَارٌ وَدِينَارَانِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ لِلَّهِ أَنْ يَتَمَثَّلَ لِلْأَنْدَادِ وَحَقَارَةِ شَأْنِهَا بِمَا لَا شَيْءَ أَصْغَرَ مِنْهُ وَأَقَلَّ، كَمَا

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة النِّسَاء، الآية 155.

[3] سورة الْأَنْعَام، الآية 154.

لَوْ تَمَثَّلَ بِالْجُزْءِ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ، وَبِمَا لَا يُدْرِكُهُ، لِتَنَاهِيهِ فِي صِغَرِهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ بِلُطْفِهِ، أَوْ بِالْمَعْدُومِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: فُلَانٌ أَقَلُّ مِنْ لَا شَيْءَ فِي الْعَدَدِ، وَلَقَدْ أَلَمَّ بِهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1].

وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تُعْزَى إِلَى رُؤْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ، وَهُوَ أَمْضَغُ الْعَرَبِ لِلشِّيحِ وَالْقَيْصُومِ، وَالْمَشْهُودُ لَهُ بِالْفَصَاحَةِ، وَكَانُوا يُشَبِّهُونَ بِهِ الْحَسَنَ، وَمَا أَظُنُّهُ ذَهَبَ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ إِلَّا إِلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَهُوَ الْمُطَابِقُ لِفَصَاحَتِهِ.

وَانْتَصَبَ "بَعُوضَةً" بِأَنَّهَا عَطْفُ بَيَانٍ لِ(مَثَلًا) أَوْ مَفْعُولٌ لِ(يَضْرِبَ) وَ"مَثَلًا" حَالٌ عَنِ النَّكِرَةِ مُقَدَّمَةٌ عَلَيْهِ، أَوِ انْتَصَبَا مَفْعُولَيْنِ، فَجَرَى "ضَرَبَ" مَجْرَى "جَعَلَ".

وَاشْتِقَاقُ الْبَعُوضِ مِنَ الْبَعْضِ، وَهُوَ الْقِطْعُ كَالْبِضْعِ وَالْعَضْبِ، يُقَالُ: بَعَضَهُ الْبَعُوضُ، وَأَنْشَدَ:

لَنِعْمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبِي دِثَـارٍ إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضَا

وَمِنْهُ: بَعْضُ الشَّيْءِ، لِأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْهُ، وَالْبَعُوضُ فِي أَصْلِهِ صِفَةٌ عَلَى فَعُولٍ كَالْقَطُوعِ فَغَلَبَتْ، وَكَذَلِكَ الْخَمُوشُ.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾[2]، فِيهِ مَعْنَيَانِ:

– أَحَدُهُمَا: فَمَا تَجَاوَزَهَا وَزَادَ عَلَيْهَا فِي الْمَعْنَى الَّذِي ضُرِبَتْ فِيهِ مَثَلًا، وَهُوَ الْقِلَّةُ وَالْحَقَارَةُ، نَحْوُ قَوْلِكَ –لِمَنْ يَقُولُ: فُلَانٌ أَسْفَلُ النَّاسِ وَأَنْذَلُهُمْ–: هُوَ فَوْقَ ذَاكَ، تُرِيدُ هُوَ أَبْلَغُ وَأَعْرَقُ فِيمَا وُصِفَ بِهِ مِنَ السَّفَالَةِ وَالنَّذَالَةِ.

– وَالثَّانِي: فَمَا زَادَ عَلَيْهَا فِي الْحَجْمِ، كَأَنَّهُ قَصَدَ بِذَلِكَ رَدَّ مَا اسْتَنْكَرُوهُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ، لِأَنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْبَعُوضَةِ، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ –وَقَدْ ذَمَّ مَنْ عَرَفْتَهُ يَشِحُّ بِأَدْنَى شَيْءٍ فَقَالَ: فُلَانٌ بَخِلَ بِالدِّرْهَمِ وَالدِّرْهَمَيْنِ–: هُوَ لَا يُبَالِي أَنْ يَبْخَلَ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ فَمَا فَوْقَهُ، تُرِيدُ بِمَا فَوْقَهُ مَا بَخِلَ فِيهِ وَهُوَ الدِّرْهَمُ وَالدِّرْهَمَانِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: فَضْلًا عَنِ الدِّرْهَمِ وَالدِّرْهَمَيْنِ.

وَنَحْوُهُ فِي الِاحْتِمَالَيْنِ مَا سَمِعْنَاهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: دَخَلَ شَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–، وَهِيَ بِمِنًى وَهُمْ يَضْحَكُونَ، فَقَالَتْ: مَا يُضْحِكُكُمْ؟ قَالُوا: فُلَانٌ خَرَّ عَلَى طُنُبِ فُسْطَاطٍ فَكَادَتْ عُنُقُهُ أَوْ عَيْنُهُ أَنْ تَذْهَبَ، فَقَالَتْ:

---

[1] سورة الْعَنْكَبُوتِ، الآية 42.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

لَا تَضْحَكُوا، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيَتْ بِهَا عَنْهُ خَطِيئَةٌ".

يَحْتَمِلُ فَمَا عَدَا الشَّوْكَةَ وَتَجَاوَزَهَا فِي الْقِلَّةِ، وَهِيَ نَحْوُ نُخْبَةِ النَّمْلَةِ فِي قَوْلِهِ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "مَا أَصَابَ الْمُؤْمِنَ مِنْ مَكْرُوهٍ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَاهُ حَتَّى نُخْبَةَ النَّمْلَةِ"، وَهِيَ عَضَّتُهَا، وَيَحْتَمِلُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الشَّوْكَةِ وَأَوْجَعُ، كَالْخُرُورِ عَلَى طُنُبِ الْفُسْطَاطِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِمَا دُونَ الْبَعُوضَةِ وَهِيَ النِّهَايَةُ فِي الصِّغَرِ؟

قُلْتُ: لَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ جَنَاحَ الْبَعُوضَةِ أَقَلُّ مِنْهَا وَأَصْغَرُ بِدَرَجَاتٍ، وَقَدْ ضَرَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَثَلًا لِلدُّنْيَا، وَفِي خَلْقِ اللَّهِ حَيَوَانَ أَصْغَرَ مِنْهَا وَمِنْ جَنَاحِهَا رُبَّمَا رَأَيْتُ فِي تَضَاعِيفِ الْكُتُبِ الْعَتِيقَةِ دُوَيْبَّةً لَا يَكَادُ يُجَلِّيهَا لِلْبَصَرِ الْحَادِّ إِلَّا تَحَرُّكُهَا، فَإِذَا سَكَنَتْ فَالسُّكُونُ يُوَارِيهَا، ثُمَّ إِذَا لَوَّحْتَ لَهَا بِيَدِكَ حَادَتْ عَنْهَا وَتَجَنَّبَتْ مَضَرَّتَهَا، فَسُبْحَانَ مَنْ يُدْرِكُ صُورَةَ تِلْكَ وَأَعْضَاءَهَا الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَتَفَاصِيلَ خِلْقَتِهَا، وَيُبْصِرُ بَصَرَهَا، وَيَطَّلِعُ عَلَى ضَمِيرِهَا.

وَلَعَلَّ فِي خَلْقِهِ مَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْهَا وَأَصْغَرُ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وَأُنْشِدْتُ لِبَعْضِهِمْ:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَـــا ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلْيَـلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَـــا ... وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِـــــهِ ... مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَـانِ الْأَوَّلِ

"وَأَمَّا": حَرْفٌ فِيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ يُجَابُ بِالْفَاءِ، وَفَائِدَتُهُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يُعْطِيَهُ فَضْلَ تَوْكِيدٍ، تَقُولُ: زَيْدٌ ذَاهِبٌ، فَإِذَا قَصَدْتَ تَوْكِيدَ ذَاكَ وَأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ ذَاهِبٌ، وَأَنَّهُ بِصَدَدِ الذَّهَابِ وَأَنَّهُ مِنْهُ عَزِيمَةٌ قُلْتَ: أَمَّا زَيْدٌ فَذَاهِبٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَزَيْدٌ ذَاهِبٌ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ مُدْلٍ لِفَائِدَتَيْنِ:

– بَيَانِ كَوْنِهِ تَوْكِيدًا، وَأَنَّهُ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ، فَفِي إِيرَادِ الْجُمْلَتَيْنِ مُصَدَّرَتَيْنِ بِهِ –وَإِنْ لَمْ يَقِلْ: فَالَّذِينَ آمَنُوا يَعْلَمُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ– إِخْمَادٌ عَظِيمٌ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاعْتِدَادٌ

---

[1] سورة يس، الآية 36.

بِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَنَعْيٌ عَلَى الْكَافِرِينَ إِغْفَالَهُمْ حَظَّهُمْ، وَعِنَادَهُمْ، وَرَمْيَهُمْ بِالْكَلِمَةِ الْحَمْقَاءِ.

– وَ"الْحَقُّ": الثَّابِتُ، الَّذِي لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهُ، يُقَالُ: حَقَّ الْأَمْرُ إِذَا ثَبَتَ وَوَجَبَ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ، وَثَوْبٌ مُحَقَّقٌ: مُحْكَمُ النَّسْجِ.

وَ"مَاذَا" فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَنْ يَكُونَ ذَا اسْمًا مَوْصُولًا بِمَعْنَى الَّذِي، فَيَكُونُ كَلِمَتَيْنِ؛

– وَأَنْ يَكُونَ "ذَا" مُرَكَّبَةً مَعَ "مَا" مَجْعُولَتَيْنِ اسْمًا وَاحِدًا، فَيَكُونُ كَلِمَةً وَاحِدَةً.

فَهُوَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مَرْفُوعُ الْمَحَلِّ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ ذَا مَعَ صِلَتِهِ، وَعَلَى الثَّانِي مَنْصُوبُ الْمَحَلِّ فِي حُكْمِ "مَا" وَحْدَهُ، لَوْ قُلْتَ: مَا أَرَادَ اللَّهُ، وَالْأَصْوَبُ فِي جَوَابِهِ أَنْ يَجِيئَ عَلَى الْأَوَّلِ مَرْفُوعًا، وَعَلَى الثَّانِي مَنْصُوبًا؛ لِيُطَابِقَ الْجَوَابُ السُّؤَالَ، وَقَدْ جَوَّزُوا عَكْسَ ذَلِكَ، تَقُولُ فِي جَوَابِ مَنْ قَالَ: (مَا رَأَيْتَ؟): خَيْرٌ، أَيِ الْمَرْئِيُّ خَيْرٌ، وَفِي جَوَابِ (مَا الَّذِي رَأَيْتَ؟): خَيْرًا، أَيْ رَأَيْتُ خَيْرًا، وَقُرِئَ قَوْلُهُ تَعَالَى–: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[1] بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ، وَالْإِرَادَةُ نَقِيضُ الْكَرَاهَةِ، وَهِيَ مَصْدَرُ أَرَدْتُ الشَّيْءَ إِذَا طَلَبَتْهُ نَفْسُكَ وَمَالَ إِلَيْهِ قَلْبُكَ.

وَفِي حُدُودِ الْمُتَكَلِّمِينَ: الْإِرَادَةُ مَعْنًى يُوجِبُ لِلْحَيِّ حَالًا لِأَجْلِهَا يَقَعُ مِنْهُ الْفِعْلُ عَلَى وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي إِرَادَةِ اللَّهِ، فَبَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ لِلْبَارِي مِثْلَ صِفَةِ الْمُرِيدِ مِنَّا الَّتِي هِيَ الْقَصْدُ، وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى كَوْنِهِ عَالِمًا غَيْرَ سَاهٍ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ مَعْنَى إِرَادَتِهِ لِأَفْعَالِهِ هُوَ أَنَّهُ فَعَلَهَا، وَهُوَ غَيْرُ سَاهٍ وَلَا مُكْرَهٍ، وَمَعْنَى إِرَادَتِهِ لِأَفْعَالِ غَيْرِهِ أَنَّهُ أَمَرَ بِهَا.

وَالضَّمِيرُ فِي (أَنَّهُ الْحَقُّ): لِلْمَثَلِ، أَوْ لِـ(أَنْ يَضْرِبَ) وَفِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾[2] اسْتِرْذَالٌ وَاسْتِحْقَارٌ، كَمَا: قَالَتْ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: "يَا عَجَبًا لِابْنِ عَمْرٍو هَذَا".

"مَثَلًا": نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ، كَقَوْلِكَ لِمَنْ أَجَابَ بِجَوَابٍ غَثٍّ: مَاذَا أَرَدْتَ بِهَذَا جَوَابًا، وَلِمَنْ حَمَلَ سِلَاحًا رَدِيًّا: كَيْفَ تَنْتَفِعُ بِهَذَا سِلَاحًا؟ أَوْ عَلَى الْحَالِ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[3].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية 219.

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَاف، الآية 73.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾[1] جَارٍ مَجْرَى التَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ لِلْجُمْلَتَيْنِ الْمُصَدَّرَتَيْنِ بِـ(أَمَّا) وَأَنَّ فَرِيقَ الْعَالِمِينَ بِأَنَّهُ الْحَقُّ وَفَرِيقَ الْجَاهِلِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ كِلَاهُمَا مَوْصُوفٌ بِالْكَثْرَةِ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِكَوْنِهِ حَقًّا مِنْ بَابِ الْهُدَى الَّذِي ازْدَادَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ نُورًا إِلَى نُورِهِمْ، وَأَنَّ الْجَهْلَ بِحُسْنِ مَوْرِدِهِ مِنْ بَابِ الضَّلَالَةِ الَّتِي زَادَتِ الْجَهَلَةَ خَبْطًا فِي ظُلُمَاتِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ وُصِفَ الْمَهْدِيُّونَ بِالْكَثْرَةِ، وَالْقِلَّةُ صِفَتُهُمْ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2]، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[3] "النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً"، "وَجَدْتُ النَّاسَ اخْبُرْ تَقْلُهُ"؟

قُلْتُ: أَهْلُ الْهُدَى كَثِيرٌ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَحِينَ يُوصَفُونَ بِالْقِلَّةِ إِنَّمَا يُوصَفُونَ بِهَا بِالْقِيَاسِ إِلَى أَهْلِ الضَّلَالِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْمَهْدِيِّينَ كَثِيرٌ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنْ قَلُّوا فِي الصُّورَةِ، فَسُمُّوا –ذَهَابًا إِلَى الْحَقِيقَةِ– كَثِيرًا:

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا

وَإِسْنَادُ الْإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى السَّبَبِ، لِأَنَّهُ لَمَّا ضُرِبَ الْمَثَلُ فَضَلَّ بِهِ قَوْمٌ وَاهْتَدَى بِهِ قَوْمٌ تَسَبَّبَ لِضَلَالِهِمْ وَهُدَاهُمْ.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ –رَحِمَهُ اللَّهُ– أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى مَحْبُوسٍ قَدْ أُخِذَ بِمَالٍ عَلَيْهِ وَقُيِّدَ، فَقَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى، أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْقُيُودِ؟ فَرَفَعَ مَالِكٌ رَأْسَهُ فَرَأَى سَلَّةً، فَقَالَ: لِمَنْ هَذِهِ السَّلَّةُ؟ فَقَالَ: لِي، فَأَمَرَ بِهَا تَنْزِلُ، فَإِذَا دَجَاجٌ وَأَخْبِصَةٌ، فَقَالَ مَالِكٌ: هَذِهِ وَضَعَتِ الْقُيُودَ عَلَى رِجْلِكَ.

وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: (يُضَلُّ بِهِ كَثِيرٌ) وَكَذَلِكَ: (وَمَا يَضَلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ) وَالْفِسْقُ: الْخُرُوجُ عَنِ الْقَصْدِ.

قَالَ رُؤْبَةُ:

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِـــــرَا

وَالْفَاسِقُ فِي الشَّرِيعَةِ الْخَارِجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ بِارْتِكَابِ الْكَبِيرَةِ، وَهُوَ النَّازِلُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، أَيْ: بَيْنَ مَنْزِلَةِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَقَالُوا: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ حَدَّ لَهُ هَذَا الْحَدَّ أَبُو حُذَيْفَةَ وَاصِلُ بْنُ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة سَبَأ، الآية 13.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

عَطَاءٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَعَنْ أَشْيَاعِهِ، وَكَوْنُهُ بَيْنَ بَيْنَ أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الْمُؤْمِنِ فِي أَنَّهُ يُنَاكَحُ وَيُوَارَثُ وَيُغَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ كَالْكَافِرِ فِي الذَّمِّ وَاللَّعْنِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَاعْتِقَادِ عَدَاوَتِهِ، وَأَلَّا تُقْبَلَ لَهُ شَهَادَةٌ، وَمَذْهَبُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَالزَّيْدِيَّةِ: أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُجْزِئُ خَلْفَهُ.

وَيُقَالُ لِلْخُلَفَاءِ الْمَرَدَةِ مِنَ الْكُفَّارِ: الْفَسَقَةُ، وَقَدْ جَاءَ الِاسْتِعْمَالَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾[1]، يُرِيدُ اللَّمْزَ وَالتَّنَابُزَ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

النَّقْضُ: الْفَسْخُ وَفَكُّ التَّرْكِيبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ سَاغَ اسْتِعْمَالُ النَّقْضِ فِي إِبْطَالِ الْعَهْدِ؟

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ تَسْمِيَتُهُمُ الْعَهْدَ بِالْحَبْلِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ، لِمَا فِيهِ مِنْ ثَبَاتِ الْوَصْلَةِ بَيْنَ الْمُتَعَاهِدِينَ، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ التَّيِّهَانِ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ حِبَالًا وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا، فَنَخْشَى إِنِ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– أَعَزَّكَ وَأَظْهَرَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ".

وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ وَلَطَائِفِهَا أَنْ يَسْكُتُوا عَنْ ذِكْرِ الشَّيْءِ الْمُسْتَعَارِ، ثُمَّ يَرْمُزُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ رَوَادِفِهِ، فَيُنَبِّهُوا بِتِلْكَ الرَّمْزَةِ عَلَى مَكَانِهِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ: شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ أَقْرَانَهُ، وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ النَّاسُ، وَإِذَا تَزَوَّجَتِ امْرَأَةٌ فَاسْتَوْثَرَهَا، لَمْ تَقُلْ هَذَا إِلَّا وَقَدْ نَبَّهْتَ عَلَى الشُّجَاعِ وَالْعَالِمِ بِأَنَّهُمَا أَسَدٌ وَبَحْرٌ، وَعَلَى الْمَرْأَةِ بِأَنَّهَا فِرَاشٌ.

وَالْعَهْدُ: الْمَوْثِقُ، وَعُهِدَ إِلَيْهِ فِي كَذَا: إِذَا وَصَّاهُ بِهِ وَوَثَّقَهُ عَلَيْهِ، وَاسْتَعْهَدَ مِنْهُ: إِذَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِ وَاسْتَوْثَقَ مِنْهُ، وَالْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ النَّاقِضِينَ لِعَهْدِ اللَّهِ: أَحْبَارُ الْيَهُودِ الْمُتَعَنِّتُونَ، أَوْ مُنَافِقُوهُمْ، أَوِ الْكُفَّارُ جَمِيعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْمُرَادُ بِعَهْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: مَا رَكَزَ فِي عُقُولِهِمْ مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ وَصَّاهُمْ بِهِ وَوَثَّقَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[3] أَوْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا بُعِثَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ –يُصَدِّقُهُ اللَّهُ بِمُعْجِزَاتِهِ– صَدَّقُوهُ وَاتَّبَعُوهُ، وَلَمْ يَكْتُمُوا ذِكْرَهُ فِيمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[4].

---

[1] سورة الْحُجُرَاتِ، الآية 11.

[2] سورة التَّوْبَةِ، الآية 67.

[3] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 112.

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية 40.

وَقَوْلِهِ فِي الْإِنْجِيلِ لِعِيسَى –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ–: "سَأَنْزِلُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ نَبَأُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا أَرَيْتُهُ إِيَّاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ، وَمَا أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ، وَمَا نَقَضُوا مِنْ مِيثَاقِهِمُ لَّذِي وَاثَقُوا بِهِ، وَمَا ضَيَّعُوا مِنْ عَهْدِهِ إِلَيْهِمْ" وَحُسْنَ صُنْعِهِ لِلَّذِينَ قَامُوا بِمِيثَاقِ اللَّهِ –تَعَالَى– وَأَوْفُوا بِعَهْدِهِ، وَنَصْرِهِ إِيَّاهُمْ، وَكَيْفَ أَنْزَلَ بَأْسَهُ وَنِقْمَتَهُ بِالَّذِينَ غَدَرُوا وَنَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ وَلَمْ يُوفُوا بِعَهْدِهِ، لِأَنَّ الْيَهُودَ فَعَلُوا بَاسِمِ عِيسَى مَا فَعَلُوا بَاسِمِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنَ التَّحْرِيفِ وَالْجُحُودِ وَكَفَرُوا بِهِ كَمَا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَقِيلَ: هُوَ أَخْذُ اللَّهِ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ، وَلَا يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَقْطَعُوا أَرْحَامَهُمْ.

وَقِيلَ: عَهِدَ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ ثَلَاثَةَ عُهُودٍ:

– الْعَهْدُ الْأَوَّلُ: الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى جَمِيعِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، الْإِقْرَارُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾[1].

– وَعَهْدٌ خَصَّ بِهِ النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَلِّغُوا الرِّسَالَةَ وَيُقِيمُوا الدِّينَ وَلَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾[2].

– وَعَهْدٌ خَصَّ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[3].

وَالضَّمِيرُ فِي مِيثَاقِهِ لِلْعَهْدِ وَهُوَ مَا وَثَّقُوا بِهِ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ قَبُولِهِ وَإِلْزَامِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى تَوْثِيقِهِ، كَمَا أَنَّ الْمِيعَادَ وَالْمِيلَادَ بِمَعْنَى الْوَعْدِ وَالْوِلَادَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، أَيْ: مِنْ بَعْدِ تَوْثِقَتِهِ عَلَيْهِمْ، أَوْ مِنْ بَعْدِ مَا وَثَّقَ بِهِ عَهْدَهُ مِنْ آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَإِنْذَارِ رُسُلِهِ، وَمَعْنَى قَطْعِهِمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ قَطْعُهُمُ الْأَرْحَامَ وَمُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: قَطْعُهُمْ مَا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْوَصْلَةِ وَالِاتِّحَادِ وَالِاجْتِمَاعِ عَلَى الْحَقِّ، فِي إِيمَانِهِمْ بِبَعْضٍ وَكُفْرِهِمْ بِبَعْضٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْأَمْرُ؟

قُلْتُ: طَلَبُ الْفِعْلِ مِمَّنْ هُوَ دُونَكَ وَبَعْثُهُ عَلَيْهِ، وَبِهِ سُمِّيَ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ وَاحِدُ الْأُمُورِ، لِأَنَّ الدَّاعِيَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ يَتَوَلَّاهُ شُبِّهَ بِآمِرٍ يَأْمُرُهُ بِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمْرٌ؛ تَسْمِيَةً لِلْمَفْعُولِ بِهِ

---

[1] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 172.

[2] سورة الْأَحْزَابِ، الآية 7.

[3] سورة آلِ عِمْرَانَ، الآية 187.

بِالْمَصْدَرِ كَأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ، كَمَا قِيلَ لَهُ شَأْنٌ، وَالشَّأْنُ: الطَّلَبُ وَالْقَصْدُ، يُقَالُ: شَأَنْتُ شَأْنَهُ، أَيْ قَصَدْتُ قَصْدَهُ.

﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1]، لِأَنَّهُمُ اسْتَبْدَلُوا النَّقْضَ بِالْوَفَاءِ، وَالْقَطْعَ بِالْوَصْلِ، وَالْفَسَادَ بِالصَّلَاحِ، وَعِقَابَهَا بِثَوَابِهَا.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]

مَعْنَى الْهَمْزَةِ الَّتِي فِي "كَيْفَ": مِثْلُهُ فِي قَوْلِكَ: أَتَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَمَعَكُمْ مَا يَصْرِفُ عَنِ الْكُفْرِ وَيَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ الْإِنْكَارُ وَالتَّعَجُّبُ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: أَتَطِيرُ بِغَيْرِ جَنَاحٍ؟ وَكَيْفَ تَطِيرُ بِغَيْرِ جَنَاحٍ؟

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُكَ: أَتَطِيرُ بِغَيْرِ جَنَاحٍ إِنْكَارٌ لِلطَّيَرَانِ، لِأَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ بِغَيْرِ جَنَاحٍ، وَأَمَّا الْكُفْرُ فَغَيْرُ مُسْتَحِيلٍ مَعَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْإِمَاتَةِ وَالْإِحْيَاءِ.

قُلْتُ: قَدْ أُخْرِجَ فِي صُورَةِ الْمُسْتَحِيلِ لَمَّا قَوِيَ مِنَ الصَّارِفِ عَنِ الْكُفْرِ وَالدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ تَبَيَّنَ أَمْرُ الْهَمْزَةِ، وَأَنَّهَا لِإِنْكَارِ الْفِعْلِ وَالْإِيذَانِ بِاسْتِحَالَتِهِ فِي نَفْسِهِ، أَوْ لِقُوَّةِ الصَّارِفِ عَنْهُ، فَمَا تَقُولُ فِي: "كَيْفَ"، حَيْثُ كَانَ إِنْكَارًا لِلْحَالِ الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا كُفْرُهُمْ؟

قُلْتُ: حَالُ الشَّيْءِ تَابِعَةٌ لِذَاتِهِ، فَإِذَا امْتَنَعَ ثُبُوتُ الذَّاتِ تَبِعَهُ امْتِنَاعُ ثُبُوتِ الْحَالِ، فَكَانَ إِنْكَارُ حَالِ الْكُفَّارِ لِأَنَّهَا تَبِيعُ ذَاتِ الْكُفْرِ وَرَدِيفُهَا إِنْكَارًا لِذَاتِ الْكُفْرِ، وَثَبَاتُهَا عَلَى طَرِيقِ الْكِنَايَةِ، وَذَلِكَ أَقْوَى لِإِنْكَارِ الْكُفْرِ وَأَبْلَغُ، وَتَحْرِيرُهُ أَنَّهُ إِذَا أُنْكِرَ أَنْ يَكُونَ لِكُفْرِهِمْ حَالٌ يُوجَدُ عَلَيْهَا –وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ لَا يَنْفَكُّ عَنْ حَالٍ وَصِفَةٍ عِنْدَ وُجُودِهِ، وَمُحَالٌ أَنْ يُوجَدَ بِغَيْرِ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ– كَانَ إِنْكَارًا لِوُجُودِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الْبُرْهَانِيِّ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾[1] لِلْحَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ حَالًا وَهُوَ مَاضٍ، وَلَا يُقَالُ: جِئْتُ وَقَامَ الْأَمِيرُ، وَلَكِنْ: وَقَدْ قَامَ، لَا أَنْ يُضْمِرَ قَدْ؟

قُلْتُ: لَمْ تَدْخُلِ الْوَاوُ عَلَى: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾[2] وَحْدَهُ، وَلَكِنْ عَلَى جُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾[3] إِلَى ﴿تَرْجِعُونَ﴾[4]، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ، وَقِصَّتُكُمْ هَذِهِ وَحَالُكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا نُطَفًا فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ فَجَعَلَكُمْ أَحْيَاءً، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، ثُمَّ يُحَاسِبُكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: بَعْضُ الْقِصَّةِ مَاضٍ وَبَعْضُهَا مُسْتَقْبَلٌ، وَالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلُ كِلَاهُمَا لَا يَصِحُّ أَنْ يَقَعَا حَالًا حَتَّى يَكُونَ فِعْلًا حَاضِرًا وَقْتَ وُجُودِ مَا هُوَ حَالٌ عَنْهُ، فَمَا الْحَاضِرُ الَّذِي وَقَعَ حَالًا؟

قُلْتُ: هُوَ الْعِلْمُ بِالْقِصَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ بِأَوَّلِهَا وَآخِرِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ آلَ الْمَعْنَى إِلَى قَوْلِكَ: عَلَى أَيِّ حَالٍ تَكْفُرُونَ فِي حَالِ عِلْمِكُمْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ فَمَا وَجْهُ صِحَّتِهِ؟

قُلْتُ: قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ فِي "كَيْفَ" الْإِنْكَارُ، وَأَنَّ إِنْكَارَ الْحَالِ مُتَضَمِّنٌ لِإِنْكَارِ الذَّاتِ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا أَعْجَبَ كُفْرَكُمْ مَعَ عِلْمِكُمْ بِحَالِكُمْ هَذِهِ!

فَإِنْ قُلْتَ: إِنِ اتَّصَلَ عِلْمُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا فَأَحْيَاهُمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، فَلَمْ يَتَّصِلْ بِالْإِحْيَاءِ الثَّانِي وَالرُّجُوعِ؟

قُلْتُ: قَدْ تَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهِمَا بِالدَّلَائِلِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ، فَكَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ حُصُولِ الْعِلْمِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلِمُوا ثُمَّ عَانَدُوا.

وَالْأَمْوَاتُ: جَمْعُ مَيِّتٍ، كَالْأَقْوَالِ فِي جَمْعِ قَيِّلٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ لَهُمْ أَمْوَاتٌ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ جَمَادًا، وَإِنَّمَا يُقَالُ مَيْتٌ فِيمَا يَصِحُّ فِيهِ الْحَيَاةُ مِنَ الْبُنَى؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قُلْتُ: بَلْ يُقَالُ ذَلِكَ لِعَادِمِ الْحَيَاةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾[1]، ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾[2]، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[3]؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِعَارَةً لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي أَنْ لَا رُوحَ وَلَا إِحْسَاسَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالْإِحْيَاءِ الثَّانِي؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْإِحْيَاءُ فِي الْقَبْرِ: وَبِالرُّجُوعِ: النُّشُورُ، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ النُّشُورُ، وَبِالرُّجُوعِ: الْمَصِيرُ إِلَى الْجَزَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَانَ الْعَطْفُ الْأَوَّلُ بِالْفَاءِ وَالْإِعْقَابُ بِثُمَّ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْإِحْيَاءَ الْأَوَّلَ قَدْ تَعَقَّبَ الْمَوْتَ بِغَيْرِ تَرَاخٍ، وَأَمَّا الْمَوْتُ فَقَدْ تَرَاخَى عَنِ الْإِحْيَاءِ، وَالْإِحْيَاءُ الثَّانِي كَذَلِكَ مُتَرَاخٍ عَنِ الْمَوْتِ –إِنْ أُرِيدَ بِهِ النُّشُورُ– تَرَاخِيًا ظَاهِرًا، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ إِحْيَاءُ الْقَبْرِ فَمِنْهُ يُكْتَسَبُ الْعِلْمُ بِتَرَاخِيهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى الْجَزَاءِ –أَيْضًا– مُتَرَاخٍ عَنِ النُّشُورِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ أُنْكِرَ اجْتِمَاعُ الْكُفْرِ مَعَ الْقِصَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ، أَلِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تَصْرِفُهُمْ عَنِ الْكُفْرِ، أَمْ عَلَى نِعَمٍ جِسَامٍ حَقُّهَا أَنْ تَشْكُرَ وَلَا تَكْفُرَ؟

قُلْتُ: يَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، لِأَنَّ مَا عَدَّدَهُ آيَاتٍ وَهِيَ مَعَ كَوْنِهَا آيَاتٍ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ.

"لَكُمْ": لِأَجْلِكُمْ، وَلِانْتِفَاعِكُمْ بِهِ فِي دُنْيَاكُمْ وَدِينِكُمْ، أَمَّا الِانْتِفَاعُ الدُّنْيَوِيُّ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الِانْتِفَاعُ الدِّينِيُّ فَالنَّظَرُ فِيهِ وَمَا فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ الصُّنْعِ الدَّالَّةِ عَلَى الصَّانِعِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ، وَمَا فِيهِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْآخِرَةِ وَبِثَوَابِهَا وَعِقَابِهَا، لِاشْتِمَالِهِ عَلَى أَسْبَابِ الْأُنْسِ وَاللَّذَّةِ مِنْ فُنُونِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْمَنَاكِحِ وَالْمَرَاكِبِ وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ الْبَهِيَّةِ، وَعَلَى أَسْبَابِ الْوَحْشَةِ وَالْمَشَقَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَكَارِهِ كَالنِّيرَانِ وَالصَّوَاعِقِ وَالسِّبَاعِ وَالْأَحْنَاشِ وَالسُّمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْمَخَاوِفِ.

---

[1] سورة الْفُرْقَانِ، الآية 49.

[2] سورة يس، الآية 33.

[3] سورة النَّحْلِ، الآية 21.

وَقَدِ اسْتُدِلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾[1] عَلَى أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَصِحُّ أَنْ يُنْتَفَعَ بِهَا وَلَمْ تَجْرِ مَجْرَى الْمَحْظُورَاتِ فِي الْعَقْلِ خُلِقَتْ فِي الْأَصْلِ مُبَاحَةً مُطْلَقًا لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا وَيَسْتَنْفِعَ بِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِقَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَعْنَى خَلَقَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَجْهُ صِحَّةٍ؟

قُلْتُ: إِنْ أَرَادَ بِالْأَرْضِ الْجِهَاتِ السُّفْلِيَّةَ دُونَ الْغَبْرَاءِ –كَمَا تُذْكَرُ السَّمَاءُ وَتُرَادُ الْجِهَاتُ الْعُلْوِيَّةُ– جَازَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْغَبْرَاءَ وَمَا فِيهَا وَاقِعَةٌ فِي الْجِهَاتِ السُّفْلِيَّةِ، وَ"جَمِيعًا": نُصِبَ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْمَوْصُولِ الثَّانِي.

وَالِاسْتِوَاءُ: الِاعْتِدَالُ وَالِاسْتِقَامَةُ، يُقَالُ: اسْتَوَى الْعُودُ وَغَيْرُهُ إِذَا قَامَ وَاعْتَدَلَ، ثُمَّ قِيلَ: اسْتَوَى إِلَيْهِ كَالسَّهْمِ الْمُرْسَلِ إِذَا قَصَدَهُ قَصْدًا مُسْتَوِيًا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْوِيَ عَلَى شَيْءٍ، وَمِنْهُ اسْتُعِيرَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[2]، أَيْ قَصَدَ إِلَيْهَا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ بَعْدَ خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرِيدَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ خَلْقَ شَيْءٍ آخَرَ، وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ جِهَاتُ الْعُلُوِّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى فَوْقُ، وَالضَّمِيرُ فِي "فَسَوَّاهُنَّ": ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ.

وَ ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾[3]: تَفْسِيرُهُ، كَقَوْلِهِمْ: رُبَّهُ رَجُلًا، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى السَّمَاءِ، وَالسَّمَاءُ فِي مَعْنَى الْجِنْسِ، وَقِيلَ: جَمْعُ سِمَاءَةٍ، وَالْوَجْهُ الْعَرَبِيُّ هُوَ الْأَوَّلُ، وَمَعْنَى تَسْوِيَتِهِنَّ: تَعْدِيلُ خَلْقِهِنَّ، وَتَقْدِيمُهُ، وَإِخْلَاؤُهُ مِنَ الْعِوَجِ وَالْفُطُورِ، أَوْ إِتْمَامُ خَلْقِهِنَّ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]، فَمِنْ ثَمَّ خَلَقَهُنَّ خَلْقًا مُسْتَوِيًا مُحْكَمًا مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ، مَعَ خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ عَلَى حَسَبِ حَاجَاتِ أَهْلِهَا وَمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَسَّرْتَ بِهِ مَعْنَى الِاسْتِوَاءِ إِلَى السَّمَاءِ يُنَاقِضُهُ "ثُمَّ"، لِإِعْطَائِهِ مَعْنَى التَّرَاخِي وَالْمُهْلَةِ.

قُلْتُ: "ثُمَّ" هَهُنَا لِمَا بَيْنَ الْخَلْقَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ وَفَضْلِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ، لَا لِلتَّرَاخِي فِي الْوَقْتِ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[5] عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِمَعْنَى

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَلَد، الآية 17.

التَّرَاخِي فِي الْوَقْتِ لَمْ يَلْزَمْ مَا اعْتَرَضْتَ بِهِ، لَأَنَّ الْمَعْنَى "أَنَّهُ" حِينَ قُصِدَ إِلَى السَّمَاءِ لَمْ يَحْدُثْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ –أَيْ فِي تَضَاعِيفِ الْقَصْدِ إِلَيْهَا– خَلْقًا آخَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا يُنَاقِضُ هَذَا قَوْلَهُ: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[1]؟

قُلْتُ: لَا، لِأَنَّ جِرْمَ الْأَرْضِ تَقَدَّمَ خَلْقُهُ خَلْقَ السَّمَاءِ، وَأَمَّا دَحْوُهَا فَمُتَأَخِّرٌ، وَعَنِ الْحَسَنِ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ فِي مَوْضِعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَهَيْئَةِ الْفِهْرِ، عَلَيْهَا دُخَانٌ مُلْتَزِقٌ بِهَا، ثُمَّ أَصْعَدَ الدُّخَانَ وَخَلَقَ مِنْهُ السَّمَاوَاتِ، وَأَمْسَكَ الْفِهْرَ فِي مَوْضِعِهَا وَبَسَطَ مِنْهَا الْأَرْضَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾[2]، وَهُوَ الِالْتِزَاقُ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[3]

﴿وَإِذْ﴾[4]: نُصِبَ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِقَالُوا، وَالْمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلْأَكٍ عَلَى الْأَصْلِ، كَالشَّمَائِلِ فِي جَمْعِ شَمْأَلٍ، وَإِلْحَاقُ التَّاءِ لِتَأْنِيثِ الْجَمْعِ، وَ﴿جَاعِلٌ﴾[5] مِنْ (جَعَلَ) الَّذِي لَهُ مَفْعُولَانِ، دَخَلَ عَلَى الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ وَهَمَا قَوْلُهُ: ﴿فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[6]، فَكَانَا مَفْعُولَيْهِ، وَمَعْنَاهُ مُصَيِّرٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، وَالْخَلِيفَةُ: مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ، وَالْمَعْنَى: خَلِيفَةً مِنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا سُكَّانَ الْأَرْضِ فَخَلَفَهُمْ فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ.

---

[1] سورة النَّازِعَاتِ، الآية 30.

[2] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 30.

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: خَلَائِفُ، أَوْ خُلَفَاءُ؟

قُلْتُ: أُرِيدَ بِالْخَلِيفَةِ آدَمُ، وَاسْتُغْنِيَ بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ بَنِيهِ كَمَا يُسْتَغْنَى بِذِكْرِ أَبِي الْقَبِيلَةِ فِي قَوْلِكَ: مُضَرُ وَهَاشِمٌ. أَوْ أُرِيدَ مَنْ يَخْلُفُكُمْ، أَوْ خَلْفًا يَخْلُفُكُمْ فَوُحِّدَ لِذَلِكَ، وَقُرِئَ: (خَلِيقَةً) بِالْقَافِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: خَلِيفَةٌ مِنِّي، لِأَنَّ آدَمَ كَانَ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَكَذَلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: لِأَيِّ غَرَضٍ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ؟

قُلْتُ: لِيَسْأَلُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَيُجَابُوا بِمَا أُجِيبُوا بِهِ فَيَعْرِفُوا حِكْمَتَهُ فِي اسْتِخْلَافِهِمْ قَبْلَ كَوْنِهِمْ؛ صِيَانَةً لَهُمْ عَنِ اعْتِرَاضِ الشُّبْهَةِ فِي وَقْتِ اسْتِخْلَافِهِمْ، وَقِيلَ: لِيُعَلِّمَ عِبَادَهُ الْمُشَاوَرَةَ فِي أُمُورِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُقْدِمُوا عَلَيْهَا، وَعَرَضَهَا عَلَى ثِقَاتِهِمْ وَنَصَائِحِهِمْ، وَإِنْ كَانَ هُوَ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ غَنِيًّا عَنِ الْمُشَاوَرَةِ.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[2]: تَعَجُّبٌ مِنْ أَنْ يَسْتَخْلِفَ مَكَانَ أَهْلِ الطَّاعَةِ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا الْخَيْرَ، وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ عَرَفُوا ذَلِكَ حَتَّى تَعَجَّبُوا مِنْهُ وَإِنَّمَا هُوَ غَيْبٌ؟

قُلْتُ: عَرَفُوهُ بِإِخْبَارٍ مِنَ اللَّهِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ اللَّوْحِ، أَوْ ثَبَتَ فِي عِلْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَحْدَهُمْ هُمُ الْخَلْقُ الْمَعْصُومُونَ، وَكُلُّ خَلْقٍ سِوَاهُمْ لَيْسُوا عَلَى صِفَتِهِمْ، أَوْ قَاسُوا أَحَدَ الثَّقَلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ حَيْثُ أُسْكِنُوا الْأَرْضَ فَأَفْسَدُوا فِيهَا قَبْلَ سُكْنَى الْمَلَائِكَةِ، وَقُرِئَ: (يَسْفُكُ) بِضَمِّ الْفَاءِ، وَيُسْفِكُ وَيَسْفِكُ مِنْ أَسْفَكَ وَسَفَكَ، وَالْوَاوُ فِي "وَنَحْنُ" لِلْحَالِ، كَمَا تَقُولُ: أَتُحْسِنُ إِلَى فُلَانٍ وَأَنَا أَحَقُّ مِنْهُ بِالْإِحْسَانِ، وَالتَّسْبِيحُ: تَبْعِيدُ اللَّهِ عَنِ السُّوءِ، وَكَذَلِكَ تَقْدِيسُهُ، مِنْ سَبَحَ فِي الْأَرْضِ وَالْمَاءِ، وَقَدَّسَ فِي الْأَرْضِ: إِذَا ذَهَبَ فِيهَا وَأَبْعَدَ، وَ"بِحَمْدِكَ" فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ نُسَبِّحُ حَامِدِينَ لَكَ وَمُلْتَبِسِينَ بِحَمْدِكَ، لِأَنَّهُ لَوْلَا إِنْعَامُكَ عَلَيْنَا بِالتَّوْفِيقِ وَاللُّطْفِ لَمْ نَتَمَكَّنْ مِنْ عِبَادَتِكَ.

﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]، أَيْ: أَعْلَمُ مِنَ الْمَصَالِحِ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ خَفِيٌّ عَلَيْكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا بَيَّنَ لَهُمْ تِلْكَ الْمَصَالِحَ؟

---

[1] سورة ص، الآية 26.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

قُلْتُ: كَفَى الْعِبَادَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ كُلَّهَا حَسَنَةٌ وَحِكْمَةٌ، وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ الْحُسْنِ وَالْحِكْمَةِ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَ لَهُمْ بَعْضَ ذَلِكَ فِيمَا أَتْبَعَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1].

وَاشْتِقَاقُهُمْ "آدَمَ" مِنَ الْأَدْمَةِ، وَمِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، نَحْوُ اشْتِقَاقُهُمْ: "يَعْقُوبَ" مِنَ الْعَقِبِ، وَ"إِدْرِيسَ" مِنَ الدَّرْسِ، وَ"إِبْلِيسَ" مِنَ الْإِبْلَاسِ، وَمَا آدَمُ إِلَّا اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ، وَأَقْرَبُ أَمْرِهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى فَاعَلَ، كَآزَرَ، وَعَازَرَ، وَعَابَرَ، وَشَالَخَ، وَفَالَغَ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ.

﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[2]، أَيْ: أَسْمَاءَ الْمُسَمَّيَاتِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ لِكَوْنِهِ مَعْلُومًا مَدْلُولًا عَلَيْهِ بِذِكْرِ الْأَسْمَاءِ، لِأَنَّ الِاسْمَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُسَمًّى، وَعُوِضَ مِنْهُ اللَّامَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا زَعَمْتَ أَنَّهُ حُذِفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَأَنَّ الْأَصْلَ: وَعَلَّمَ آدَمَ مُسَمَّيَاتِ الْأَسْمَاءِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ التَّعْلِيمَ وَجَبَ تَعْلِيقُهُ بِالْأَسْمَاءِ لَا بِالْمُسَمَّيَاتِ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾[4]، ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[5]؛ فَكَمَا عُلِّقَ الْإِنْبَاءُ بِالْأَسْمَاءِ لَا بِالْمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُقَلْ: أَنْبِئُونِي بِهَؤُلَاءِ، وَأَنْبِئْهُمْ بِهِمْ، وَجَبَ تَعْلِيقُ التَّعْلِيمِ بِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى تَعْلِيمِهِ أَسْمَاءَ الْمُسَمَّيَاتِ؟

قُلْتُ: أَرَاهُ الْأَجْنَاسَ الَّتِي خَلَقَهَا، وَعَلَّمَهُ أَنَّ هَذَا اسْمُهُ فَرَسٌ، وَهَذَا اسْمُهُ بَعِيرٌ، وَهَذَا اسْمُهُ كَذَا، وَهَذَا اسْمُهُ كَذَا، وَعَلَّمَهُ أَحْوَالَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾[6]، أَيْ: عَرَضَ الْمُسَمَّيَاتِ، وَإِنَّمَا ذُكِّرَ لِأَنَّ فِي الْمُسَمَّيَاتِ الْعُقَلَاءَ فَغَلَّبَهُمْ، وَإِنَّمَا اسْتَنْبَأَهُمْ –وَقَدْ عَلِمَ عَجْزَهُمْ عَنِ الْإِنْبَاءِ– عَلَى سَبِيلِ التَّبْكِيتِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة مَرْيَمَ، الآية 4.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، يَعْنِي فِي زَعْمِكُمْ أَنِّي أَسْتَخْلِفُ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ سَفَّاكِينَ لِلدِّمَاءِ؛ إِرَادَةً لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ فِيمَنْ يَسْتَخْلِفُهُ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُصُولُ الْفَوَائِدِ كُلِّهَا مَا يَسْتَأْهِلُونَ لِأَجْلِهِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا، فَأَرَاهُمْ بِذَلِكَ وَبَيَّنَ لَهُمْ بَعْضَ مَا أُجْمِلَ مِنْ ذِكْرِ الْمَصَالِحِ فِي اسْتِخْلَافِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3]: اسْتِحْضَارٌ لِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[4]، إِلَّا أَنَّهُ جَاءَ بِهِ عَلَى وَجْهٍ أَبْسَطَ مِنْ ذَلِكَ وَأَشْرَحَ، وَقُرِئَ: (وَعُلِّمَ آدَمُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (عَرَضَهُنَّ)، وَقَرَأَ أُبَيٌّ: (عَرَضَهَا)، وَالْمَعْنَى عَرَضَ مُسَمَّيَاتِهِنَّ أَوْ مُسَمَّيَاتِهَا، لِأَنَّ الْعَرْضَ لَا يَصِحُّ فِي الْأَسْمَاءِ، وَقُرِئَ: (أَنْبِيهِمْ) بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءً، (وَأَنْبِهِمْ) بِحَذْفِهَا، وَالْهَاءُ مَكْسُورَةٌ فِيهِمَا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[5]

السُّجُودُ لِلَّهِ –تَعَالَى– عَلَى سَبِيلِ الْعِبَادَةِ، وَلِغَيْرِهِ عَلَى وَجْهِ التَّكْرِمَةِ كَمَا سَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ لِآدَمَ، وَأَبُو يُوسُفَ وَإِخْوَتُهُ لَهُ؟ وَيَجُوزُ أَنْ تَخْتَلِفَ الْأَحْوَالُ وَالْأَوْقَاتُ فِيهِ، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ: (لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا) بِضَمِّ التَّاءِ لِلْإِتْبَاعِ، وَلَا يَجُوزُ اسْتِهْلَاكُ الْحَرَكَةِ الْإِعْرَابِيَّةِ بِحَرَكَةِ الْإِتْبَاعِ إِلَّا فِي لُغَةٍ ضَعِيفَةٍ، كَقَوْلِهِمْ: (الْحَمْدِ لِلَّهِ).

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾[1]: اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ، لِأَنَّهُ كَانَ جِنِّيًّا وَاحِدًا بَيْنَ أَظْهُرِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَغْمُورًا بِهِمْ، فَغُلِّبُوا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدُوا﴾[2]، ثُمَّ اسْتُثْنِيَ مِنْهُمُ اسْتِثْنَاءَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْعَلَ مُنْقَطِعًا ﴿أَبَى﴾[3] امْتَنَعَ مِمَّا أُمِرَ بِهِ ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾[4] عَنْهُ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: مِنْ جِنْسِ كَفَرَةِ الْجِنِّ وَشَيَاطِينِهِمْ؛ فَلِذَلِكَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[5].

السُّكْنَى مِنَ السُّكُونِ، لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ اللُّبْثِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَ﴿أَنْتَ﴾[6] تَأْكِيدٌ لِلْمُسْتَكِنِّ فِي ﴿اسْكُنْ﴾[7]، لِيَصِحَّ الْعَطْفُ عَلَيْهِ، وَ﴿رَغَدًا﴾[8] وَصْفٌ لِلْمَصْدَرِ، أَيْ: أَكَلًا رَغَدًا وَاسِعًا رَافِهًا، وَ﴿حَيْثُ﴾[9]: لِلْمَكَانِ الْمُبْهَمِ، أَيْ: أَيَّ مَكَانٍ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿شِئْتُمَا﴾[10]: أُطْلِقَ لَهُمَا الْأَكْلُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّوْسِعَةِ الْبَالِغَةِ الْمُزِيحَةِ لِلْعِلَّةِ، حِينَ لَمْ يُحْظَرْ عَلَيْهِمَا بَعْضُ الْأَكْلِ وَلَا بَعْضُ الْمَوَاضِعِ الْجَامِعَةِ لِلْمَأْكُولَاتِ مِنَ الْجَنَّةِ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمَا عُذْرٌ فِي التَّنَاوُلِ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ أَشْجَارِهَا الْفَائِتَةِ لِلْحَصْرِ، وَكَانَتِ الشَّجَرَةُ فِيمَا قِيلَ: "الْحِنْطَةُ" أَوِ "الْكَرْمَةُ" أَوِ "التِّينَةُ"، وَقُرِئَ: (وَلَا تِقْرَبَا) بِكَسْرِ التَّاءِ، وَ"هَذِي" و"الشِّجَرَةَ" بِكَسْرِ الشِّينِ، وَ"الشِّيرَةَ" بِكَسْرِ الشِّينِ وَالْيَاءِ، وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو أَنَّهُ كَرِهَهَا، وَقَالَ: يَقْرَأُ بِهَا بَرَابِرَةُ مَكَّةَ وَسُودَانُهَا.

﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[11]: مِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، "فَتَكُونَا" جَزْمُ عَطْفٍ عَلَى "تَقْرَبَا"، أَوْ نَصْبُ جَوَابٍ لِلنَّهْيِ، الضَّمِيرُ فِي "عَنْهَا" لِلشَّجَرَةِ، أَيْ فَحَمَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَلَى

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية .
2 سورة الْبَقَرَة، الآية .
3 سورة الْبَقَرَة، الآية .
4 سورة الْبَقَرَة، الآية .
5 سورة الْكَهْف، الآية 50.
6 سورة الْبَقَرَة، الآية .
7 سورة الْبَقَرَة، الآية .
8 سورة الْبَقَرَة، الآية .
9 سورة الْبَقَرَة، الآية .
10 سورة الْبَقَرَة، الآية .
11 سورة الْبَقَرَة، الآية .

الزَّلَّةِ بِسَبَبِهَا، وَتَحْقِيقُهُ" فَأَصْدَرَ الشَّيْطَانُ زَلَّتَهُمَا عَنْهَا، وَ(عَنْ): هَذِهِ مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[1]، وَقَوْلِهِ:

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُـــــرْبِ

وَقِيلَ: فَأَزَلَّهُمَا عَنِ الْجَنَّةِ بِمَعْنَى أَذْهَبَهُمَا عَنْهَا وَأَبْعَدَهُمَا، كَمَا تَقُولُ: زَلَّ عَنْ مَرْتَبَتِهِ، وَزَلَّ عَنِّي ذَاكَ: إِذَا ذَهَبَ عَنْكَ، وَزَلَّ مِنَ الشَّهْرِ كَذَا، وَقُرِئَ: (فَأَزَالَهُمَا) ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[2] مِنَ النَّعِيمِ وَالْكَرَامَةِ، أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَ الضَّمِيرُ لِلشَّجَرَةِ فِي (عَنْهَا)، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا)، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ لِلشَّجَرَةِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: صَدَرَتْ وَسْوَسَتُهُ عَنْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَوَصَّلَ إِلَى إِزْلَالِهِمَا وَوَسْوَسَتِهِ لَهُمَا بَعْدَمَا قِيلَ لَهُ: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[3]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُمْنَعَ دُخُولَهَا عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيبِ وَالتَّكْرِمَةِ كَدُخُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا يُمْنَعَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى جِهَةِ الْوَسْوَسَةِ ابْتِلَاءً لِآدَمَ وَحَوَّاءَ، وَقِيلَ: كَانَ يَدْنُو مِنَ السَّمَاءِ فَيُكَلِّمُهُمَا، وَقِيلَ: قَامَ عِنْدَ الْبَابِ فَنَادَى.

وَرُوِيَ أَنَّهُ أَرَادَ الدُّخُولَ فَمَنَعَتْهُ الْخَزَنَةُ، فَدَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ حَتَّى دَخَلَتْ بِهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، قِيلَ: ﴿اهْبِطُوا﴾[4]: خِطَابٌ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ، وَقِيلَ: وَالْحَيَّةُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ وَالْمُرَادُ هُمَا وَذُرِّيَّتُهُمَا، لِأَنَّهُمَا لَمَّا كَانَا أَصْلَ الْإِنْسِ وَمُتَشَعَّبُهُمْ جُعِلَا كَأَنَّهُمَا الْإِنْسُ كُلُّهُمْ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[5].

---

[1] سورة الْكَهْفِ، الآية 82.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة طه، الآية 123.

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]، وَمَا هُوَ إِلَّا حُكْمٌ يَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهُمْ.

وَمَعْنَى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[3]: مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ التَّعَادِي وَالتَّبَاغِي وَتَضْلِيلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَالْهُبُوطُ: النُّزُولُ إِلَى الْأَرْضِ، ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾[4] مَوْضِعُ اسْتِقْرَارٍ، أَوِ اسْتِقْرَارٌ ﴿وَمَتَاعٍ﴾[5] وَتَمَتُّعٍ بِالْعَيْشِ، ﴿إِلَى حِينٍ﴾[6]: يُرِيدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ: إِلَى الْمَوْتِ.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[7]

مَعْنَى تَلَقِّي الْكَلِمَاتِ اسْتِقْبَالُهَا بِالْأَخْذِ وَالْقَبُولِ وَالْعَمَلِ بِهَا حِينَ عَلِمَهَا، وَقُرِئَ بِنَصْبِ (آدَمَ) وَرَفْعِ (الْكَلِمَاتِ)، عَلَى أَنَّهَا اسْتَقْبَلَتْهُ بِأَنْ بَلَغَتْهُ وَاتَّصَلَتْ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا هُنَّ؟

قُلْتُ: قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾[8] ....الْآيَةَ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ مَا قَالَهُ أَبُونَا آدَمُ حِينَ اقْتَرَفَ الْخَطِيئَةَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ".

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[8] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 23.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: "يَا رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ الرُّوحَ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: يَا رَبِّ إِنْ تُبْتَ وَأَصْلَحْتُ أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ".

وَاكْتُفِيَ بِذِكْرِ تَوْبَةِ آدَمَ دُونَ تَوْبَةِ حَوَّاءَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَبَعًا لَهُ، كَمَا طُوِيَ ذِكْرُ النِّسَاءِ فِي أَكْثَرِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لِذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾[1]، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[2]: فَرَجَعَ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْقَبُولِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كُرِّرَ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾[3]؟

قُلْتُ: لِلتَّأْكِيدِ وَلِمَا نِيطَ بِهِ مِنْ زِيَادَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا جَوَابُ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ؟

قُلْتُ: الشَّرْطُ الثَّانِي مَعَ جَوَابِهِ، كَقَوْلِكَ: إِنْ جِئْتَنِي فَإِنْ قَدَرْتُ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ، وَالْمَعْنَى: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى بِرَسُولٍ أَبْعَثُهُ إِلَيْكُمْ وَكِتَابٍ أُنْزِلُهُ عَلَيْكُمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[5] فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾[6].

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جِيءَ بِكَلِمَةِ الشَّكِّ، وَإِتْيَانُ الْهُدَى كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ لِوُجُوبِهِ؟

قُلْتُ: لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالتَّوْحِيدَ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ بَعْثَةُ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالُ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَبْعَثْ رَسُولًا وَلَمْ يُنْزِلْ كِتَابًا كَانَ الْإِيمَانُ بِهِ وَتَوْحِيدُهُ وَاجِبًا، لِمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ، وَمَكَّنَهُمْ مِنَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْخَطِيئَةُ الَّتِي أُهْبِطَ بِهَا آدَمُ إِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً فَالْكَبِيرَةُ لَا تَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؟ وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً، فَلِمَ جَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى بِسَبَبِهَا مِنْ نَزْعِ اللِّبَاسِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِهْبَاطِ مِنَ السَّمَاءِ –كَمَا فُعِلَ بِإِبْلِيسَ– وَنِسْبَتِهِ إِلَى الْغَيِّ وَالْعِصْيَانِ، وَنِسْيَانِ الْعَهْدِ وَعَدَمِ الْعَزِيمَةِ وَالْحَاجَةِ إِلَى التَّوْبَةِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَاف، الآية 23.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة طه، الآية 123.

قُلْتُ: مَا كَانَتْ إِلَّا صَغِيرَةً مَغْمُورَةً بِأَعْمَالِ قَلْبِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْأَفْكَارِ الصَّالِحَةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ الْأَعْمَالِ وَأَعْظَمُ الطَّاعَاتِ، وَإِنَّمَا جَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى؛ تَعْظِيمًا لِلْخَطِيئَةِ وَتَفْظِيعًا لِشَأْنِهَا وَتَهْوِيلًا، لِيَكُونَ ذَلِكَ لُطْفًا لَهُ وَلِذَرِّيَّتِهِ فِي اجْتِنَابِ الْخَطَايَا وَاتِّقَاءِ الْمَآثِمِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِخَطِيئَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَيْفَ يَدْخُلُهَا ذُو خَطَايَا جَمَّةٍ؟! وَقُرِئَ: (فَمَنْ تَبِعَ هُدَيَّ) عَلَى لُغَةِ هُذَيْلٍ، (فَلَا خَوْفَ) بِالْفَتْحِ.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[1]

"إِسْرَائِيلُ": هُوَ يَعْقُوبُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– لَقَبٌ لَهُ، وَمَعْنَاهُ فِي لِسَانِهِمْ: صَفْوَةُ اللَّهِ، وَقِيلَ: عَبْدُ اللَّهِ، وَهُوَ بِزِنَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، غَيْرُ مُنْصَرِفٍ مِثْلِهِمَا لِوُجُودِ الْعَلَمِيَّةِ وَالْعُجْمَةِ. وَقُرِئَ: (إِسْرَائِلَ) و(إِسْرَائِلَّ).

وَذِكْرُهُمُ النِّعْمَةَ: أَلَّا يُخِلُّوا بِشُكْرِهَا، وَيَعْتَدُّوا بِهَا، وَيَسْتَعْظِمُوهَا، وَيُطِيعُوا مَانِحَهَا، وَأَرَادَ بِهَا مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى آبَائِهِمْ مِمَّا عَدَّدَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْجَاءِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَذَابِهِ، وَمِنَ الْغَرَقِ، وَمِنَ الْعَفْوِ عَنِ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ، وَالتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِدْرَاكِ زَمَنِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْمُبَشَّرِ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَالْعَهْدُ يُضَافُ إِلَى الْمُعَاهِدِ وَالْمُعَاهَدِ جَمِيعًا، يُقَالُ: أَوْفَيْتُ بِعَهْدِي، أَيْ بِمَا عَاهَدْتُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[2]، وَأَوْفَيْتُ بِعَهْدِكَ: أَيْ بِمَا عَاهَدَتْكَ عَلَيْهِ.

وَمَعْنَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[3]: وَأَوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمُونِي عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِي وَالطَّاعَةِ لِي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾[4]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾[5]، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة التَّوْبَة، الآية 111.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْفَتْح، الآية 10.

[5] سورة التَّوْبَة، الآية 75.

عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]، ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2] بِمَا عَاهَدْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ عَلَى حَسَنَاتِكُمْ، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[3]: فَلَا تَنْقُضُوا عَهْدِي، وَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدًا رَهْبَتُهُ، وَهُوَ أَوْكَدُ فِي إِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ مِنْ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[4].

وَقُرِئَ: (أُوَفِّ) بِالتَّشْدِيدِ: أَيْ أُبَالِغُ فِي الْوَفَاءِ بِعَهْدِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[5].

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[6]: مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ وَوَعَدُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَالْكِتَابِ الْمُعْجِزِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾[7]: أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، أَوْ أَوَّلَ فَرِيقٍ أَوْ فَوْجٍ كَافِرٍ بِهِ، أَوْ وَلَا يَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، كَقَوْلِكَ: كَسَانَا حُلَّةً، أَيْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا.

وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَبِصِفَتِهِ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا الْمُبَشَّرِينَ بِزَمَانِ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَالْمُسْتَفْتِحِينَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، وَكَانُوا يَعِدُونَ اتِّبَاعَهُ أَوَّلَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَلَمَّا بُعِثَ كَانَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْعَكْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[8] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[9].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[10]، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: وَلَا تَكُونُوا مِثْلَ أَوَّلِ كَافِرٍ بِهِ، يَعْنِي مَنْ أَشْرَكَ بِهِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، أَيْ: وَلَا تَكُونُوا –وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَهُ مَذْكُورًا فِي التَّوْرَاةِ

---

[1] سورة الْأَحْزَاب، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة النَّمْل، الآية 189.

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[9] سورة الْبَيِّنَة، الآيات 1 إلى 4.

[10] سورة الْبَقَرَة، الآية 89.

مَوْصُوفًا– مِثْلَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ لَا كِتَابَ لَهُ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾[1] لِمَا مَعَكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَفَرُوا بِمَا يُصَدِّقُهُ فَقَدْ كَفَرُوا بِهِ، وَالِاشْتِرَاءُ اسْتِعَارَةٌ لِلِاسْتِبْدَالِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[2]، وَقَوْلِهِ:

كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّـــرَا

وَقَوْلِهِ:

فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكِ بِالْجَهْلِ

يَعْنِي: وَلَا تَسْتَبْدِلُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا وَإِلَّا فَالثَّمَنُ هُوَ الْمُشْتَرَى بِهِ، وَالثَّمَنُ الْقَلِيلُ الرِّيَاسَةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي قَوْمِهِمْ، خَافُوا عَلَيْهَا الْفَوَاتَ لَوْ أَصْبَحُوا أَتْبَاعًا لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَاسْتَبْدَلُوهَا –وَهِيَ بَدَلٌ قَلِيلٌ وَمَتَاعٌ يَسِيرٌ– بِآيَاتِ اللَّهِ وَبِالْحَقِّ الَّذِي كُلُّ كَثِيرٍ إِلَيْهِ قَلِيلٌ، وَكُلُّ كَبِيرٍ إِلَيْهِ حَقِيرٌ، فَمَا بَالُ الْقَلِيلِ الْحَقِيرِ، وَقِيلَ: كَانَتْ عَامَّتُهُمْ يُعْطُونَ أَحْبَارَهُمْ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ، وَيَهْدُونَ إِلَيْهِمُ الْهَدَايَا، وَيَرْشُونَهُمُ الرِّشَا عَلَى تَحْرِيفِهِمُ الْكَلِمَ، وَتَسْهِيلِهِمْ لَهُمْ مَا صَعُبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَدِرُّونَ عَلَيْهِمُ الْأَمْوَالَ، لِيَكْتُمُوا أَوْ يُحَرِّفُوا.

﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[3]

الْبَاءُ الَّتِي فِي ﴿بِالْبَاطِلِ﴾[4] إِنْ كَانَتْ صِلَةً مِثْلَهَا فِي قَوْلِكَ: لَبِسْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ خَلَطْتُهُ بِهِ كَانَ الْمَعْنَى: وَلَا تَكْتُبُوا فِي التَّوْرَاةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا فَيَخْتَلِطَ الْحَقُّ الْمُنَزَّلُ بِالْبَاطِلِ الَّذِي كَتَبْتُمْ، حَتَّى لَا يُمَيَّزَ بَيْنَ حَقِّهَا وَبَاطِلِكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ بَاءَ الِاسْتِعَانَةِ كَالَّتِي فِي قَوْلِكَ: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ، كَانَ الْمَعْنَى: وَلَا تَجْعَلُوا الْحَقَّ مُلْتَبِسًا مُشْتَبَهًا بِبَاطِلِكُمُ الَّذِي تَكْتُبُونَهُ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 16.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَتَكْتُمُوا﴾[1]: جَزْمٌ دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ النَّهْيِ، بِمَعْنَى: وَلَا تَكْتُمُوا، أَوْ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ أَنْ، وَالْوَاوُ بِمَعْنَى الْجَمْعِ، أَيْ: وَلَا تَجْمَعُوا لُبْسَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَكِتْمَانَ الْحَقِّ، كَقَوْلِكَ: لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لُبْسُهُمْ وَكِتْمَانُهُمْ لَيْسَا بِفِعْلَيْنِ مُتَمَيِّزَيْنِ حَتَّى يُنْهَوْا عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّهُمْ إِذَا لَبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ فَقَدْ كَتَمُوا الْحَقَّ؟

قُلْتُ: بَلْ هُمَا مُتَمَيِّزَانِ، لِأَنَّ لُبْسَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَتْبِهِمْ فِي التَّوْرَاةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَكِتْمَانَهُمُ الْحَقَّ أَنْ يَقُولُوا: لَا نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ صِفَةَ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَوْ حُكْمَ كَذَا، أَوْ يَمْحُوا ذَلِكَ، أَوْ يَكْتُبُوهُ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: (وَتَكْتُمُونَ) بِمَعْنَى كَاتِمِينَ.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]: فِي حَالِ عِلْمِكُمْ أَنَّكُمْ لَابِسُونَ كَاتِمُونَ، وَهُوَ أَقْبَحُ لَهُمْ، لِأَنَّ الْجَهْلَ بِالْقَبِيحِ رُبَّمَا عُذِرَ رَاكِبُهُ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[3]، يَعْنِي: صَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ وَزَكَاتَهُمْ، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[4] مِنْهُمْ، لِأَنَّ الْيَهُودَ لَا رُكُوعَ فِي صَلَاتِهِمْ، وَقِيلَ: "الرُّكُوعُ": الْخُضُوعُ وَالِانْقِيَادُ لِمَا يَلْزَمُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالرُّكُوعِ: الصَّلَاةُ، كَمَا يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالسُّجُودِ، وَأَنْ يَكُونَ أَمْرًا بِأَنْ يُصَلِّيَ مَعَ الْمُصَلِّينَ، يَعْنِي فِي الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَصَلُّوهَا مَعَ الْمُصَلِّينَ، لَا مُنْفَرِدِينَ.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[5]

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَتَأْمُرُونَ: الْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ مَعَ التَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ، وَالْبِرُّ: سِعَةُ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ، وَمِنْهُ الْبَرُّ لِسِعَتِهِ، وَيَتَنَاوَلُ كُلَّ خَيْرٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، وَكَانَ الْأَحْبَارُ يَأْمُرُونَ مَنْ نَصَحُوهُ فِي السِّرِّ مَنْ أَقَارِبِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَا يَتَّبِعُونَهُ، وَقِيلَ: كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالصَّدَقَةِ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ، وَإِذَا أُتُوا بِصَدَقَاتٍ لِيُفَرِّقُوهَا خَانُوا فِيهَا.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ: بَلَغَنِي أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعُوا عَلَى نَاسٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَقَالُوا لَهُمْ: قَدْ كُنْتُمْ تَأْمُرُونَنَا بِأَشْيَاءَ عَمِلْنَاهَا فَدَخَلْنَا الْجَنَّةَ، قَالُوا: كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِهَا وَنُخَالِفُ إِلَى غَيْرِهَا.

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[1] وَتَتْرُكُونَهَا مِنَ الْبِرِّ كَالْمَنْسِيَّاتِ، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[2]، تَبْكِيتٌ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]، يَعْنِي تَتْلُونَ التَّوْرَاةَ وَفِيهَا نَعْتُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ: فِيهَا الْوَعِيدُ عَلَى الْخِيَانَةِ وَتَرْكِ الْبِرِّ وَمُخَالَفَةِ الْقَوْلِ الْعَمَلَ.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[4]: تَوْبِيخٌ عَظِيمٌ بِمَعْنَى: أَفَلَا تَفْطِنُونَ لِقُبْحِ مَا أَقْدَمْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَصُدَّكُمُ اسْتِقْبَاحُهُ عَنِ ارْتِكَابِهِ، وَكَأَنَّكُمْ فِي ذَلِكَ مَسْلُوبُو الْعُقُولِ، لِأَنَّ الْعُقُولَ تَأْبَاهُ وَتَدْفَعُهُ، وَنَحْوُهُ:﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[5].

﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ عَلَى حَوَائِجِكُمْ إِلَى اللَّهِ ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[6]، أَيْ بِالْجَمْعِ بَيْنَهُمَا، وَأَنْ تُصَلُّوا صَابِرِينَ عَلَى تَكَالِيفِ الصَّلَاةِ، مُحْتَمِلِينَ لِمَشَاقِّهَا، وَمَا يَجِبُ فِيهَا مِنْ إِخْلَاصِ الْقَلْبِ، وَحِفْظِ النِّيَّاتِ، وَدَفْعِ الْوَسَاوِسِ، وَمُرَاعَاةِ الْآدَابِ، وَالِاحْتِرَاسِ مِنَ الْمَكَارِهِ مَعَ الْخَشْيَةِ وَالْخُشُوعِ، وَاسْتِحْضَارِ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ انْتِصَابٌ بَيْنَ يَدَيْ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ؛ لِيُسْأَلَ فَكُّ الرِّقَابِ عَنْ سُخْطِهِ وَعَذَابِهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الأَنْبِيَاء، الآية 67.

[6] سورة طه، الآية 132.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[1] أَوْ: وَاسْتَعِينُوا عَلَى الْبَلَايَا وَالنَّوَائِبِ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَالِالْتِجَاءِ إِلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ وُقُوعِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ "قَثَمٌ "وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَاسْتَرْجَعَ وَتَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ، ثُمَّ قَامَ يَمْشِي إِلَى رَاحِلَتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ"؛ وَقِيلَ: الصَّبْرُ الصَّوْمُ، لِأَنَّهُ حَبْسٌ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِشَهْرِ رَمَضَانَ: شَهْرُ الصَّبْرِ وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالصَّلَاةِ الدُّعَاءُ، وَأَنْ يُسْتَعَانَ عَلَى الْبَلَايَا بِالصَّبْرِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَى الدُّعَاءِ، وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– فِي دَفْعِهِ.

﴿وَإِنَّهَا﴾[2] الضَّمِيرُ لِلصَّلَاةِ أَوْ لِلِاسْتِعَانَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ الَّتِي أُمِرَ بِهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَنُهُوا عَنْهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾[3] إِلَى ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾[4].

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾[5] لَشَاقَّةٌ ثَقِيلَةٌ مِنْ قَوْلِكَ: كَبُرَ عَلَيَّ هَذَا الْأَمْرُ ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[6].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا لَهَا لَمْ تَثْقُلْ عَلَى الْخَاشِعِينَ وَالْخُشُوعُ فِي نَفْسِهِ مِمَّا يَثْقُلُ؟ قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مَا ادُّخِرَ لِلصَّابِرِينَ عَلَى مَتَاعِبِهَا فَتَهُونُ عَلَيْهِمْ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾[7]، أَيْ: يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَ ثَوَابِهِ وَنَيْلَ مَا عِنْدَهُ، وَيَطْمَعُونَ فِيهِ، وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ: (يَعْلَمُونَ)، وَمَعْنَاهُ: يَعْلَمُونَ أَنْ لَا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ الْجَزَاءِ فَيَعْمَلُونَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ فُسِّرَ: ﴿يَظُنُّونَ﴾[8] بِيَتَيَقَّنُونَ.

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُوقِنْ بِالْجَزَاءِ وَلَمْ يَرْجُ الثَّوَابَ كَانَتْ عَلَيْهِ مَشَقَّةً خَالِصَةً فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ كَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُرَائِينَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَمِثْلُهُ مَنْ وُعِدَ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَائِعِ أُجْرَةً زَائِدَةً

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 122.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الشُّورَى، الآية 13.

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية 46.

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

عَلَى مِقْدَارِ عَمَلِهِ، فَتَرَاهُ يُزَاوِلُهُ بِرَغْبَةٍ وَنَشَاطٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ وَمُضَاحَكَةٍ لِحَاضِرِيهِ، كَأَنَّهُ يَسْتَلِذُّ مُزَاوَلَتَهُ بِخِلَافِ حَالِ عَامِلٍ يَتَسَخَّرُهُ بَعْضُ الظَّلَمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ". وَكَانَ يَقُولُ: "يَا بِلَالُ، رَوِّحْنَا".

وَالْخُشُوعُ: الْإِخْبَاتُ وَالتَّطَامُنُ، وَمِنْهُ: الْخُشْعَةُ لِلرَّمْلَةِ الْمُتَطَامِنَةِ.

وَأَمَّا الْخُضُوعُ: فَاللِّينُ وَالِانْقِيَادُ، وَمِنْهُ: خَضَعَتْ بِقَوْلِهَا إِذَا لَيَّنَتْهُ.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[1]

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾[2]: نَصْبُ عَطْفٍ عَلَى ﴿نِعْمَتِي﴾، أَيِ: اذْكُرُوا نِعْمَتِي وَتَفْضِيلِي، ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3]: عَلَى الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ النَّاسِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[4].

يُقَالُ: رَأَيْتُ عَالَمًا مِنَ النَّاسِ يُرَادُ الْكَثْرَةُ "يَوْمًا": يُرِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿لا تَجْزِي﴾[5]: لَا تَقْضِي عَنْهَا شَيْئًا مِنَ الْحُقُوقِ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي جَذَعَةِ ابْنِ نِيَارٍ: "تَجْزِي عَنْكَ وَلَا تَجْزِي عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ".

وَ ﴿شَيْئًا﴾[6]: مَفْعُولٌ بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ مَصْدَرٍ، أَيْ: قَلِيلًا مِنَ الْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى–: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[7].

وَمَنْ قَرَأَ (لَا تُجْزِئُ) مِنْ أَجْزَأَ عَنْهُ إِذَا أَغْنَى عَنْهُ، فَلَا يَكُونُ فِي قِرَاءَتِهِ إِلَّا بِمَعْنَى (شَيْئًا مِنَ الْإِجْزَاءِ) وَقَرَأَ أَبُو السِّرَارِ الْغَنَوِيُّ: (لَا تُجْزِي نَسَمَةٌ عَنْ نَسَمَةٍ شَيْئًا).

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 71.

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة مَرْيَم، الآية 60.

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَنْصُوبَةُ الْمَحَلِّ صِفَةٌ لِـ﴿يَوْمًا﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيْنَ الْعَائِدُ مِنْهَا إِلَى الْمَوْصُوفِ؟

قُلْتُ: هُوَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: لَا تَجْزِي فِيهِ، وَنَحْوُهُ مَا أَنْشَدَهُ أَبُو عَلِيٍّ:

تَرَوَّحِي أَجْدَرُ أَنْ تَقِيلِـــــــي

أَيْ: مَاءٌ أَجْدَرُ بِأَنْ تَقِيلِي فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْزِلُ فَيَقُولُ: اتُّسِعَ فِيهِ، فَأُجْرِيَ مَجْرَى الْمَفْعُولِ بِهِ فَحُذِفَ الْجَارُّ، ثُمَّ حُذِفَ الضَّمِيرُ كَمَا حُذِفَ مِنْ قَوْلِهِ: أَمْ مَالٌ أَصَابُوا، وَمَعْنَى التَّنْكِيرِ: أَنَّ نَفْسًا مِنَ الْأَنْفُسِ لَا تَجْزِي عَنْ نَفْسٍ مِنْهَا شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ الْإِقْنَاطُ الْكُلِّيُّ الْقَطَّاعُ لِلْمَطَامِعِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[2]، أَيْ: فِدْيَةٌ، لِأَنَّهَا مُعَادِلَةٌ لِلْمُفَدَّى، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ"، أَيْ: تَوْبَةٌ وَلَا فِدْيَةٌ.

وَقَرَأَ قَتَادَةُ: (وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً) عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَنَصْبِ الشَّفَاعَةِ، وَقِيلَ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَزْعُمُ أَنَّ آبَاءَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ فَأُوبِسُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تُقْبَلُ لِلْعُصَاةِ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ تَقْضِيَ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ حَقًّا أَخَلَّتْ بِهِ مَنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ، ثُمَّ نَفَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَاعَةَ شَفِيعٍ، فَعُلِمَ أَنَّهَا لَا تُقْبَلُ لِلْعُصَاةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الضَّمِيرُ فِي ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾[3] إِلَى أَيِّ النَّفْسَيْنِ يَرْجِعُ؟

قُلْتُ: إِلَى الثَّانِيَةِ الْعَاصِيَةِ غَيْرِ الْمُجْزَى عَنْهَا، وَهِيَ الَّتِي لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ، وَمَعْنَى لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ: إِنْ جَاءَتْ بِشَفَاعَةِ شَفِيعٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى النَّفْسِ الْأُولَى، عَلَى أَنَّهَا لَوْ شَفَعَتْ لَهَا لَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهَا، كَمَا لَا تُجْزِئُ عَنْهَا شَيْئًا، وَلَوْ أَعْطَتْ عَدْلًا عَنْهَا لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهَا.

﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[4]، يَعْنِي: مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ الْمُنَكَّرَةُ مِنَ النُّفُوسِ الْكَثِيرَةِ، وَالتَّذْكِيرُ بِمَعْنَى الْعِبَادِ وَالْأَنَاسِيِّ، كَمَا تَقُولُ: ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1]

أَصْلُ "آلٍ": أَهْلٌ، وَلِذَلِكَ يُصَغَّرُ بِأُهَيْلٍ، فَأُبْدِلَتْ هَاؤُهُ أَلِفًا، وَخُصَّ اسْتِعْمَالُهُ بِأُولِي الْخَطَرِ وَالشَّأْنِ كَالْمُلُوكِ وَأَشْبَاهِهِمْ، فَلَا يُقَالُ: آلُ الْإِسْكَافِ وَالْحَجَّامِ.

وَ"فِرْعَوْنُ": عَلَمٌ لِمَنْ مَلَكَ الْعَمَالِقَةَ، كَقَيْصَرَ لِمَلِكِ الرُّومِ، وَكِسْرَى لِمَلِكِ الْفُرْسِ، وَلِعُتُوِّ الْفَرَاعِنَةِ اشْتَقُّوا: تَفَرْعَنَ فُلَانٌ إِذَا عَتَا وَتَجَبَّرَ، وَفِي مُلَحِ بَعْضِهِمْ:

قَدْ جَاءَهُ الْمُوسَى الْكَلُومُ فَزَادَ فِي أَقْصَى تَفَرْعُنِهِ وَفَرْطِ عُرَامِـهِ

وَقُرِئَ: (أَنْجَيْنَاكُمْ) وَ(نَجَّيْتُكُمْ).

"يَسُومُونَكُمْ" مِنْ سَامَهُ خَسْفًا إِذَا أَوْلَاهُ ظُلْمًا، قَالَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ:

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَام النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ يَقِرَّ الْخَسْفُ فِينَـا

وَأَصْلُهُ مِنْ سَامَ السِّلْعَةَ إِذَا طَلَبَهَا، كَأَنَّهُ بِمَعْنَى يَبْغُونَكُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾[2]: وَيُرِيدُونَكُمْ عَلَيْهِ، وَالسُّوءُ: مَصْدَرُ السَّيِّئِ، يُقَالُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ وَسُوءِ الْفِعْلِ، يُرَادُ قُبْحُهُمَا.

وَمَعْنَى: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾[3] –وَالْعَذَابُ كُلُّهُ سَيِّئٌ –: أَشَدُّهُ وَأَفْظَعُهُ، كَأَنَّهُ قَبَّحَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى سَائِرِهِ.

وَ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[4]: بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾[5]، وَلِذَلِكَ تُرِكَ الْعَاطِفُ كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[6].

وَقَرَأَ (الزُّهْرِيُّ): يَذْبَحُونَ بِالتَّخْفِيفِ، كَقَوْلِكَ: قَطَّعْتُ الثِّيَابَ وَقَطَعْتُهَا، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (يَقْتُلُونَ).

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة التَّوْبَةِ، الآية 30.

وَإِنَّمَا فَعَلُوا بِهِمْ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْكَهَنَةَ أَنْذَرُوا فِرْعَوْنَ بِأَنَّهُ يُولَدُ مَوْلُودٌ يَكُونُ عَلَى يَدِهِ هَلَاكُهُ، كَمَا أُنْذِرَ نَمْرُوذُ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا اجْتِهَادُهُمَا فِي التَّحَفُّظِ، وَكَانَ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَالْبَلَاءُ الْمِحْنَةُ إِنْ أُشِيرَ بِذَلِكُمْ إِلَى صَنِيعِ فِرْعَوْنَ، وَالنِّعْمَةُ إِنْ أُشِيرَ بِهِ إِلَى الْإِنْجَاءِ.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[1]

﴿فَرَقْنَا﴾[2]: فَصَلْنَا بَيْنَ بَعْضِهِ وَبَعْضٍ حَتَّى صَارَتْ فِيهِ مَسَالِكُ لَكُمْ، وَقُرِئَ: (فَرَّقْنَا) بِمَعْنَى: فَصَّلْنَا، يُقَالُ: فَرَّقَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَفَرَقَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، لِأَنَّ الْمَسَالِكَ كَانَتِ اثْنَيْ عَشَرَ عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿بِكُمْ﴾[3]؟

قُلْتُ: فِيهِ أَوْجُهٌ:

– أَنْ يُرَادَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْلُكُونَهُ، وَيَتَفَرَّقُ الْمَاءُ عِنْدَ سُلُوكِهِمْ، فَكَأَنَّمَا فُرِقَ بِهِمْ كَمَا يُفْرَقُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ بِمَا يُوَسَّطُ بَيْنَهُمَا،

– وَأَنْ يُرَادَ فَرَقْنَاهُ بِسَبَبِكُمْ وَبِسَبَبِ إِنْجَائِكُمْ، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ بِمَعْنَى فَرَقْنَاهُ مُلْتَبِسًا بِكُمْ، كَقَوْلِهِ:

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَـــا

أَيْ تَدُوسُهَا وَنَحْنُ رَاكِبُوهَا.

وَرُوِيَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا لِمُوسَى: أَيْنَ أَصْحَابُنَا لَا نَرَاهُمْ؟ قَالَ: سِيرُوا فَإِنَّهُمْ عَلَى طَرِيقٍ مِثْلِ طَرِيقِكُمْ، قَالُوا: لَا نَرْضَى حَتَّى نَرَاهُمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى أَخْلَاقِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَأُوحِيَ إِلَيْهِ: أَنْ قُلْ بِعَصَاكَ هَكَذَا، فَقَالَ بِهَا عَلَى الْحِيطَانِ، فَصَارَتْ فِيهَا كُوًى، فَتَرَامُوا وَتَسَامَعُوا كَلَامَهُمْ، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[4] إِلَى ذَلِكَ وَتُشَاهِدُونَهُ لَا تَشُكُّونَ فِيهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

لَمَّا دَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِصْرَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ كِتَابٌ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ وَعَدَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِ التَّوْرَاةَ، وَضَرَبَ لَهُ مِيقَاتًا ذَا الْقِعْدَةِ وَعَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ، وَقِيلَ: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[2]، لِأَنَّ الشُّهُورَ غُرَرُهَا بِاللَّيَالِي، وَقُرِئَ: (وَعَدْنَا)؛ لِأَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– وَعَدَهُ الْوَحْيَ وَوَعْدَ الْمَجِيءِ لِلْمِيقَاتِ إِلَى الطُّورِ.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾[3] مِنْ بَعْدِ مُضِيِّهِ إِلَى الطُّورِ.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[4]، بِإِشْرَاكِكُمْ.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾[5] حِينَ تُبْتُمْ.

﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾[6]: مِنْ بَعْدِ ارْتِكَابِكُمُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ، وَهُوَ اتِّخَاذُكُمُ الْعِجْلَ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[7]: إِرَادَةَ أَنْ تَشْكُرُوا النِّعْمَةَ فِي الْعَفْوِ عَنْكُمْ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1]

﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾[2]: يَعْنِي الْجَامِعَ بَيْنَ كَوْنِهِ كِتَابًا مُنَزَّلًا وَفُرْقَانًا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ يَعْنِي: التَّوْرَاةَ، كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ الْغَيْثَ وَاللَّيْثَ، تُرِيدُ الرَّجُلَ الْجَامِعَ بَيْنَ الْجُودِ وَالْجَرَاءَةِ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾[3]، يَعْنِي: الْكِتَابَ الْجَامِعَ بَيْنَ كَوْنِهِ فُرْقَانًا وَضِيَاءً وَذِكْرًا أَوِ التَّوْرَاةَ.

وَالْبُرْهَانُ: الْفَارِقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مِنَ الْعَصَا وَالْيَدِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْآيَاتِ، أَوِ الشَّرْعُ الْفَارِقُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقِيلَ الْفُرْقَانُ: انْفِرَاقُ الْبَحْرِ.

وَقِيلَ: النَّصْرُ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾[4]، يُرِيدُ بِهِ: يَوْمَ بَدْرٍ، حُمِلَ قَوْلُهُ: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[5]، عَلَى الظَّاهِرِ، وَهُوَ الْبَخْعُ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: قَتْلُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا؛ وَقِيلَ، أَمْرُ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ أَنْ يَقْتُلُوا الْعَبَدَةَ.

وَرُوِيَ: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُبْصِرُ وَلَدَهُ وَوَالِدَهُ وَجَارَهُ وَقَرِيبَهُ، فَلَمْ يُمْكِنْهُمُ الْمُضِيُّ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ ضَبَابَةً وَسَحَابَةً سَوْدَاءَ لَا يَتَبَاصَرُونَ تَحْتَهَا، وَأُمِرُوا أَنْ يَحْتَبُوا بِأَفْنِيَةِ بُيُوتِهِمْ، وَيَأْخُذَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ سُيُوفَهُمْ، وَقِيلَ لَهُمُ: اصْبِرُوا، فَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ مَدَّ طَرْفَهُ أَوْ حَلَّ حَبْوَتَهُ أَوِ اتَّقَى بِيَدٍ أَوْ رِجْلٍ، فَيَقُولُونَ: آمِينَ، فَقَتَلُوهُمْ إِلَى الْمَسَاءِ، حَتَّى دَعَا مُوسَى وَهَارُونُ وَقَالَا: يَا رَبِّ، هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، الْبَقِيَّةَ الْبَقِيَّةَ، فَكُشِفَتِ السَّحَابَةُ وَنَزَلَتِ التَّوْبَةُ، فَسَقَطَتِ الشِّفَارُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتِ الْقَتْلَى سَبْعِينَ أَلْفًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَآتِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 48.

[4] سورة الْأَنْفَال، الآية 41.

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قُلْتُ:

– الْأُولَى: لِلتَّسْبِيبِ لَا غَيْرُ، لِأَنَّ الظُّلْمَ سَبَبُ التَّوْبَةِ.

– وَالثَّانِيَةُ: لِلتَّعْقِيبِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى فَاعْزِمُوا عَلَى التَّوْبَةِ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– جَعَلَ تَوْبَتَهُمْ قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَتْلُ تَمَامَ تَوْبَتِهِمْ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَتُوبُوا، فَأَتْبِعُوا التَّوْبَةَ الْقَتْلَ تَتِمَّةً لِتَوْبَتِكُمْ.

– وَالثَّالِثَةُ: مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، وَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَنْتَظِمَ فِي قَوْلِ مُوسَى لَهُمْ، فَتَتَعَلَّقَ بِشَرْطٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ تَابَ عَلَيْكُمْ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خِطَابًا مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– لَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: فَفَعَلْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مُوسَى فَتَابَ عَلَيْكُمْ بَارِؤُكُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ اخْتُصَّ هَذَا الْمَوْضِعُ بِذِكْرِ الْبَارِئِ؟

قُلْتُ: الْبَارِئُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بَرِيئًا مِنَ التَّفَاوُتِ: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[1]، وَمُتَمَيِّزًا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ بِالْأَشْكَالِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالصُّوَرِ الْمُتَبَايِنَةِ، فَكَانَ فِيهِ تَقْرِيعٌ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ تَرْكِ عِبَادَةِ الْعَالِمِ الْحَكِيمِ الَّذِي بَرَأَهُمْ بِلُطْفِ حِكْمَتِهِ عَلَى الْأَشْكَالِ الْمُخْتَلِفَةِ –أَبْرِيَاءَ مِنَ التَّفَاوُتِ وَالتَّنَافُرِ– إِلَى عِبَادَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي هِيَ مَثَلٌ فِي الْغَبَاوَةِ وَالْبَلَادَةِ، –فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ: أَبْلَدُ مِنْ ثَوْرٍ– حَتَّى عَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِسُخْطِ اللَّهِ وَنُزُولِ أَمْرِهِ بِأَنْ يَفُكَّ مَا رَكَّبَهُ مِنْ خَلْقِهِمْ، وَيَنْثُرَ مَا نُظِمَ مِنْ صُوَرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، حِينَ لَمْ يَشْكُرُوا النِّعْمَةَ فِي ذَلِكَ، وَغَمَطُوهَا بِعِبَادَةِ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا.

---

[1] سورة الْمُلْكِ، الآية 3.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]

قِيلَ: الْقَائِلُونَ السَّبْعُونَ الَّذِينَ صُعِقُوا، وَقِيلَ: قَالَهُ عَشَرَةُ آلَافٍ مِنْهُمْ، "جَهْرَةً": عَيَانًا، وَهِيَ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِكَ: جَهَرَ بِالْقِرَاءَةِ وَبِالدُّعَاءِ، كَأَنَّ الَّذِي يَرَى بِالْعَيْنِ جَاهِرٌ بِالرُّؤْيَةِ، وَالَّذِي يَرَى بِالْقَلْبِ مُخَافِتٌ بِهَا، وَانْتِصَابُهَا عَلَى الْمَصْدَرِ، لِأَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ فَنُصِبَتْ بِفِعْلِهَا كَمَا تُنْصَبُ الْقُرْفُصَاءُ بِفِعْلِ الْجُلُوسِ، أَوْ عَلَى الْحَالِ بِمَعْنَى ذَوِي جَهْرَةٍ، وَقُرِئَ: (جَهَرَةً): بِفَتْحِ الْهَاءِ، وَهِيَ إِمَّا مَصْدَرٌ كَالْغَلَبَةِ، وَإِمَّا جَمْعُ جَاهِرٍ.

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– رَادَّهُمُ الْقَوْلَ وَعَرَّفَهُمْ أَنَّ رُؤْيَةَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي جِهَةِ مُحَالٍ، وَأَنَّ مَنِ اسْتَجَازَ عَلَى اللَّهِ الرُّؤْيَةَ فَقَدْ جَعَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَجْسَامِ أَوِ الْأَعْرَاضِ، فَرَادُّوهُ بَعْدَ بَيَانِ الْحُجَّةِ وَوُضُوحِ الْبُرْهَانِ، وَلَجُّوا، فَكَانُوا فِي الْكُفْرِ كَعَبَدَةِ الْعِجْلِ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الصَّعْقَةَ كَمَا سَلَّطَ عَلَى أُولَئِكَ الْقَتْلَ تَسْوِيَةً بَيْنَ الْكَافِرِينَ، وَدَلَالَةً عَلَى عِظَمِهِمَا بِعِظَمِ الْمِحْنَةِ، وَ"الصَّاعِقَةُ": مَا صَعَقَهُمْ، أَيْ: أَمَاتَهُمْ، قِيلَ: نَارٌ وَقَعَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُمْ، وَقِيلَ: صَيْحَةٌ جَاءَتْ مِنَ السَّمَاءِ، وَقِيلَ: أَرْسَلَ اللَّهُ جُنُودًا سَمِعُوا بِحِسِّهَا فَخَرُّوا صَعِقِينَ مَيِّتِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَمُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– لَمْ تَكُنْ صَعَقَتْهُ مَوْتًا وَلَكِنْ غَشْيَةً، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾[2].

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ مَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[3]، وَقَرَأَ عَلِيٌّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعْقَةُ).

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]: نِعْمَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ نِعْمَةَ اللَّهِ بَعْدَمَا كَفَرْتُمُوهَا إِذَا رَأَيْتُمْ بَأْسَ اللَّهِ فِي رَمْيِكُمْ بِالصَّاعِقَةِ وَإِذَاقَتِكُمُ الْمَوْتَ، ﴿وَظَلَّلْنَا﴾[2]: وَجَعَلْنَا الْغَمَامَ يُظِلُّكُمْ، وَذَلِكَ فِي التِّيهِ، سَخَّرَ اللَّهُ لَهُمُ السَّحَابَ يَسِيرُ بِسَيْرِهِمْ، يُظِلُّهُمْ مِنَ الشَّمْسِ، وَيَنْزِلُ بِاللَّيْلِ عَمُودٌ مِنْ نَارٍ يَسِيرُونَ فِي ضَوْئِهِ، وَثِيَابُهُمْ لَا تَتَّسِخُ وَلَا تَبْلَى، وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمُ ﴿الْمَنَّ﴾[3]: وَهُوَ التَّرَنْجَبِينُ مِثْلَ الثَّلْجِ، مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، لِكُلِّ إِنْسَانٍ صَاعٌ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ الْجَنُوبَ فَتَحْشُرُ عَلَيْهِمُ ﴿السَّلْوَى﴾[4]، وَهِيَ السَّمَانِيُّ، فَيَذْبَحُ الرَّجُلُ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِ، ﴿كُلُوا﴾[5] عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾[6]: يَعْنِي فَظَلَمُوا بِأَنْ كَفَرُوا هَذِهِ النِّعَمَ وَمَا ظَلَمُونَا، فَاخْتُصِرَ الْكَلَامُ بِحَذْفِهِ لِدَلَالَةِ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾[7] عَلَيْهِ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[8]

﴿الْقَرْيَةَ﴾[9]: بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَقِيلَ: أَرِيحَاءُ مِنْ قُرَى الشَّامِ، أُمِرُوا بِدُخُولِهَا بَعْدَ التِّيهِ.
﴿الْبَابَ﴾[10]: بَابُ الْقَرْيَةِ، وَقِيلَ: هُوَ بَابُ الْقُبَّةِ الَّتِي كَانُوا يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي حَيَاةِ مُوسَى –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– أُمِرُوا بِالسُّجُودِ عِنْدَ الِانْتِهَاءِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[10] سورة الْبَقَرَة، الآية .

إِلَى الْبَابِ شُكْرًا لِلَّهِ وَتَوَاضُعًا، وَقِيلَ: ﴿السُّجُودُ﴾: أَنْ يَنْحَنُوا وَيَتَطَامَنُوا دَاخِلِينَ؛ لِيَكُونَ دُخُولُهُمْ بِخُشُوعٍ وَإِخْبَاتٍ، وَقِيلَ: طُوطِئَ لَهُمُ الْبَابُ لِيَخْفِضُوا رُؤُوسَهُمْ فَلَمْ يَخْفِضُوهَا، وَدَخَلُوا مُتَزَحِّفِينَ عَلَى أَوْرَاكِهِمْ ﴿حِطَّةٌ﴾[1]: فِعْلَةٌ مِنَ الْحَطِّ كَالْجِلْسَةِ وَالرِّكْبَةِ، وَهِيَ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ مَسْأَلَتُنَا حِطَّةٌ، أَوْ أَمْرُكَ حِطَّةٌ.

وَالْأَصْلُ: النَّصْبُ بِمَعْنَى: حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا حِطَّةً، وَإِنَّمَا رُفِعَتْ لِتُعْطِيَ مَعْنَى الثَّبَاتِ، كَقَوْلِهِ:

صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلَانَا مُبْتَلَـــى!

وَالْأَصْلُ: صَبْرًا، عَلَى اصْبِرْ صَبْرًا، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ بِالنَّصْبِ عَلَى الْأَصْلِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَمْرُنَا حِطَّةٌ، أَيْ أَنْ نَحُطَّ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَنَسْتَقِرَّ فِيهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ تُنْصَبَ ﴿حِطَّةٌ﴾[2] فِي قِرَاءَةِ مَنْ نَصَبَهَا بِـ﴿قُولُوا﴾[3] عَلَى مَعْنَى: قُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ؟

قُلْتُ: لَا يَبْعُدُ، وَالْأَجْوَدُ أَنْ تُنْصَبَ بِإِضْمَارِ فِعْلِهَا، وَيَنْتَصِبَ مَحَلُّ ذَلِكَ الْمُضْمَرِ بِـ"قُولُوا"، وَقُرِئَ: (يُغْفَرُ لَكُمْ): عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، أَيْ مِنْ كَانَ مُحْسِنًا مِنْكُمْ، كَانَتْ تِلْكَ الْكَلِمَةُ سَبَبًا فِي زِيَادَةِ ثَوَابِهِ، وَمَنْ كَانَ مُسِيئًا كَانَتْ لَهُ تَوْبَةً وَمَغْفِرَةً.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[5]، أَيْ: وَضَعُوا مَكَانَ ﴿حِطَّةٌ﴾[6] ﴿قَوْلًا﴾[7]: غَيْرَهَا، يَعْنِي: أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِقَوْلٍ مَعْنَاهُ التَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ، فَخَالَفُوهُ إِلَى قَوْلٍ لَيْسَ مَعْنَاهُ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَلَمْ يَمْتَثِلُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِلَفْظٍ بِعَيْنِهِ وَهُوَ لَفْظُ الْحِطَّةِ فَجَاءُوا بِلَفْظٍ آخَرَ، لِأَنَّهُمْ لَوْ جَاءُوا بِلَفْظٍ آخَرَ مُسْتَقِلٍّ بِمَعْنَى مَا أُمِرُوا بِهِ لَمْ يُؤَاخَذُوا بِهِ، كَمَا لَوْ قَالُوا مَكَانَ ﴿حِطَّةٌ﴾[8]:

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ، أَوِ اللَّهُمَّ اعْفُ عَنَّا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَقِيلَ: قَالُوا مَكَانَ ﴿حِطَّةٌ﴾[1]: حِنْطَةٌ، وَقِيلَ: قَالُوا بِالنَّبَطِيَّةِ: "حطا سمقاثا"، أَيْ: حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ، اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ بِمَا قِيلَ لَهُمْ، وَعُدُولًا عَنْ طَلَبِ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا، وَفِي تَكْرِيرِ: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[2]: زِيَادَةٌ فِي تَقْبِيحِ أَمْرِهِمْ، وَإِيذَانٌ بِأَنَّ إِنْزَالَ الرِّجْزِ عَلَيْهِمْ لِظُلْمِهِمْ، وَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾[3] عَلَى الْإِضْمَارِ، وَالرِّجْزُ: الْعَذَابُ، وَقُرِئَ –بِضَمِّ الرَّاءِ–.

وَرُوِيَ أَنَّهُ مَاتَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ بِالطَّاعُونِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَقِيلَ: سَبْعُونَ أَلْفًا.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4]

عَطِشُوا فِي التِّيهِ، فَدَعَا لَهُمْ مُوسَى بِالسُّقْيَا، فَقِيلَ لَهُ: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[5]، وَاللَّامُ إِمَّا لِلْعَهْدِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى حَجَرٍ مَعْلُومٍ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ حَجَرٌ طُورِيٌّ حَمَلَهُ مَعَهُ، وَكَانَ حَجَرًا مُرَبَّعًا لَهُ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ كَانَتْ تَنْبُعُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَلَاثُ أَعْيُنٍ، لِكُلِّ سِبْطٍ عَيْنٌ تَسِيلُ فِي جَدْوَلٍ إِلَى السِّبْطِ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَسْقِيَهُمْ، وَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ، وَسَعَةُ الْمُعَسْكَرِ اثْنَا عَشَرَ مِيلًا، وَقِيلَ: أَهْبَطَهُ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَوَارَثُوهُ، حَتَّى وَقَعَ إِلَى شُعَيْبٍ، فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ مَعَ الْعَصَا، وَقِيلَ: هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي وَضَعَ عَلَيْهِ ثَوْبَهُ حِينَ اغْتَسَلَ إِذْ رَمَوْهُ بِالْأُدْرَةِ، فَفَرَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: يَقُولُ لَكَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ارْفَعْ هَذَا الْحَجَرَ، فَإِنَّ لِي فِيهِ قُدْرَةً وَلَكَ فِيهِ مُعْجِزَةً، فَحَمَلَهُ فِي مِخْلَاتِهِ، وَإِمَّا لِلْجِنْسِ، أَيِ اضْرِبِ الشَّيْءَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْحَجَرُ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يَضْرِبَ حَجَرًا بِعَيْنِهِ، قَالَ: وَهَذَا أَظْهَرُ فِي الْحُجَّةِ وَأَبْيَنُ فِي الْقُدْرَةِ، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ بِنَا لَوْ أَفْضَيْنَا إِلَى أَرْضٍ لَيْسَتْ فِيهَا حِجَارَةٌ، فَحَمَلَ حَجَرًا

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَاف، الآية 13.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

فِي مِخْلَاتِهِ فَحَيْثُمَا نَزَلُوا أَلْقَاهُ، وَقِيلَ: كَانَ يَضْرِبُهُ بِعَصَاهُ فَيَنْفَجِرُ، وَيَضْرِبُهُ بِهَا فَيَيْبَسُ، فَقَالُوا: إِنْ فَقَدَ مُوسَى عَصَاهُ مُتْنَا عَطَشًا، فَأُوحِيَ إِلَيْهِ: لَا تَقْرَعِ الْحِجَارَةَ، وَكَلِّمْهَا تُطِعْكَ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ، وَقِيلَ: كَانَ مِنْ رُخَامٍ وَكَانَ ذِرَاعًا فِي ذِرَاعٍ، وَقِيلَ: مِثْلَ رَأْسِ الْإِنْسَانِ، وَقِيلَ: كَانَ مِنْ آسَى الْجَنَّةِ، طُولُهُ عَشَرَةُ أَذْرُعٍ عَلَى طُولِ مُوسَى، وَلَهُ شُعْبَتَانِ تَتَّقِدَانِ فِي الظُّلْمَةِ، وَكَانَ يُحْمَلُ عَلَى حِمَارٍ، ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾[1]: الْفَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيْ فَضَرَبَ فَانْفَجَرَتْ، أَوْ فَإِنْ ضَرَبْتَ فَقَدِ انْفَجَرَتْ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[2]، وَهِيَ عَلَى هَذَا فَاءٌ فَصِيحَةٌ لَا تَقَعُ إِلَّا فِي كَلَامٍ بَلِيغٍ، وَقُرِئَ: (عَشِرَةٌ): بِكَسْرِ الشِّينِ وَبِفَتْحِهَا وَهُمَا لُغَتَانِ.

﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾[3]: كُلُّ سِبْطٍ، ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾: عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا.

﴿كُلُوا﴾[4]: عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ.

﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾[5]: مِمَّا رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ، وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى وَمِنْ مَاءِ الْعُيُونِ، وَقِيلَ: الْمَاءُ يَنْبُتُ مِنْهُ الزُّرُوعُ وَالثِّمَارُ، فَهُوَ رِزْقٌ يُؤْكَلُ مِنْهُ وَيُشْرَبُ، وَالْعُثِيُّ: أَشَدُّ الْفَسَادِ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَا تَتَمَادَوْا فِي الْفَسَادِ فِي حَالِ فَسَادِكُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَمَادِينَ فِيهِ.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[6]

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

كَانُوا فَلَّاحَةً، فَنَزَعُوا إِلَى عَكَرِهِمْ فَأَجَمُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَطَلَبَتْ أَنْفُسُهُمُ الشَّقَاءَ.

﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[1]: أَرَادُوا مَا رُزِقُوا فِي التِّيهِ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى.

فَإِنْ قُلْتَ: هُمَا طَعَامَانِ فَمَا لَهُمْ قَالُوا عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ؟

قُلْتُ: أَرَادُوا بِالْوَاحِدِ مَا لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، وَلَوْ كَانَ عَلَى مَائِدَةِ الرَّجُلِ أَلْوَانٌ عِدَّةٌ يُدَاوِمُ عَلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ لَا يُبَدِّلُهَا، قِيلَ: لَا يَأْكُلُ فُلَانٌ إِلَّا طَعَامًا وَاحِدًا، يُرَادُ بِالْوَحْدَةِ نَفْيُ التَّبَدُّلِ وَالِاخْتِلَافِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدُوا أَنَّهُمَا ضَرْبٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّهُمَا مَعًا مِنْ طَعَامِ أَهْلِ التَّلَذُّذِ وَالتَّتَرُّفِ، وَنَحْنُ قَوْمٌ فَلَّاحَةٌ أَهْلُ زِرَاعَاتٍ، فَمَا نُرِيدُ إِلَّا مَا أَلِفْنَاهُ وَضَرَيْنَا بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَفَاوِتَةِ كَالْحُبُوبِ وَالْبُقُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَمَعْنَى ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾[2]: يُظْهِرْ لَنَا وَيُوجِدْ، وَالْبَقْلُ: مَا أَنْبَتَتْهُ الْأَرْضُ مِنَ الْخَضِرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَطَايِبُ الْبُقُولِ الَّتِي يَأْكُلُهَا النَّاسُ كَالنَّعْنَاعِ، وَالْكَرَفْسِ، وَالْكُرَّاثِ، وَأَشْبَاهِهَا، وَقُرِئَ: "وَقُثَّائِهَا": بِالضَّمِّ، وَالْفُومُ: الْحِنْطَةُ، وَمِنْهُ فُومُوا لَنَا، أَيِ: اخْبِزُوا، وَقِيلَ: الثُّومُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَثُومِهَا)، وَهُوَ لِلْعَدَسِ وَالْبَصَلِ أَوْفَقُ.

﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾[3]: الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ مَنْزِلَةً وَأَدْوَنُ مِقْدَارًا، وَالدُّنُوُّ وَالْقُرْبُ يُعَبَّرُ بِهِمَا عَنْ قِلَّةِ الْمِقْدَارِ، فَيُقَالُ: هُوَ دَانِي الْمَحَلِّ وَقَرِيبُ الْمَنْزِلَةِ، كَمَا يُعَبَّرُ بِالْبُعْدِ عَنْ عَكْسِ ذَلِكَ، فَيُقَالُ: هُوَ بَعِيدُ الْمَحَلِّ وَبَعِيدُ الْهِمَّةِ يُرِيدُونَ الرِّفْعَةَ وَالْعُلُوَّ، وَقَرَأَ زُهَيْرٌ الْفَرْقَبِيُّ: (أَدْنَأُ) بِالْهَمْزَةِ مِنَ الدَّنَاءَةِ.

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾[4]، وَقُرِئَ: (اهْبُطُوا) بِالضَّمِّ، أَيِ: انْحَدِرُوا إِلَيْهِ مِنَ التِّيهِ، يُقَالُ: هَبَطَ الْوَادِيَ إِذَا نَزَلَ بِهِ، وَهَبَطَ مِنْهُ إِذَا خَرَجَ، وَبِلَادُ التِّيهِ: مَا بَيْنَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى قَنْسَرِينَ، وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ فَرْسَخًا فِي ثَمَانِيَةِ فَرَاسِخَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ الْعَلَمَ.

وَإِنَّمَا صَرَفَهُ مَعَ اجْتِمَاعِ السَّبَبَيْنِ فِيهِ، وَهُمَا التَّعْرِيفُ وَالتَّأْنِيثُ، لِسُكُونِ وَسَطِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنُوحًا﴾[5] وَ﴿لُوطًا﴾[6]، وَفِيهِمَا الْعُجْمَةُ وَالتَّعْرِيفُ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْبَلَدُ فَمَا فِيهِ إِلَّا سَبَبٌ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَاحِدٌ، وَأَنْ يُرِيدَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ.

وَفِي مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَرَأَ بِهِ الْأَعْمَشُ: (اهْبِطُوا مِصْرَ) -بِغَيْرِ تَنْوِينٍ- كَقَوْلِهِ: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾[1]، وَقِيلَ هُوَ: "مِصْرَائِيمُ" فَعُرِّبَ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾[2]: جُعِلَتِ الذِّلَّةُ مُحِيطَةً بِهِمْ مُشْتَمِلَةً عَلَيْهِمْ، فَهُمْ فِيهَا كَمَا يَكُونُ فِي الْقُبَّةِ مَنْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِ، أَوْ أُلْصِقَتْ بِهِمْ حَتَّى لَزِمَتْهُمْ ضَرْبَةَ لَازِبٍ، كَمَا يُضْرَبُ الطِّينُ عَلَى الْحَائِطِ فَيَلْزَمُهُ، فَالْيَهُودُ صَاغِرُونَ أَذِلَّاءُ أَهْلُ مَسْكَنَةٍ وَمَدْقَعَةٍ، إِمَّا عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَإِمَّا لِتَصَاغُرِهِمْ وَتَفَاقُرِهِمْ؛ خِيفَةَ أَنْ تُضَاعَفَ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾[3]: مِنْ قَوْلِكَ: بَاءَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ، إِذَا كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ يُقْتَلَ بِهِ، لِمُسَاوَاتِهِ لَهُ وَمُكَافَأَتِهِ، أَيْ صَارُوا أَحِقَّاءَ بِغَضَبِهِ.

﴿ذَلِكَ﴾[4]: إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرْبِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْخَلَاقَةِ بِالْغَضَبِ، أَيْ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَقَدْ قَتَلَتِ الْيَهُودُ -لُعِنُوا- شَعْيَا وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَغَيْرَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِغَيْرِ الْحَقِّ فَمَا فَائِدَةُ ذِكْرِهِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ قَتَلُوهُمْ بِغَيْرِ الْحَقِّ عِنْدَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْتُلُوا وَلَا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ فَيُقْتَلُوا، وَإِنَّمَا نَصَحُوهُمْ وَدَعَوْهُمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ فَقَتَلُوهُمْ، فَلَوْ سُئِلُوا وَأَنْصَفُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا وَجْهًا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْقَتْلَ عِنْدَهُمْ، وَقَرَأَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- (وَيُقَتِّلُونَ) بِالتَّشْدِيدِ.

﴿ذَلِكَ﴾[5]: تَكْرَارٌ لِلْإِشَارَةِ.

﴿بِمَا عَصَوْا﴾[6]: بِسَبَبِ ارْتِكَابِهِمْ أَنْوَاعَ الْمَعَاصِي وَاعْتِدَائِهِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، مَعَ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَقِيلَ: هُوَ اعْتِدَاؤُهُمْ فِي السَّبْتِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُشَارَ بِذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، لِأَنَّهُمْ

---

6 سورة الْبَقَرَة، الآية .

1 سورة الْبَقَرَة، الآية .

2 سورة الْبَقَرَة، الآية .

3 سورة الْبَقَرَة، الآية .

4 سورة الْبَقَرَة، الآية .

5 سورة الْبَقَرَة، الآية .

6 سورة الْبَقَرَة، الآية .

انْهَمَكُوا فِيهِمَا وَغَلَوْا حَتَّى قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فَجَسَرُوا عَلَى جُحُودِ الْآيَاتِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ ذَلِكَ الْكُفْرُ وَالْقَتْلُ مَعَ مَا عَصَوْا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةِ الْقُلُوبِ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾[2]: وَالَّذِينَ تَهَوَّدُوا، يُقَالُ: هَادَ يَهُودُ وَتَهَوَّدَ إِذَا دَخَلَ فِي الْيَهُودِيَّةِ، وَهُوَ هَائِدٌ، وَالْجَمْعِ هُوَّدٌ.

﴿وَالنَّصَارَى﴾[3]: وَهُوَ جَمْعُ نَصْرَانٍ، يُقَالُ: رَجُلٌ نَصْرَانٌ، وَامْرَأَةٌ نَصْرَانَةٌ، قَالَ: نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحْنَفْ، وَالْيَاءُ فِي نَصْرَانِيٍّ لِلْمُبَالَغَةِ كَالَّتِي فِي أَحْمَرِيٍّ، سُمُّوا لِأَنَّهُمْ نَصَرُوا الْمَسِيحَ.

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾[4]: وَهُوَ مَنْ صَبَأَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الدِّينِ وَهُمْ قَوْمٌ عَدَلُوا عَنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَعَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ.

﴿مَنْ آمَنَ﴾[5]: مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ إِيمَانًا خَالِصًا وَدَخَلَ فِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ دُخُولًا أَصِيلًا.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾[6]: الَّذِي يَسْتَوْجِبُونَهُ بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ مَنْ آمَنَ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

قُلْتُ: الرَّفْعُ إِنْ جَعَلْتَهُ مُبْتَدَأً خَبَرُهُ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾[1]: وَالنَّصْبُ إِنْ جَعَلْتَهُ بَدَلًا مِنِ اسْمِ إِنَّ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، فَخَبَرُ إِنَّ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ الْجُمْلَةُ كَمَا هِيَ، وَفِي الثَّانِي فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ، وَالْفَاءُ لِتَضَمُّنِ ﴿مَنْ﴾[2]: مَعْنَى الشَّرْطِ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾[4]: بِالْعَمَلِ عَلَى مَا فِي التَّوْرَاةِ.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[5]: حَتَّى قَبِلْتُمْ وَأَعْطَيْتُمُ الْمِيثَاقَ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– جَاءَهُمْ بِالْأَلْوَاحِ فَرَأَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْآصَارِ وَالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ، فَكَبُرَتْ عَلَيْهِمْ وَأَبَوْا قَبُولَهَا، فَأُمِرَ جِبْرِيلُ فَقَلَعَ الطُّورَ مِنْ أَصْلِهِ، وَرَفَعَهُ وَظَلَّلَهُ فَوْقَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: إِنْ قَبِلْتُمْ وَإِلَّا أُلْقِيَ عَلَيْكُمْ، حَتَّى قَبِلُوا، "خُذُوا": عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ.

﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾[6]: مِنَ الْكِتَابِ "بِقُوَّةٍ": بِجِدٍّ وَعَزِيمَةٍ.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[7]: وَاحْفَظُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَادْرُسُوهُ وَلَا تَنْسَوْهُ وَلَا تَغْفُلُوا عَنْهُ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[8]: رَجَاءَ مِنْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُتَّقِينَ، أَوْ قُلْنَا: خُذُوا وَاذْكُرُوا إِرَادَةَ أَنْ تَتَّقُوا.

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾[1]: ثُمَّ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْمِيثَاقِ وَالْوَفَاءِ بِهِ.

﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[2]، بِتَوْفِيقِكُمْ لِلتَّوْبَةِ، لَخَسِرْتُمْ، وَقُرِئَ: خُذُوا مَا آتَيْتُكُمْ، وَتَذَكَّرُوا، وَاذَّكَّرُوا.

وَ"السَّبْتُ": مَصْدَرُ سَبَتَتِ الْيَهُودُ إِذَا عَظَّمَتْ يَوْمَ السَّبْتِ، وَإِنَّ نَاسًا مِنْهُمُ اعْتَدَوْا فِيهِ، أَيْ: جَاوَزُوا مَا حُدَّ لَهُمْ فِيهِ مِنَ التَّجَرُّدِ لِلْعِبَادَةِ وَتَعْظِيمِهِ وَاشْتَغَلُوا بِالصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ابْتَلَاهُمْ، فَمَا كَانَ يَبْقَى حُوتٌ فِي الْبَحْرِ إِلَّا أَخْرَجَ خُرْطُومَهُ يَوْمَ السَّبْتِ، فَإِذَا مَضَى تَفَرَّقَتْ، كَمَا قَالَ: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾[3]، فَحَفَرُوا حِيَاضًا عِنْدَ الْبَحْرِ وَشَرَعُوا إِلَيْهَا الْجَدَاوِلَ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَدْخُلُهَا فَيَصْطَادُونَهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، فَذَلِكَ الْحَبْسُ فِي الْحِيَاضِ هُوَ اعْتِدَاؤُهُمْ.

﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[4]: خَبَرَانِ، أَيْ كُونُوا جَامِعِينَ بَيْنَ الْقِرْدِيَّةِ وَالْخُسُوءِ، وَهُوَ الصَّغَارُ وَالطَّرْدُ، "فَجَعَلْنَاهَا": يَعْنِي الْمَسْخَةَ، "نَكَالًا": عِبْرَةً تُنَكِّلُ مَنِ اعْتَبَرَ بِهَا أَيْ تَمْنَعُهُ، وَمِنْهُ النِّكْلُ: الْقَيْدُ.

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾[5]: لِمَا قَبْلَهَا.

﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾[6]: وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأُمَمِ وَالْقُرُونِ، لِأَنَّ مَسْخَتَهُمْ ذُكِرَتْ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ فَاعْتَبَرُوا بِهَا، وَاعْتَبَرَ بِهَا مَنْ بَلَغَتْهُمْ مِنَ الْآخِرِينَ، أَوْ أُرِيدَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا: مَا بِحَضْرَتِهَا مِنَ الْقُرَى وَالْأُمَمِ؛ وَقِيلَ: نَكَالًا: عُقُوبَةً مُنَكِّلَةً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، لِأَجْلِ مَا تَقَدَّمَهَا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَا تَأَخَّرَ مِنْهَا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[7]: لِلَّذِينَ نَهَوْهُمْ عَنِ الِاعْتِدَاءِ مِنْ صَالِحِي قَوْمِهِمْ، أَوْ لِكُلِّ مُتَّقٍ سَمِعَهَا.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 163.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ شَيْخٌ مُوسِرٌ، فَقَتَلَهُ ابْنُهُ بَنُو أَخِيهِ لِيَرِثُوهُ، وَطَرَحُوهُ عَلَى بَابِ مَدِينَةٍ ثُمَّ جَاءُوا يُطَالِبُونَ بِدِيَتِهِ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً وَيَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا لِيَحْيَا فَيُخْبِرَهُمْ بِقَاتِلِهِ.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[2]: أَتَجْعَلُنَا مَكَانَ هُزُوٍ، أَوْ أَهْلَ هُزُوٍ، أَوْ مَهْزُوًّا بِنَا، أَوِ الْهُزُوَ نَفْسَهُ، لِفَرْطِ الِاسْتِهْزَاءِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]، لِأَنَّ الْهُزُوَ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ بَابِ الْجَهْلِ وَالسَّفَهِ؛ وَقُرِئَ: (هُزُؤًا) بِضَمَّتَيْنِ، وَ(هُزْءًا): بِسُكُونِ الزَّايِ، نَحْوُ كُفُؤًا وَكُفْؤًا، وَقَرَأَ حَفْصٌ: (هُزُوًا): بِالضَّمَّتَيْنِ وَالْوَاوِ، وَكَذَلِكَ (كُفُوًا)، وَالْعِيَاذُ وَاللِّيَاذُ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ.

فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (سَلْ لَنَا رَبَّكَ مَا هِيَ)؟ سُؤَالٌ عَنْ حَالِهَا وَصِفَتِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ بَقَرَةٍ مَيِّتَةٍ يُضْرَبُ بِبَعْضِهَا مَيِّتٌ فَيَحْيَا، فَسَأَلُوا عَنْ صِفَةِ تِلْكَ الْبَقَرَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّأْنِ الْخَارِجَةِ عَمَّا عَلَيْهِ الْبَقَرُ، وَالْفَارِضُ: الْمُسِنَّةُ، وَقَدْ فَرَضَتْ فُرُوضًا فَهِيَ فَارِضٌ، قَالَ خِفَافُ بْنُ نُدْبَةَ:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضًا تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ

وَكَأَنَّهَا سُمِّيَتْ فَارِضًا، لِأَنَّهَا فَرَضَتْ سِنَّهَا أَيْ قَطَعَتْهَا وَبَلَغَتْ آخِرَهَا، وَالْبِكْرُ: الْفَتِيَّةُ، وَالْعَوَانُ النِّصْفُ، قَالَ:

نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُــونِ

وَقَدْ عَوَّنَتْ .

فَإِنْ قُلْتَ: "بَيْنَ": يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا، فَمِنْ أَيْنَ جَازَ دُخُولُهُ عَلَى "ذَلِكَ"؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى شَيْئَيْنِ، حَيْثُ وَقَعَ مُشَارًا بِهِ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْفَارِضِ وَالْبِكْرِ .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُشَارَ بِهِ إِلَى مُؤَنَّثَيْنِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلْإِشَارَةِ إِلَى وَاحِدٍ مُذَكَّرٍ؟

قُلْتُ: جَازَ ذَلِكَ عَلَى تَأْوِيلِ مَا ذُكِرَ وَمَا تَقَدَّمَ، لِلِاخْتِصَارِ فِي الْكَلَامِ، كَمَا جَعَلُوا، (فَعَلَ): نَائِبًا عَنْ أَفْعَالٍ جَمَّةٍ تُذْكَرُ قَبْلَهُ، تَقُولُ لِلرَّجُلِ: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ، وَقَدْ ذَكَرَ لَكَ أَفْعَالًا كَثِيرَةً وَقِصَّةً طَوِيلَةً، كَمَا تَقُولُ لَهُ: مَا أَحْسَنَ ذَلِكَ، وَقَدْ يُجْرَى الضَّمِيرُ مَجْرَى اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي هَذَا.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: قُلْتُ لِرُؤْبَةَ فِي قَوْلِهِ:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَــقْ

إِنْ أَرَدْتَ الْخُطُوطَ فَقُلْ: كَأَنَّهَا، وَإِنْ أَرَدْتَ السَّوَادَ وَالْبَلَقَ فَقُلْ: كَأَنَّهُمَا، فَقَالَ: أَرَدْتُ كَأَنَّ ذَاكَ، وَيْلَكَ! وَالَّذِي حَسُنَ مِنْهُ: أَنَّ أَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ تَشْبِيثُهَا وَجَمْعُهَا وَتَأْنِيثُهَا لَيْسَتْ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَكَذَلِكَ الْمَوْصُولَاتُ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الَّذِي بِمَعْنَى الْجَمْعِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾[1]، أَيْ: مَا تُؤْمَرُونَهُ بِمَعْنَى تُؤْمَرُونَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ، أَوْ أَمْرُكُمْ بِمَعْنَى مَأْمُورِكُمْ تَسْمِيَةً لِلْمَفْعُولِ بِهِ بِالْمَصْدَرِ، كَضَرْبِ الْأَمِيرِ.

الْفُقُوعُ: أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الصُّفْرَةِ وَأَنْصَعُهُ، يُقَالُ فِي التَّوْكِيدِ: أَصْفَرُ فَاقِعٌ وَوَارِسٌ، كَمَا يُقَالُ: أَسْوَدُ حَالِكٌ وَحَانِكٌ، وَأَبْيَضُ يَقَقٌ وَلَهَقٌ، وَأَحْمَرُ قَانٍ وَذَرِيحِيٌّ، وَأَخْضَرُ نَاضِرٌ وَمُدْهَامٌّ، وَأَوْرَقُ خُطْبَانِيٌّ، وَأَرْمَكُ رَدَّانِيٌّ.

فَإِنْ قُلْتَ: "فَاقِعٌ" هَهُنَا وَاقِعٌ خَبَرًا عَنِ اللَّوْنِ، فَلَمْ يَقَعْ تَوْكِيدًا لِصَفْرَاءَ.

قُلْتُ: لَمْ يَقَعْ خَبَرًا عَنِ اللَّوْنِ، إِنَّمَا وَقَعَ تَوْكِيدًا لِصَفْرَاءَ، إِلَّا أَنَّهُ ارْتَفَعَ اللَّوْنُ بِهِ ارْتِفَاعَ الْفَاعِلِ، وَاللَّوْنُ مِنْ سَبَبِهَا وَمُلْتَبِسٌ بِهَا، فَلَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِكَ: صَفْرَاءُ فَاقِعَةٌ وَصَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: صَفْرَاءُ فَاقِعَةٌ؟ وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي ذِكْرِ اللَّوْنِ؟

قُلْتُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ التَّوْكِيدُ، لِأَنَّ اللَّوْنَ اسْمٌ لِلْهَيْئَةِ وَهِيَ الصُّفْرَةُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ صُفْرَتُهَا، فَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ: جَدَّ جَدُّهُ، وَجُنُونُكَ مَجْنُونٌ.

وَعَنْ وَهْبٍ: إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا خُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهَا، وَالسُّرُورُ لَذَّةٌ فِي الْقَلْبِ عِنْدَ حُصُولِ نَفْعٍ أَوْ تَوَقُّعِهِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "مَنْ لَبِسَ نَعْلًا صَفْرَاءَ قُلْ هَمُّهُ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[2].

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾[3]: سَوْدَاءُ شَدِيدَةُ السَّوَادِ، وَلَعَلَّهُ مُسْتَعَارٌ مِنْ صِفَةِ الْإِبِلِ، لِأَنَّ سَوَادَهَا تَعْلُوهُ صُفْرَةٌ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾[4].

قَالَ الْأَعْشَى:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْمُرْسَلَات، الآية 33.

﴿مَا هِيَ﴾[1]: مَرَّةٌ ثَانِيَةٌ، تَكْرِيرٌ لِلسُّؤَالِ عَنْ حَالِهَا وَصِفَتِهَا، وَاسْتِكْشَافٌ زَائِدٌ لِيَزْدَادُوا بَيَانًا لِوَصْفِهَا، وَعَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَوِ اعْتَرَضُوا أَدْنَى بَقَرَةٍ فَذَبَحُوهَا لَكَفَتْهُمْ، وَلَكِنْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ"، وَالِاسْتِقْصَاءُ شُؤْمٌ.

وَعَنْ بَعْضِ الْخُلَفَاءِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِأَنْ يَذْهَبَ إِلَى قَوْمٍ فَيَقْطَعَ أَشْجَارَهُمْ وَيَهْدِمَ دُورَهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: بِأَيِّهِمَا أَبْدَأُ؟ فَقَالَ: إِنْ قُلْتُ لَكَ بِقَطْعِ الشَّجَرِ سَأَلْتَنِي: بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْهَا أَبْدَأُ؟

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِذَا أَمَرْتُكَ أَنْ تُعْطِيَ فُلَانًا شَاةً سَأَلْتَنِي: أَضَائِنٌ أَمْ مَاعِزٌ؟ فَإِنْ بَيَّنْتُ لَكَ قُلْتَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَإِنْ أَخْبَرْتُكَ قُلْتَ: أَسَوْدَاءُ أَمْ بَيْضَاءُ؟ فَإِذَا أَمَرْتُكَ بِشَيْءٍ فَلَا تُرَاجِعْنِي.

وَفِي الْحَدِيثِ: "أَعْظَمُ النَّاسِ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ لِأَجْلِ مَسْأَلَتِهِ".

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[2]، أَيْ: إِنَّ الْبَقَرَ الْمَوْصُوفَ بِالتَّعْوِينِ وَالصُّفْرَةِ كَثِيرٌ، فَاشْتَبَهَ عَلَيْنَا أَيُّهَا نَذْبَحُ، وَقُرِئَ: (تَشَّابَهُ) بِمَعْنَى تَتَشَابَهُ بِطَرْحِ التَّاءِ وَإِدْغَامِهَا فِي الشِّينِ، وَتَشَابَهَتْ وَمُتَشَابِهَةٌ وَمُتَشَابِهٌ، وَقَرَأَ مُحَمَّدٌ ذُو الشَّامَةِ: إِنَّ الْبَاقِرَ يَشَّابَهُ، بِالْيَاءِ وَالتَّشْدِيدِ.

جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "لَوْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الْأَبَدِ"، أَيْ: لَوْ لَمْ يَقُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّا لَمُهْتَدُونَ إِلَى الْبَقَرَةِ الْمُرَادِ ذَبْحُهَا، أَوْ إِلَى مَا خَفِيَ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِ الْقَاتِلِ.

﴿لا ذَلُولٌ﴾[3]: صِفَةٌ لِ(بَقَرَةٌ) بِمَعْنَى بَقَرَةٍ غَيْرِ ذَلُولٍ، يَعْنِي لَمْ تُذَلَّلْ لِلْكِرَابِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ، وَلَا هِيَ مِنَ النَّوَاضِحِ الَّتِي يُسْنَى عَلَيْهَا لِسَقْيِ الْحُرُوثِ، وَ"لَا" الْأُولَى: لِلنَّفْيِ.

وَالثَّانِيَةُ: مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ الْأُولَى، لِأَنَّ الْمَعْنَى: لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ وَتَسْقِي، عَلَى أَنَّ الْفِعْلَيْنِ صِفَتَانِ لِ(ذَلُولٌ)، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا ذَلُولٌ مُثِيرَةٌ وَسَاقِيَةٌ.

وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: (لَا ذَلُولَ) بِمَعْنَى لَا ذَلُولَ هُنَاكَ، أَيْ: حَيْثُ هِيَ، وَهُوَ نَفْيٌ لِذُلِّهَا، وَلِأَنْ تُوصَفَ بِهِ فَيُقَالُ: هِيَ ذَلُولٌ، وَنَحْوُهُ قَوْلُكَ: مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَا بَخِيلَ وَلَا جَبَانَ، أَيْ فِيهِمْ، أَوْ حَيْثُ هُمْ، وَقُرِئَ: (تُسْقِي) بِضَمِّ التَّاءِ مِنْ أَسْقَى، "مُسَلَّمَةٌ": سَلَّمَهَا اللَّهُ مِنَ الْعُيُوبِ، أَوْ مُعْفَاةٌ مِنَ الْعَمَلِ سَلَّمَهَا أَهْلُهَا مِنْهُ كَقَوْلِهِ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَوْ مَعْبَرُ الظَّهْرِ يُنْبِي عَنْ وَلِيَّتِهِ مَا حَجَّ رَبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا اعْتَمَرَا

أَوْ مُخْلَصَةُ اللَّوْنِ، مِنْ سَلِمَ لَهُ كَذَا إِذَا خَلَصَ لَهُ، لَمْ يَشُبْ صُفْرَتَهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَلْوَانِ.

﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾[1]: لَا لُمْعَةَ فِي نُقْبَتِهَا مِنْ لَوْنٍ آخَرَ سِوَى الصُّفْرَةِ، فَهِيَ صَفْرَاءُ كُلُّهَا حَتَّى قَرْنُهَا وَظِلْفُهَا، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ وَشَاهُ وَشْيًا وَشِيَةً، إِذَا خَلَطَ بِلَوْنِهِ لَوْنًا آخَرَ، وَمِنْهُ: ثَوْرٌ مُوَشَّى الْقَوَائِمِ.

﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾[2]، أَيْ: بِحَقِيقَةِ وَصْفِ الْبَقَرَةِ، وَمَا بَقِيَ إِشْكَالٌ فِي أَمْرِهَا، "فَذَبَحُوهَا": أَيْ فَحَصَّلُوا الْبَقَرَةَ الْجَامِعَةَ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ كُلِّهَا فَذَبَحُوهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[3]: اسْتِثْقَالٌ لِاسْتِقْصَائِهِمْ وَاسْتِبْطَاءٌ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ لِتَطْوِيلِهِمُ الْمُفْرِطِ وَكَثْرَةِ اسْتِكْشَافِهِمْ مَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا، وَمَا كَادَتْ تَنْتَهِي سُؤَالَاتُهُمْ، وَمَا كَادَ يَنْقَطِعُ خَيْطُ إِسْهَابِهِمْ فِيهَا وَتَعَمُّقِهِمْ، وَقِيلَ: وَمَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا لِغَلَاءِ ثَمَنِهَا، وَقِيلَ: لِخَوْفِ الْفَضِيحَةِ فِي ظُهُورِ الْقَاتِلِ.

وَرُوِيَ: إِنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ شَيْخٌ صَالِحٌ لَهُ عِجْلَةٌ فَأَتَى بِهَا الْغَيْضَةَ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا لِابْنِي حَتَّى يَكْبُرَ، وَكَانَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ، فَشَبَّتْ وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ الْبَقَرِ وَأَسْمَنِهِ، فَسَاوَمُوهَا الْيَتِيمَ وَأُمَّهُ حَتَّى اشْتَرَوْهَا بِمِلْءِ مَسْكِهَا ذَهَبًا، وَكَانَتِ الْبَقَرَةُ إِذْ ذَاكَ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرَ، وَكَانُوا طَلَبُوا الْبَقَرَةَ الْمَوْصُوفَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَتِ الْبَقَرَةُ الَّتِي تَنَاوَلَهَا الْأَمْرُ بَقَرَةً مِنْ شِقِّ الْبَقَرِ غَيْرَ مَخْصُوصَةٍ، ثُمَّ انْقَلَبَتْ مَخْصُوصَةً بِلَوْنٍ وَصِفَاتٍ، فَذَبَحُوا الْمَخْصُوصَةَ، فَمَا فَعَلَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ؟

قُلْتُ: رَجَعَ مَنْسُوخًا، لِانْتِقَالِ الْحُكْمِ إِلَى الْبَقَرَةِ الْمَخْصُوصَةِ، وَالنَّسْخُ قَبْلَ الْفِعْلِ جَائِزٌ، عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ كَانَ لِإِبْهَامِهِ مُتَنَاوِلًا لِهَذِهِ الْبَقَرَةِ الْمَوْصُوفَةِ كَمَا تَنَاوَلَ غَيْرَهَا، وَلَوْ وَقَعَ الذَّبْحُ عَلَيْهَا بِحُكْمِ الْخِطَابِ قَبْلَ التَّخْصِيصِ لَكَانَ امْتِثَالًا لَهُ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَقَعَ عَلَيْهَا بَعْدَ التَّخْصِيصِ.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾[4]: خُوطِبَتِ الْجَمَاعَةُ لِوُجُودِ الْقَتْلِ فِيهِمْ، "فَادَّارَأْتُمْ": فَاخْتَلَفْتُمْ وَاخْتَصَمْتُمْ فِي شَأْنِهَا، لِأَنَّ الْمُتَخَاصِمِينَ يَدْرَأُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَيْ يَدْفَعُهُ وَيَزْحَمُهُ، أَوْ

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

تَدَافَعْتُمْ، بِمَعْنَى طَرَحَ قَتْلَهَا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَدَفَعَ الْمَطْرُوحُ عَلَيْهِ الطَّارِحَ، أَوْ لِأَنَّ الطَّرْحَ فِي نَفْسِهِ دَفْعٌ، أَوْ دَفَعَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَنِ الْبَرَاءَةِ وَاتَّهَمَهُ.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1]: مُظْهِرٌ لَا مَحَالَةَ مَا كَتَمْتُمْ مِنْ أَمْرِ الْقَتْلِ لَا يَتْرُكُهُ مَكْتُومًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أُعْمِلَ "مُخْرِجٌ" وَهُوَ فِي مَعْنَى الْمُضِيِّ؟

قُلْتُ: وَقَدْ حُكِيَ مَا كَانَ مُسْتَقْبَلًا فِي وَقْتِ التَّدَارُؤِ، كَمَا حُكِيَ الْحَاضِرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾[2].

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ وَهُمَا: "ادَّارَأْتُمْ" وَ"فَقُلْنَا"، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿اضْرِبُوهُ﴾[3]: إِمَّا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى النَّفْسِ وَالتَّذْكِيرِ عَلَى تَأْوِيلِ الشَّخْصِ وَالْإِنْسَانِ، وَإِمَّا إِلَى الْقَتِيلِ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[4]، ﴿بِبَعْضِهَا﴾[5]: بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ، وَاخْتُلِفَ فِي الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ، فَقِيلَ: لِسَانُهَا، وَقِيلَ: فَخِذُهَا الْيُمْنَى، وَقِيلَ: عَجَبُهَا، وَقِيلَ: الْعَظْمُ الَّذِي يَلِي الْغُضْرُوفَ وَهُوَ أَصْلُ الْأُذُنِ، وَقِيلَ: الْأُذُنُ، وَقِيلَ: الْبِضْعَةُ بَيْنَ الْكَتِفَيْنِ، وَالْمَعْنَى: فَضَرَبُوهُ فَحَيِيَ، فَحُذِفَ ذَلِكَ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾[6].

وَرُوِيَ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبُوهُ قَامَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا، وَقَالَ: قَتَلَنِي فُلَانٌ وَفُلَانٌ لِابْنَيْ عَمِّهِ، ثُمَّ سَقَطَ مَيِّتًا، فَأُخِذَا وَقُتِلَا وَلَمْ يُوَرَّثْ قَاتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾[7]: إِمَّا أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلَّذِينِ حَضَرُوا حَيَاةَ الْقَتِيلِ بِمَعْنَى: وَقُلْنَا لَهُمْ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾[8]: وَدَلَائِلَهُ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[9]: تَعْمَلُونَ عَلَى قَضِيَّةِ عُقُولِكُمْ، وَأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْكَهْف، الآية 18.
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

نَفْسٍ وَاحِدَةٍ قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَنْفُسِ كُلِّهَا لِعَدَمِ الِاخْتِصَاصِ، حَتَّى لَا تُنْكِرُوا الْبَعْثَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلْمُنْكِرِينَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا أَحْيَاهُ ابْتِدَاءً؟ وَلِمَ شَرَطَ فِي إِحْيَائِهِ ذَبْحَ الْبَقَرَةِ وَضَرْبَهُ بِبَعْضِهَا؟

قُلْتُ: فِي الْأَسْبَابِ وَالشُّرُوطِ حِكَمٌ وَفَوَائِدُ، وَإِنَّمَا شَرَطَ ذَلِكَ لِمَا فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ مِنَ التَّقَرُّبِ وَأَدَاءِ التَّكَالِيفِ، وَاكْتِسَابِ الثَّوَابِ وَالْإِشْعَارِ بِحُسْنِ تَقْدِيمِ الْقُرْبَةِ عَلَى الطَّلَبِ، وَمَا فِي التَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ لِتَشْدِيدِهِمْ مِنَ اللُّطْفِ لَهُمْ، وَلِآخَرِينَ فِي تَرْكِ التَّشْدِيدِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ –تَعَالَى– وَارْتِسَامِهَا عَلَى الْفَوْرِ، مِنْ غَيْرِ تَفْتِيشٍ وَتَكْثِيرِ سُؤَالٍ، وَنَفْعِ الْيَتِيمِ بِالتِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى بَرَكَةِ الْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَتَجْهِيلِ الْهَازِئِ بِمَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ كَلَامِ الْحُكَمَاءِ، وَبَيَانِ أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمُتَقَرِّبِ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَتَنَوَّقَ فِي اخْتِيَارِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ، وَأَنْ يَخْتَارَهُ فَتِيَّ السِّنِّ غَيْرَ قَحْمٍ وَلَا ضَرْعٍ، حَسَنَ اللَّوْنِ بَرِيًّا مِنَ الْعُيُوبِ يُونِقُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُغَالِيَ بِثَمَنِهِ، كَمَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ ضَحَّى بِنَجِيبَةٍ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ، وَأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْخِطَابِ نَسْخٌ لَهُ، وَأَنَّ النَّسْخَ قَبْلَ الْفِعْلِ جَائِزٌ، وَإِنْ لَمْ يَجُزْ قَبْلَ وَقْتِ الْفِعْلِ وَإِمْكَانِهِ، لِأَدَائِهِ إِلَى الْبَدَاءِ، وَلِيُعْلَمَ بِمَا أَمَرَ مِنْ مَسِّ الْمَيِّتِ بِالْمَيِّتِ وَحُصُولِ الْحَيَاةِ عَقِيبَهُ أَنَّ الْمُؤَثِّرَ هُوَ الْمُسَبِّبُ لَا الْأَسْبَابُ، لِأَنَّ الْمَوْتَيْنِ الْحَاصِلَيْنِ فِي الْجِسْمَيْنِ لَا يُعْقَلُ أَنْ تَتَوَلَّدَ مِنْهُمَا حَيَاةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا لِلْقِصَّةِ لَمْ تُقَصَّ عَلَى تَرْتِيبِهَا، وَكَانَ حَقُّهَا أَنْ يُقَدَّمَ ذِكْرُ الْقَتِيلِ وَالضَّرْبِ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِذَبْحِهَا، وَأَنْ يُقَالَ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[1]، فَقُلْنَا: اذْبَحُوا بَقَرَةً وَاضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا؟

قُلْتُ: كُلُّ مَا قُصَّ مِنْ قَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّمَا قُصَّ تَعْدِيدًا لِمَا وُجِدَ مِنْهُمْ مَنِ الْجِنَايَاتِ، وَتَقْرِيعًا لَهُمْ عَلَيْهَا، وَلِمَا جُدِّدَ فِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ، وَهَاتَانِ قِصَّتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مُسْتَقِلَّةٌ بِنَوْعٍ مِنَ التَّقْرِيعِ –وَإِنْ كَانَتَا مُتَّصِلَتَيْنِ مُتَّحِدَتَيْنِ–:

– فَالْأُولَى: لِتَقْرِيعِهِمْ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ وَتَرْكِ الْمُسَارَعَةِ إِلَى الِامْتِثَالِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ،

– وَالثَّانِيَةُ: لِلتَّقْرِيعِ عَلَى قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَإِنَّمَا قُدِّمَتْ قِصَّةُ الْأَمْرِ بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ عَلَى ذِكْرِ الْقَتِيلِ، لِأَنَّهُ لَوْ عَمِلَ عَلَى عَكْسِهِ لَكَانَتْ قِصَّةً وَاحِدَةً، وَلَذَهَبَ الْغَرَضُ فِي تَثْنِيَةِ التَّقْرِيعِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَلَقَدْ رُوعِيَتْ نُكْتَةٌ بَعْدَمَا اسْتُؤْنِفَتِ الثَّانِيَةُ اسْتِئْنَافَ قِصَّةٍ بِرَأْسِهَا أَنْ وُصِلَتْ بِالْأَوْلَى، دَلَالَةً عَلَى اتِّحَادِهِمَا بِضَمِيرِ الْبَقَرَةِ لَا بِاسْمِهَا الصَّرِيحِ فِي قَوْلِهِ: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾[1] حَتَّى تَبَيَّنَ أَنَّهُمَا قِصَّتَانِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى التَّقْرِيعِ وَتَثْنِيَتِهِ بِإِخْرَاجِ الثَّانِيَةِ مَخْرَجَ الِاسْتِئْنَافِ مَعَ تَأْخِيرِهَا، وَأَنَّهَا قِصَّةٌ وَاحِدَةٌ بِالضَّمِيرِ الرَّاجِعِ إِلَى الْبَقَرَةِ.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]

مَعْنَى ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾[3]: اسْتِبْعَادُ الْقَسْوَةِ مِنْ بَعْدِ مَا ذُكِرَ مِمَّا يُوجِبُ لِينَ الْقُلُوبِ وَرِقَّتَهَا، وَنَحْوُهُ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[4] وَصِفَةُ الْقُلُوبِ بِالْقَسْوَةِ وَالْغِلَظِ مَثَلٌ لِنُبُوِّهَا عَنِ الِاعْتِبَارِ، وَأَنَّ الْمَوَاعِظَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا.

وَ﴿ذَلِكَ﴾[5]: إِشَارَةٌ إِلَى إِحْيَاءِ الْقَتِيلِ، أَوْ إِلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ الْمَعْدُودَةِ.

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾[6]: فَهِيَ فِي قَسْوَتِهَا مِثْلُ الْحِجَارَةِ.

﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[7]: مِنْهَا، وَ"أَشَدُّ" مَعْطُوفٌ عَلَى الْكَافِ، إِمَّا عَلَى مَعْنَى أَوْ مِثْلُ أَشَدِّ قَسْوَةٍ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ الْأَعْمَشِ بِنَصْبِ الدَّالِ عَطْفًا عَلَى الْحِجَارَةِ، وَإِمَّا عَلَى: أَوْ هِيَ أَنْفُسُهَا أَشَدُّ قَسْوَةً.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَنْ عَرَفَ حَالَهَا شَبَّهَهَا بِالْحِجَارَةِ، أَوْ بِجَوْهَرٍ أَقْسَى مِنْهَا وَهُوَ الْحَدِيدُ مَثَلًا، أَوْ مَنْ عَرَفَهَا شَبَّهَهَا بِالْحِجَارَةِ، أَوْ قَالَ: هِيَ أَقْسَى مِنَ الْحِجَارَةِ.

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية .
2 سورة الْبَقَرَة، الآية .
3 سورة الْبَقَرَة، الآية .
4 سورة الْبَقَرَة، الآية .
5 سورة الْبَقَرَة، الآية .
6 سورة الْبَقَرَة، الآية .
7 سورة الْبَقَرَة، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: أَشَدُّ قَسْوَةً، وَفِعْلُ الْقَسْوَةِ مِمَّا يَخْرُجُ مِنْهُ أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ وَفِعْلُ التَّعَجُّبِ؟

قُلْتُ: لِكَوْنِهِ أَبْيَنَ وَأَدُلَّ عَلَى فَرْطِ الْقَسْوَةِ، وَوَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ لَا يُقْصَدَ مَعْنَى الْأَقْسَى، وَلَكِنْ قُصِدَ وَصْفُ الْقَسْوَةِ بِالشِّدَّةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: اشْتَدَّتْ قَسْوَةُ الْحِجَارَةِ، وَقُلُوبُهُمْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَقُرِئَ: (قَسَاوَةً)، وَتُرِكَ ضَمِيرُ الْمُفَضَّلِ عَلَيْهِ لِعَدَمِ الْإِلْبَاسِ، كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَرِيمٌ، وَعَمْرٌو أَكْرَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾[1]: بَيَانٌ لِفَضْلِ قُلُوبِهِمْ عَلَى الْحِجَارَةِ فِي شِدَّةِ الْقَسْوَةِ، وَتَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2]، وَقُرِئَ: (وَإِنْ) بِالتَّخْفِيفِ، وَهِيَ (إِنِ): الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ الَّتِي تَلْزَمُهَا اللَّامُ الْفَارِقَةُ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى-: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ﴾[3].

وَالتَّفَجُّرُ: التَّفَتُّحُ بِالسَّعَةِ وَالْكَثْرَةِ، وَقَرَأَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: (يَنْفَجِرُ) بِالنُّونِ.

﴿يَشَّقَّقُ﴾[4]: يَتَشَقَّقُ، وَبِهِ قَرَأَ الْأَعْمَشُ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا فِيهِ خُرُوقٌ وَاسِعَةٌ يَتَدَفَّقُ مِنْهَا الْمَاءُ الْكَثِيرُ الْغَزِيرُ، وَمِنْهَا مَا يَنْشَقُّ انْشِقَاقًا بِالطُّولِ أَوْ بِالْعَرْضِ فَيَنْبُعُ مِنْهُ الْمَاءُ أَيْضًا.

﴿يَهْبِطُ﴾[5]: يَتَرَدَّى مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ، وَقُرِئَ بِضَمِّ الْبَاءِ، وَالْخَشْيَةُ مَجَازٌ عَنِ انْقِيَادِهَا لِأَمْرِ اللَّهِ -تَعَالَى-، وَأَنَّهَا لَا تَمْتَنِعُ عَلَى مَا يُرِيدُ فِيهَا، وَقُلُوبُ هَؤُلَاءِ لَا تَنْقَادُ وَلَا تَفْعَلُ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَقُرِئَ (يَعْمَلُونَ) بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَهُوَ وَعِيدٌ.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[6]

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة يس، الآية 33.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَفَتَطْمَعُونَ": الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْمُؤْمِنِينَ، ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[1]: أَنْ يُحْدِثُوا الْإِيمَانَ لِأَجْلِ دَعْوَتِكُمْ وَيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾[2]، يَعْنِي: الْيَهُودَ.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾[3]: طَائِفَةٌ فِيمَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ، ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ﴾[4]، وَهُوَ مَا يَتْلُونَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾[5]، كَمَا حَرَّفُوا صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَآيَةَ الرَّجْمِ.

وَقِيلَ: كَانَ قَوْمٌ مِنَ السَّبْعِينَ الْمُخْتَارِينَ سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ حِينَ كَلَّمَ مُوسَى بِالطُّورِ وَمَا أُمِرَ بِهِ وَنُهِيَ، ثُمَّ قَالُوا: سَمِعْنَا اللَّهَ يَقُولُ فِي آخِرِهِ: إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعَلُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فَافْعَلُوا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَفْعَلُوا فَلَا بَأْسَ، وَقُرِئَ: (كَلِمَ اللهِ).

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[6]: مِنْ بَعْدِ مَا فَهِمُوهُ وَضَبَطُوهُ بِعُقُولِهِمْ وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ شُبْهَةٌ فِي صِحَّتِهِ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[7]: أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ مُفْتَرُونَ، وَالْمَعْنَى: إِنْ كَفَرَ هَؤُلَاءِ وَحَرَّفُوا فَلَهُمْ سَابِقَةٌ فِي ذَلِكَ.

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾[8]: يَعْنِي الْيَهُودَ، "قَالُوا": قَالَ مُنَافِقُوهُمْ، "آمَنَّا": بِأَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الرَّسُولُ الْمُبَشَّرُ بِهِ.

﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ﴾[9]: الَّذِينَ لَمْ يُنَافِقُوا، ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾[10]: الَّذِينَ نَافَقُوا، "قَالُوا": عَاتِبِينَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[11]: بِمَا بَيَّنَ لَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ صِفَةِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 26.
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[10] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[11] سورة الْبَقَرَة، الآية .

مُحَمَّدٍ، أَوْ قَالَ الْمُنَافِقُونَ لِأَعْقَابِهِمْ يُرُونَهُمُ التَّصَلُّبَ فِي دِينِهِمْ: أَتُحَدِّثُونَهُمْ؛ إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْتَحُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا فِي كِتَابِهِمْ، فَيُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُنَافِقُونَ الْيَهُودَ، ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾[1]: لِيَحْتَجُّوا عَلَيْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ فِي كِتَابِهِ، جَعَلُوا مُحَاجَّتَهُمْ بِهِ، وَقَوْلَهُمْ هُوَ فِي كِتَابِكُمْ هَكَذَا مُحَاجَّةً عِنْدَ اللَّهِ.

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ هَكَذَا، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ هَكَذَا، بِمَعْنَى وَاحِدٍ، "يَعْلَمُ": جَمِيعَ، ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[2]: وَمِنْ ذَلِكَ إِسْرَارُهُمُ الْكُفْرَ وَإِعْلَانُهُمُ الْإِيمَانَ؟

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[3]

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾[4]: لَا يُحْسِنُونَ الْكَتْبَ، فَيُطَالِعُوا التَّوْرَاةَ وَيَتَحَقَّقُوا مَا فِيهَا.

﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾[5]: التَّوْرَاةَ.

﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾[6]: إِلَّا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمَانِيِّهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ يَعْفُو عَنْهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ وَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِخَطَايَاهُمْ، وَأَنَّ آبَاءَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ، وَمَا تُمَنِّيهِمْ أَحْبَارُهُمْ مِنْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، وَقِيلَ: إِلَّا أَكَاذِيبَ مُخْتَلِفَةً سَمِعُوهَا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَتَقَبَّلُوهَا عَلَى التَّقْلِيدِ.

قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِابْنِ دَأْبٍ فِي شَيْءٍ حَدَّثَ بِهِ: أَهَذَا شَيْءٌ رَوَيْتَهُ، أَمْ تَمَنَّيْتَهُ، أَمِ اخْتَلَقْتَهُ؟

وَقِيلَ: إِلَّا مَا يَقْرَءُونَ مِنْ قَوْلِهِ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَـــــةٍ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَالِاشْتِقَاقُ مِنْ مَنَّى إِذَا قَدَّرَ، لِأَنَّ الْمُتَمَنِّيَ يُقَدِّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْزِرُ مَا يَتَمَنَّاهُ، وَكَذَلِكَ الْمُخْتَلِقُ وَالْقَارِئُ يُقَدِّرُ أَنَّ كَلِمَةَ كَذَا بَعْدَ كَذَا، وَإِلَّا أَمَانِيَّ: مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ، وَقُرِئَ: (أَمَانِيَ)، بِالتَّخْفِيفِ.

ذَكَرَ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ عَانَدُوا بِالتَّحْرِيفِ مَعَ الْعِلْمِ وَالِاسْتِيقَانِ، ثُمَّ الْعَوَامَّ الَّذِينَ قَلَّدُوهُمْ، وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّهُمْ فِي الضَّلَالِ سَوَاءٌ، لِأَنَّ الْعَالِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ بِعِلْمِهِ، وَعَلَى الْعَامِّيِّ أَنْ لَا يَرْضَى بِالتَّقْلِيدِ وَالظَّنِّ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنَ الْعِلْمِ.

﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾[1]: الْمُحَرَّفَ.

﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾[2]: تَأْكِيدٌ، وَهُوَ مِنْ مَجَازِ التَّأْكِيدِ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يُنْكِرُ مَعْرِفَةَ مَا كَتَبَهُ: يَا هَذَا، كَتَبْتَهُ بِيَمِينِكَ هَذِهِ.

﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[3]: مِنَ الرِّشَا.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4]

﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[5]: أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَدَدَ أَيَّامِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: كَانُوا يَقُولُونَ: مُدَّةُ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ، وَإِنَّمَا نُعَذَّبُ مَكَانَ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ﴾[1]: مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: إِنِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا، فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ، وَ"أَمْ": إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُعَادِلَةً بِمَعْنَى أَيُّ الْأَمْرَيْنِ كَائِنٌ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ، لِأَنَّ الْعِلْمَ وَاقِعٌ بِكَوْنِ أَحَدِهِمَا، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً، "بَلَى": إِثْبَاتٌ لِمَا بَعْدَ حَرْفِ النَّفْيِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾[2]، أَيْ: بَلَى تَمَسُّكُمْ أَبَدًا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾[3]: مِنَ السَّيِّئَاتِ، يَعْنِي كَبِيرَةً مِنَ الْكَبَائِرِ.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾[4]: تِلْكَ وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ، كَمَا يُحِيطُ الْعَدُوُّ وَلَمْ يَتَفَصَّ عَنْهَا بِالتَّوْبَةِ، وَقُرِئَ: (خَطَايَاهُ) وَ(خَطِيئَاتُهُ)، وَقِيلَ: فِي الْإِحَاطَةِ: كَانَ ذَنْبُهُ أَغْلَبَ مِنْ طَاعَتِهِ.

وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ عَنِ الْخَطِيئَةِ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، أَلَا أُرَاكَ ذَا لِحْيَةٍ وَمَا تَدْرِي مَا الْخَطِيئَةُ! انْظُرْ فِي الْمُصْحَفِ فَكُلُّ آيَةٍ نَهَى فِيهَا اللَّهُ عَنْهَا وَأَخْبَرَكَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ بِهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ فَهِيَ الْخَطِيئَةُ الْمُحِيطَةُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[5]

﴿لا تَعْبُدُونَ﴾[6]: إِخْبَارٌ فِي مَعْنَى النَّهْيِ، كَمَا تَقُولُ: تَذْهَبُ إِلَى فُلَانٍ تَقُولُ لَهُ كَذَا، تُرِيدُ الْأَمْرَ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ صَرِيحِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، لِأَنَّهُ كَأَنَّهُ سُورِعَ إِلَى الِامْتِثَالِ وَالِانْتِهَاءِ، فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ وَتَنْصُرُهُ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَأُبَيٍّ (لَا تَعْبُدُوا)، وَلَا بُدَّ مِنْ إِرَادَةِ الْقَوْلِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ: "وَقُولُوا".

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[7]، إِمَّا أَنْ يُقَدَّرَ: وَتُحْسِنُونَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، أَوْ وَأَحْسِنُوا.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْإِسْرَاء، الآية 23.

وَقِيلَ: هُوَ جَوَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]: إِجْرَاءً لَهُ مَجْرَى الْقَسَمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِذْ أَقْسَمْنَا عَلَيْهِمْ لَا تَعْبُدُونَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَلَّا تَعْبُدُوا، فَلَمَّا حُذِفَتْ "أَنْ" رُفِعَ، كَقَوْلِهِ:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَـى

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: (أَلَّا تَعْبُدُوا)، وَيَحْتَمِلُ (أَنْ لَا تَعْبُدُوا)، أَنْ تَكُونَ "أَنْ" فِيهِ مُفَسِّرَةً، وَأَنْ تَكُونَ أَنْ مَعَ الْفِعْلِ بَدَلًا عَنِ الْمِيثَاقِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوْحِيدَهُمْ، وَقُرِئَ بِالتَّاءِ حِكَايَةً لِمَا خُوطِبُوا بِهِ، وَبِالْيَاءِ لِأَنَّهُمْ غَيْبٌ، "حُسْنًا": قَوْلًا هُوَ حَسَنٌ فِي نَفْسِهِ، لِإِفْرَاطِ حُسْنِهِ، وَقُرِئَ (حَسَنًا)، وَ(حُسْنَى) عَلَى الْمَصْدَرِ كَبُشْرَى.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾[2]: عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ أَيْ تَوَلَّيْتُمْ عَنِ الْمِيثَاقِ وَرَفَضْتُمُوهُ.

﴿إِلاّ قَلِيلا مِنْكُمْ﴾[3]: قِيلَ: هُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْهُمْ.

﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾[4]: وَأَنْتُمْ قَوْمٌ عَادَتُكُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْمَوَاثِيقِ، وَالتَّوْلِيَةُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[5]

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾[1]: لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، جَعَلَ غَيْرَ الرَّجُلِ نَفْسَهُ إِذَا اتَّصَلَ بِهِ أَصْلًا أَوْ دِينًا، وَقِيلَ: إِذَا قَتَلَ غَيْرَهُ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُ يُقْتَصُّ مِنْهُ.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾[2]: بِالْمِيثَاقِ وَاعْتَرَفْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِلُزُومِهِ.

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[3]: عَلَيْهَا كَقَوْلِكَ: فُلَانٌ مُقِرٌّ عَلَى نَفْسِهِ بِكَذَا شَاهِدٌ عَلَيْهَا، وَقِيلَ: وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ الْيَوْمَ، يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ عَلَى إِقْرَارِ أَسْلَافِكُمْ بِهَذَا الْمِيثَاقِ.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾[4]: اسْتِبْعَادٌ لِمَا أُسْنِدَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْإِجْلَاءِ وَالْعُدْوَانِ بَعْدَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ مِنْهُمْ وَإِقْرَارِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ.

وَالْمَعْنَى ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشَاهِدُونَ، يَعْنِي أَنَّكُمْ قَوْمٌ آخَرُونَ غَيْرُ أُولَئِكَ الْمُقِرِّينَ تَنْزِيلًا، لِتَغَيُّرِ الصِّفَةِ مَنْزِلَةَ وَتَغَيُّرِ الذَّاتِ، كَمَا تَقُولُ: رَجَعْتَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَقْتُلُونَ﴾[5]: بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾[6].

وَقِيلَ: ﴿هَؤُلَاءِ﴾[7] مَوْصُولٌ بِمَعْنَى الَّذِي، وَقُرِئَ: (تَظَّاهَرُونَ): بِحَذْفِ التَّاءِ وَإِدْغَامِهَا، وَتَتَظَاهَرُونَ بِإِثْبَاتِهَا، وَتَظْهَرُونَ بِمَعْنَى تَتَظَهَّرُونَ أَيْ: تَتَعَاوَنُونَ عَلَيْهِمْ، وَقُرِئَ: (تَفْدُوهُمْ)، (وَتُفَادُوهُمْ)، (وَأَسْرَى)، (وَأُسَارَى).

﴿وَهُوَ﴾[8]: ضَمِيرُ الشَّأْنِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْهَمًا تَفْسِيرُهُ، ﴿إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾[9]، أَيْ: بِالْفِدَاءِ.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[10]، أَيْ: بِالْقِتَالِ وَالْإِجْلَاءِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[10] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْظَةَ كَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، وَالنَّضِيرَ كَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، فَكَانَ كُلُّ فَرِيقٍ يُقَاتِلُ مَعَ حُلَفَائِهِ، وَإِذَا غُلِبُوا خَرَّبُوا دِيَارَهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ، وَإِذَا أُسِرَ رَجُلٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ جَمَعُوا لَهُ حَتَّى يَفْدُوهُ، فَعَيَّرَتْهُمُ الْعَرَبُ وَقَالَتْ: كَيْفَ تُقَاتِلُونَهُمْ ثُمَّ تَفْدُونَهُمْ، فَيَقُولُونَ: أُمِرْنَا أَنْ نَفْدِيَهُمْ وَحُرِّمَ عَلَيْنَا قِتَالُهُمْ، وَلَكِنَّا نَسْتَحِي أَنْ نُذِّلَ حُلَفَاءَنَا، وَالْخِزْيُ: قَتْلُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَأَسْرُهُمْ وَإِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ، وَقِيلَ: الْجِزْيَةُ، وَإِنَّمَا رُدَّ مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، لِأَنَّ عِصْيَانَهُ أَشَدُّ، وَقُرِئَ (يُرَدُّونَ) (وَيَعْمَلُونَ) بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ.

﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾[1]: عَذَابُ الدُّنْيَا بِنُقْصَانِ الْجِزْيَةِ، وَلَا يَنْصُرُهُمْ أَحَدٌ بِالدَّفْعِ عَنْهُمْ، وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْآخِرَةِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2]

"الْكِتَابُ": التَّوْرَاةُ، آتَاهُ إِيَّاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَيُقَالُ: قَفَّاهُ إِذَا أَتْبَعَهُ مِنَ الْقَفَا، نَحْوُ ذَنَّبَهُ مِنَ الذَّنَبِ، وَقَفَّاهُ بِهِ: أَتْبَعَهُ إِيَّاهُ، يَعْنِي: وَأَرْسَلْنَا عَلَى أَثَرِهِ الْكَثِيرَ مِنَ الرُّسُلِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى– : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾[3]، وَهُمْ: يُوشَعُ، وَأَشْمُوِيلُ، وَشَمْعُونُ، وَدَاوُدُ، وَشُعَيْبًا، وَسُلَيْمَانُ، وَشِيعَا، وَأَرْمِيَا، وَعُزَيْرٌ، وَحِزْقِيلُ، وَإِلْيَاسُ، وَالْيَسَعُ، وَيُونُسُ، وَزَكَرِيَّا، وَيَحْيَى، وَغَيْرُهُمْ، وَقِيلَ: "عِيسَى": بِالسُّرْيَانِيَّةِ أَيْشُوعُ، وَ"مَرْيَمُ" بِمَعْنَى الْخَادِمِ، وَقِيلَ: الْمَرْيَمُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ النِّسَاءِ كَالزِّيرِ مِنَ الرِّجَالِ، وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُ رُؤْبَةَ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 44.

قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُـــــهُ

وَوَزْنُ "مَرْيَمَ" عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ (مَفْعَلٌ)، لِأَنَّ فَعْيَلًا بِفَتْحِ الْفَاءِ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْأَبْنِيَةِ كَمَا ثَبَتَ نَحْوُ عِثْيَرٍ وَعِلْيَبٍ، "الْبَيِّنَاتِ": الْمُعْجِزَاتُ الْوَاضِحَاتُ وَالْحُجَجُ، كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَالْإِخْبَارِ بِالْمُغَيَّبَاتِ، وَقُرِئَ: (وَآيَدْنَاهُ)، وَمِنْهُ: آجَدَهُ – بِالْجِيمِ – إِذَا قَوَّاهُ، يُقَالُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آجَدَنِي بَعْدَ ضَعْفٍ، وَأَوْجَدَنِي بَعْدَ فَقْرٍ.

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[1]: بِالرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ، كَمَا تَقُولُ: حَاتِمُ الْجُودِ، وَرَجُلُ صِدْقٍ، وَوَصْفُهَا بِالْقُدُسِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[2]، فَوَصَفَهُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالتَّقْرِيبِ لِلْكَرَامَةِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَمْ تَضُمَّهُ الْأَصْلَابُ، وَلَا أَرْحَامُ الطَّوَامِثِ، وَقِيلَ: بِجِبْرِيلَ، وَقِيلَ: بِالْإِنْجِيلِ، كَمَا قَالَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[3]، وَقِيلَ: بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى بِذِكْرِهِ.

وَالْمَعْنَى: وَلَقَدْ آتَيْنَا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْبِيَاءَكُمْ مَا آتَيْنَاهُمْ.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾[4] مِنْهُمْ بِالْحَقِّ، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [5]عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، فَوَسَّطَ بَيْنَ الْفَاءِ وَمَا تَعَلَّقَتْ بِهِ هَمْزَةُ التَّوْبِيخِ، وَالتَّعْجِيبُ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمْ مَا آتَيْنَاهُمْ فَفَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ، ثُمَّ وَبَّخَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَدُخُولُ الْفَاءِ لِعَطْفِهِ عَلَى الْمُقَدَّرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

– أَنْ تُرَادَ الْحَالُ الْمَاضِيَةُ، لِأَنَّ الْأَمْرَ فَظِيعٌ، فَأُرِيدَ اسْتِحْضَارُهُ فِي النُّفُوسِ وَتَصْوِيرُهُ فِي الْقُلُوبِ،

– وَأَنْ يُرَادَ: وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَهُمْ بَعْدُ، لِأَنَّكُمْ تَحُومُونَ حَوْلَ قَتْلِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَوْلَا أَنِّي أَعْصِمُهُ مِنْكُمْ، وَلِذَلِكَ سَحَرْتُمُوهُ وَسَمَمْتُمْ لَهُ الشَّاةَ، وَقَالَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عِنْدَ مَوْتِهِ: "مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَادُّنِي، فَهَذَا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي".

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة النِّسَاء، الآية 171.

[3] سورة الشُّورَى، الآية 52.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

"غُلْفٌ": جَمْعُ أَغْلَفَ، أَيْ: هِيَ خِلْقَةٌ وَجِبِلَّةٌ مُغَشَّاةٌ بِأَغْطِيَةٍ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَا تَفْقَهُهُ، مُسْتَعَارٌ مِنَ الْأَغْلَفِ الَّذِي لَمْ يُخْتَنْ، كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[1].

ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ قُلُوبُهُمْ مَخْلُوقَةً كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَالتَّمَكُّنِ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ، بِأَنَّ اللَّهَ لَعَنَهُمْ وَخَذَلَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَهُمُ الَّذِينَ غَلَّفُوا قُلُوبَهُمْ بِمَا أَحْدَثُوا مِنَ الْكُفْرِ الزَّائِغِ عَنِ الْفِطْرَةِ وَتَسَبَّبُوا بِذَلِكَ لِمَنْعِ الْأَلْطَافِ الَّتِي تَكُونُ لِلْمُتَوَقَّعِ إِيمَانُهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

﴿فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]: فَإِيمَانًا قَلِيلًا يُؤْمِنُونَ وَمَا مَزِيدَةٌ، وَهُوَ إِيمَانُهُمْ بِبَعْضِ الْكِتَابِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْقِلَّةُ بِمَعْنَى الْعَدَمِ.

وَقِيلَ: "غُلْفٌ": تَخْفِيفُ "غُلُفٌ" جَمْعُ "غِلَافٍ" أَيْ: قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ لِلْعِلْمِ فَنَحْنُ مُسْتَغْنُونَ بِمَا عِنْدَنَا عَنْ غَيْرِهِ.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو: قُلُوبُنَا غُلُفٌ بِضَمَّتَيْنِ.

﴿كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[3]: هُوَ الْقُرْآنُ.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾[4]: مِنْ كِتَابِهِمْ لَا يُخَالِفُهُ، وَقُرِئَ: (مُصَدِّقًا) عَلَى الْحَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ نَصْبُهَا عَنِ النَّكِرَةِ؟

قُلْتُ: إِذَا وَصَفَ النَّكِرَةَ تَخَصُّصٌ فَصَحَّ انْتِصَابُ الْحَالِ عَنْهُ، وَقَدْ وُصِفَ "كِتَابٌ" بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[5]، وَجَوَابُ لَمَّا مَحْذُوفٌ، وَهُوَ نَحْوُ: كَذَّبُوا بِهِ، وَاسْتَهَانُوا بِمَجِيئِهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[6]: يَسْتَنْصِرُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ إِذَا قَاتَلُوهُمْ، قَالُوا: اللَّهُمَّ انْصُرْنَا بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ الَّذِي نَجِدُ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ فِي التَّوْرَاةِ، وَيَقُولُونَ

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية 5.

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

لِأَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: قَدْ أَظَلَّ زَمَانُ نَبِيٍّ يَخْرُجُ بِتَصْدِيقِ مَا قُلْنَا فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ.

وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾[1]: يَفْتَحُونَ عَلَيْهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ مِنْهُمْ قَدْ قَرُبَ أَوَانُهُ، وَالسِّينُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ: يَسْأَلُونَ أَنْفُسَهُمُ الْفَتْحَ عَلَيْهِمْ، كَالسِّينِ فِي اسْتَعْجَبَ وَاسْتَسْخَرَ، أَوْ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِمْ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾[2]: مِنَ الْحَقِّ.

﴿كَفَرُوا بِهِ﴾[3]: بَغْيًا وَحَسَدًا، وَحِرْصًا عَلَى الرِّئَاسَةِ.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4]، أَيْ: عَلَيْهِمْ وَضْعًا لِلظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّعْنَةَ لِحِقَتْهُمْ لِكُفْرِهِمْ، وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْجِنْسِ وَيَدْخُلُوا فِيهِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[5]

"مَا": نَكِرَةٌ مَنْصُوبَةٌ مُفَسِّرَةٌ لِفَاعِلِ بِئْسَ بِمَعْنَى بِئْسَ شَيْئًا.

﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾: وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾[1]: وَاشْتَرَوْا بِمَعْنَى بَاعُوا، ﴿بَغْيًا﴾[2]: حَسَدًا وَطَلَبًا لِمَا لَيْسَ لَهُمْ، وَهُوَ عِلَّةُ اشْتَرَوْا.

﴿أَنْ يُنَزِّلَ﴾[3]، لِأَنْ يُنَزِّلَ أَوْ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ، أَيْ حَسَدُوهُ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ.

﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾[4]، الَّذِي هُوَ الْوَحْيُ.

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾[5]، وَتَقْتَضِي حِكْمَتُهُ وَإِرْسَالُهُ.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[6]: فَصَارُوا أَحِقَّاءَ بِغَضَبٍ مُتَرَادِفٍ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِنَبِيِّ الْحَقِّ وَبَغَوْا عَلَيْهِ، وَقِيلَ: كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ عِيسَى، وَقِيلَ: بَعْدَ قَوْلِهِمْ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَقَوْلِهِمْ: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[7]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ كُفْرِهِمْ.

﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾[8]: مُطْلَقٌ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ.

﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾[9]: مُقَيَّدٌ بِالتَّوْرَاةِ.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾[10]، أَيْ: قَالُوا ذَلِكَ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَ التَّوْرَاةِ.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾[11]: مِنْهَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ، وَفِيهِ رَدٌّ لِمَقَالَتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَفَرُوا بِمَا يُوَافِقُ التَّوْرَاةَ فَقَدْ كَفَرُوا بِهَا، ثُمَّ اعْتُرِضَ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ مَعَ ادِّعَائِهِمُ الْإِيمَانَ بِالتَّوْرَاةِ، وَالتَّوْرَاةُ لَا تُسَوِّغُ قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[10] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[11] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1]

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[2]، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا، أَيْ عَبَدْتُمُ الْعِجْلَ وَأَنْتُمْ وَاضِعُونَ الْعِبَادَةَ غَيْرَ مَوْضِعِهَا، وَأَنْ يَكُونَ اعْتِرَاضًا بِمَعْنَى: وَأَنْتُمْ قَوْمٌ عَادَتُكُمُ الظُّلْمُ، وَكُرِّرَ رَفْعُ الطُّورِ لِمَا نِيطَ بِهِ مِنْ زِيَادَةٍ لَيْسَتْ مَعَ الْأَوَّلِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّوْكِيدِ.

﴿وَاسْمَعُوا﴾[3] مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾[4] قَوْلَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾[5] أَمْرَكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ طَابَقَ قَوْلُهُ جَوَابَهُمْ؟

قُلْتُ: طَابَقَهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿اسْمَعُوا﴾[6]، وَلْيَكُنْ سَمَاعُكُمْ سَمَاعَ تَقَبُّلٍ وَطَاعَةٍ، فَقَالُوا: ﴿سَمِعْنَا﴾[7]، وَلَكِنْ لَا سَمَاعَ طَاعَةٍ.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[8]، أَيْ: تَدَاخَلَهُمْ حُبُّهُ وَالْحِرْصُ عَلَى عِبَادَتِهِ كَمَا يَتَدَاخَلُ الثَّوْبَ الصِّبْغُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾[9]: بَيَانٌ لِمَكَانِ الْإِشْرَابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[10].

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾[11]: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[10] سورة النِّسَاء، الآية 10.
[11] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾[1]: بِالتَّوْرَاةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ عِبَادَةُ الْعَجَاجِيلِ، وَإِضَافَةُ الْأَمْرِ إِلَى إِيمَانِهِمْ تَهَكُّمٌ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾[2]، وَكَذَلِكَ إِضَافَةُ الْإِيمَانِ إِلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3]: تَشْكِيكٌ فِي إِيمَانِهِمْ وَقَدْحٌ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ لَهُ.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[4]

﴿خَالِصَةً﴾[5]: نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْمُرَادُ الْجَنَّةُ، أَيْ: سَالِمَةً لَكُمْ، خَاصَّةً بِكُمْ، لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاكُمْ فِيهَا حَقٌّ، يَعْنِي: إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمْ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا.

وَ"النَّاسُ": لِلْجِنْسِ وَقِيلَ: لِلْعَهْدِ، وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ.

﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾[6]، لِأَنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اشْتَاقَ إِلَيْهَا وَتَمَنَّى سُرْعَةَ الْوُصُولِ إِلَى النَّعِيمِ، وَالتَّخَلُّصَ مِنَ الدَّارِ ذَاتِ الشَّوَائِبِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ مَا رُوِيَ.

كَانَ عَلِيٌّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ فِي غِلَالِهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ الْحَسَنُ: مَا هَذَا بِزِيِّ الْمُحَارِبِينَ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، لَا يُبَالِي أَبُوكَ عَلَى الْمَوْتِ سَقَطَ أَمْ عَلَيْهِ سَقَطَ الْمَوْتُ،

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة هُودَ، الآية 87.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَعَنْ حُذَيْفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ كَانَ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، فَلَمَّا احْتُضِرَ قَالَ: حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مِنْ نَدِمَ، يَعْنِي: عَلَى التَّمَنِّي، وَقَالَ عَمَّارٌ بِصِفِّينَ: "الْآنَ أُلَاقِي الْأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ" وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشَرَةِ يُحِبُّ الْمَوْتَ وَيَحِنُّ إِلَيْهِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَوْ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَغَصَّ كُلُّ إِنْسَانٍ بِرِيقِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ وَمَا بَقِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ".

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1]: بِمَا أَسْلَفُوا مِنْ مُوجِبَاتِ النَّارِ مِنَ الْكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَتَحْرِيفِ كِتَابِ اللَّهِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[2]: مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ بِالْغَيْبِ، وَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَدْرَاكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَنَّوْا؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ لَوْ تَمَنَّوْا لَنُقِلَ ذَلِكَ كَمَا نُقِلَ سَائِرُ الْحَوَادِثِ، وَلَكَانَ نَاقِلُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أُولِي الْمَطَاعِنِ فِي الْإِسْلَامِ أَكْثَرَ مِنَ الذَّرِّ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ نَقَلَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: التَّمَنِّي مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَهُوَ سِرٌّ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ فَمِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَنَّوْهُ؟

قُلْتُ: لَيْسَ التَّمَنِّي مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ إِنَّمَا هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ بِلِسَانِهِ، لَيْتَ لِي كَذَا، فَإِذَا قَالَهُ قَالُوا: تَمَنَّى، وَلَيْتَ: كَلِمَةُ التَّمَنِّي، وَمُحَالٌ أَنْ يَقَعَ التَّحَدِّي بِمَا فِي الضَّمَائِرِ وَالْقُلُوبِ، وَلَوْ كَانَ التَّمَنِّي بِالْقُلُوبِ وَتَمَنَّوْا لَقَالُوا: قَدْ تَمَنَّيْنَا الْمَوْتَ فِي قُلُوبِنَا، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ يَقُولُوهُ، لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا يُصَدَّقُونَ.

قُلْتُ: كَمْ حُكِيَ عَنْهُمْ مِنْ أَشْيَاءَ قَاوَلُوا بِهَا الْمُسْلِمِينَ مِنَ الِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَتَحْرِيفِ كِتَابِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُصَدَّقِينَ فِيهِ، وَلَا مَحْمَلَ لَهُ إِلَّا الْكَذِبُ الْبَحْتُ وَلَمْ يُبَالُوا، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُونَ مِنْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ التَّمَنِّيَ مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ وَقَدْ فَعَلْنَاهُ، مَعَ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ وَإِخْبَارِهِمْ عَنْ ضَمَائِرِهِمْ، وَكَانَ الرَّجُلُ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْإِيمَانِ فَيُصَدَّقُ مَعَ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا لِأَنَّهُ أَمْرٌ خَافٍ لَا سَبِيلَ إِلَى الِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 24.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]: تَهْدِيدٌ لَهُمْ .

"وَلَتَجِدَنَّهُمْ": هُوَ مِنْ وَجَدَ بِمَعْنَى عَلِمَ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ فِي قَوْلِهِمْ: وَجَدْتُ زَيْدًا ذَا الْحِفَاظِ، وَمَفْعُولَاهُ: "هُمْ"، ﴿أَحْرَصَ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿عَلَى حَيَاةٍ﴾[3] بِالتَّنْكِيرِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ أَرَادَ حَيَاةً مَخْصُوصَةً، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْمُتَطَاوِلَةُ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْقِرَاءَةُ بِهَا أَوْقَعَ مِنْ قِرَاءَةِ أُبَيٍّ (عَلَى الْحَيَاةِ).

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[4]: مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَعْنَى ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾[5]: أَحْرَصُ مِنَ النَّاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَمْ يَدْخُلِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا تَحْتَ النَّاسِ؟

قُلْتُ: بَلَى، وَلَكِنَّهُمْ أُفْرِدُوا بِالذِّكْرِ، لِأَنَّ حِرْصَهُمْ شَدِيدٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: وَأَحْرَصَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، فَحُذِفَ، لِدَلَالَةِ ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ﴾[6] عَلَيْهِ، وَفِيهِ تَوْبِيخٌ عَظِيمٌ، لِأَنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِعَاقِبَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَحِرْصُهُمْ عَلَيْهَا لَا يُسْتَبْعَدُ؛ لِأَنَّهَا جَنَّتُهُمْ، فَإِذَا زَادَ عَلَيْهِمْ فِي الْحِرْصِ مَنْ لَهُ كِتَابٌ وَهُوَ مُقِرٌّ بِالْجَزَاءِ كَانَ حَقِيقًا بِأَعْظَمِ التَّوْبِيخِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ زَادَ حِرْصُهُمْ عَلَى حِرْصِ الْمُشْرِكِينَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا –لِعِلْمِهِمْ بِحَالِهِمْ– أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى النَّارِ لَا مَحَالَةَ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالَّذِينَ أَشْرَكُوا الْمَجُوسَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِمُلُوكِهِمْ: عِشْ أَلْفَ نَيْرُوزٍ وَأَلْفَ مَهْرَجَانٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: هُوَ قَوْلُ الْأَعَاجِمِ: زِي هَزَارْ سَالْ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَقِيلَ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[1]: كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ، أَيْ وَمِنْهُمْ نَاسٌ، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾[2]: عَلَى حَذْفِ الْمَوْصُوفِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[3].

وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا –عَلَى هَذَا– مُشَارٌ بِهِ إِلَى الْيَهُودِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَالضَّمِيرُ فِي: ﴿وَمَا هُوَ﴾[4]: لِأَحَدِهِمْ، وَ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾[5]: فَاعِلُ ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾[6]، أَيْ: وَمَا أَحَدُهُمْ بِمَنْ يُزَحْزِحُهُ مِنَ النَّارِ تَعْمِيرُهُ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿يُعَمَّرَ﴾[7] مِنْ مَصْدَرِهِ، وَ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾[8] بَدَلٌ مِنْهُ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿هُوَ﴾[9]: مُبْهَمًا، وَ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾[10] مُوَضِّحَهُ، وَالزَّحْزَحَةُ: التَّبْعِيدُ وَالْإِنْحَاءُ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾[11] مَا مَوْقِعُهُ؟

قُلْتُ: هُوَ بَيَانٌ لِزِيَادَةِ حِرْصِهِمْ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِئْنَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ ﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾[12] بِـ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾[13]؟

قُلْتُ: هُوَ حِكَايَةٌ لِوِدَادَتِهِمْ، وَ﴿لَوْ﴾[14]: فِي مَعْنَى التَّمَنِّي، وَكَانَ الْقِيَاسُ: لَوْ أَعْمَرَ، إِلَّا أَنَّهُ جَرَى عَلَى لَفْظِ الْغَيْبَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾[15] كَقَوْلِكَ: حَلَفَ بِاللَّهِ لِيَفْعَلَنَّ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الصَّافَّات، الآية 164.
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[10] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[11] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[12] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[13] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[14] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[15] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[1]

رُوِيَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ صُورِيَّا مِنْ أَحْبَارِ "فَدَكَ "حَاجَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَسَأَلَهُ عَمَّنْ يَهْبِطُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ، فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقَالَ: ذَاكَ عَدُّونَا، وَلَوْ كَانَ غَيْرَهُ لَآمَنَّا بِكَ، وَقَدْ عَادَانَا مِرَارًا، وَأَشَدُّهَا أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّنَا أَنَّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَيُخَرِّبُهُ بُخْتُنَصَّرُ، فَبَعَثْنَا مَنْ يَقْتُلُهُ فَلَقِيَهُ بِبَابِلَ غُلَامًا مِسْكِينًا، فَدَفَعَ عَنْهُ جِبْرِيلُ وَقَالَ: إِنْ كَانَ رَبُّكُمْ أَمَرَهُ بِهَلَاكِكُمْ فَإِنَّهُ لَا يُسَلِّطُكُمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِيَّاهُ فَعَلَى أَيِّ حَقٍّ تَقْتُلُونَهُ، وَقِيلَ: أَمَرَهُ اللَّهُ –تَعَالَى– أَنْ يَجْعَلَ النُّبُوَّةَ فِينَا فَجَعَلَهَا فِي غَيْرِنَا.

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لِعُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَرْضٌ بِأَعْلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَمَرُّهُ عَلَى مِدْرَاسِ الْيَهُودِ، فَكَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِمْ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ، فَقَالُوا: يَا عُمَرُ، قَدْ أَحْبَبْنَاكَ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِيكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَجِيئُكُمْ لِحُبِّكُمْ، وَلَا أَسْأَلُكُمْ لِأَنِّي شَاكٌّ فِي دِينِي، وَإِنَّمَا أَدْخُلُ عَلَيْكُمْ لِأَزْدَادَ بَصِيرَةً فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَرَى آثَارَهُ فِي كِتَابِكُمْ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ جِبْرِيلَ؟ فَقَالُوا: ذَاكَ عَدُّونَا يُطْلِعُ مُحَمَّدًا عَلَى أَسْرَارِنَا، وَهُوَ صَاحِبُ كَلِّ خَسْفٍ وَعَذَابٍ، وَإِنَّ مِيكَائِيلَ يَجِيءُ بِالْخِصْبِ وَالسَّلَامِ. فَقَالَ لَهُمْ: وَمَا مَنْزِلَتُهُمَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالُوا: أَقْرَبُ مَنْزِلَةٍ، جِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِهِ، وَمِيكَائِيلُ عَنْ يَسَارِهِ، وَمِيكَائِيلُ عَدُوٌّ لِجِبْرِيلَ.

فَقَالَ عُمَرُ: لَئِنْ كَانَا كَمَا تَقُولُونَ فَمَا هُمَا بِعَدُوَّيْنِ، وَلَأَنْتُمْ أَكْفَرُ مِنَ الْحَمِيرِ، وَمَنْ كَانَ عَدُوًّا لِأَحَدِهِمَا كَانَ عَدُوًّا لِلْآخَرِ، وَمَنْ كَانَ عَدُوًّا لَهُمَا كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ.

ثُمَّ رَجَعَ عُمَرُ، فَوَجَدَ جِبْرِيلَ قَدْ سَبَقَهُ بِالْوَحْيِ، فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَقَدْ وَافَقَكَ رَبُّكَ يَا عُمَرُ، فَقَالَ عُمَرُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي دِينِ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَصْلَبَ مِنَ الْحَجَرِ"، وَقُرِئَ: (جَبْرَئِيلَ)، بِوَزْنِ قَفْشَلِيلَ وَ(جَبْرَئِلَ) بِحَذْفِ الْيَاءِ، وَ(جَبْرِيلَ) بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ، وَ(جِبْرِيلَ) بِوَزْنِ قِنْدِيلٍ، وَ(جِبْرَالَّ) بِلَامٍ شَدِيدَةٍ، وَ(جَبْرَائِيلَ) بِوَزْنِ جَبْرَاعِيلَ، وَ(جَبْرَائِلَ) بِوَزْنِ جَبْرَاعِلَ، وَمُنِعَ الصَّرْفُ فِيهِ لِلتَّعْرِيفِ وَالْعُجْمَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: عَبْدُ اللَّهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

الضَّمِيرُ فِي ﴿نَزَّلَهُ﴾[1]: لِلْقُرْآنِ، وَنَحْوُ هَذَا الْإِضْمَارِ –أَعْنِي إِضْمَارَ مَا لَمْ يَسْبِقْ ذِكْرُهُ– فِيهِ فَخَامَةٌ لِشَأْنِ صَاحِبِهِ، حَيْثُ يُجْعَلُ لِفَرْطِ شُهْرَتِهِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُكْتَفَى عَنِ اسْمِهِ الصَّرِيحِ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾[2]، أَيْ: حَفَّظَهُ إِيَّاكَ وَفَهَّمَكَهُ.

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3]: بِتَيْسِيرِهِ وَتَسْهِيلِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَانَ حَقُّ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: عَلَى قَلْبِي.

قُلْتُ: جَاءَتْ عَلَى حِكَايَةِ كَلَامِ اللَّهِ –تَعَالَى– كَمَا تَكَلَّمَ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قُلْ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ مِنْ قَوْلِي: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَقَامَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾[4]: جَزَاءً لِلشَّرْطِ؟

قُلْتُ فِيهِ وَجْهَانِ:

– أَحَدُهُمَا: إِنْ عَادَى جِبْرِيلَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلَا وَجْهَ لِمُعَادَاتِهِ حَيْثُ نَزَّلَ كِتَابًا مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَوْ أَنْصَفُوا لَأَحَبُّوهُ وَشَكَرُوا لَهُ صَنِيعَهُ فِي إِنْزَالِهِ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُصَحِّحُ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ.

– وَالثَّانِي: إِنْ عَادَاهُ أَحَدٌ، فَالسَّبَبُ فِي عَدَاوَتِهِ أَنَّهُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُصَدِّقًا لِكِتَابِهِمْ وَمُوَافِقًا لَهُ، وَهُمْ كَارِهُونَ لِلْقُرْآنِ وَلِمُوَافَقَتِهِ لِكِتَابِهِمْ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يُحَرِّفُونَهُ وَيَجْحَدُونَ مُوَافَقَتَهُ لَهُ، كَقَوْلِكَ: إِنْ عَادَاكَ فُلَانٌ فَقَدْ آذَيْتَهُ وَأَسَأْتَ إِلَيْهِ.

أُفْرِدَ الْمَلَكَانِ بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهِمَا كَأَنَّهُمَا مِنْ جِنْسٍ آخَرَ، وَهُوَ مِمَّا ذُكِرَ أَنَّ التَّغَايُرَ فِي الْوَصْفِ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ التَّغَايُرِ فِي الذَّاتِ، وَقُرِئَ: (مِيكَالَ)، بِوَزْنِ قِنْطَارٍ، وَ(مِيكَائِيلَ) كَمِيكَاعِيلَ، وَ(مِيكَائِلَ) كَمِيكَاعِلَ، وَ(مِيكَئِلَ) كَمِيكَعِلَ، وَ(مِيكَئِيلَ) كَمِيكَعِيلَ.

قَالَ ابْنُ جِنِّيٍّ: الْعَرَبُ إِذَا نَطَقَتْ بِالْأَعْجَمِيِّ خَلَطَتْ فِيهِ.

﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[5]، أَرَادَ: عَدُوٌّ لَهُمْ فَجَاءَ بِالظَّاهِرِ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا عَادَاهُمْ لِكُفْرِهِمْ، وَأَنَّ عَدَاوَةَ الْمَلَائِكَةِ كُفْرٌ، وَإِذَا كَانَتْ عَدَاوَةُ الْأَنْبِيَاءِ كُفْرًا فَمَا بَالُ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ أَشْرَفُ، وَالْمَعْنَى مَنْ عَادَاهُمْ عَادَاهُ اللَّهُ وَعَاقَبَهُ أَشَدَّ الْعِقَابِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُونَ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

﴿إِلاّ الْفَاسِقُونَ﴾[2]: إِلَّا الْمُتَمَرِّدُونَ مِنَ الْكَفَرَةِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: إِذَا اسْتُعْمِلَ الْفِسْقُ فِي نَوْعٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَقَعَ عَلَى أَعْظَمِ ذَلِكَ النَّوْعِ مِنْ كُفْرٍ وَغَيْرِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: قَالَ ابْنُ صُورِيَّا لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: مَا جِئْتَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنْ آيَةٍ فَنَتَّبِعَكَ لَهَا فَنَزَلَتْ، وَاللَّامُ فِي ﴿الْفَاسِقُونَ﴾[3]: لِلْجِنْسِ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ تَكُونَ إِشَارَةً إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ.

﴿أَوَ كُلَّمَا﴾[4]: الْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ مَعْنَاهُ: أَكَفَرُوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَكُلَّمَا عَاهَدُوا، وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ بِسُكُونِ الْوَاوِ عَلَى أَنَّ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾[5] بِمَعْنَى الَّذِينَ فَسَقُوا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الَّذِينَ فَسَقُوا، أَوْ نَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ مِرَارًا كَثِيرَةً، وَقُرِئَ (عُوهِدُوا وَعَهَدُوا)، وَالْيَهُودُ مَوْسُومُونَ بِالْغَدْرِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ، وَكَمْ أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْهُمْ وَمِنْ آبَائِهِمْ فَنَقَضُوا، وَكَمْ عَاهَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَلَمْ يَفُوا ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾[6].

وَالنَّبْذُ الرَّمْيُ بِالذِّمَامِ وَرَفْضُهُ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (نَقَضَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) وَقَالَ: فَرِيقٌ مِنْهُمْ، لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَنْقُضْ.

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[6] سورة الْأَنْفَالِ، الآية 56.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1]: بِالتَّوْرَاةِ وَلَيْسُوا مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، فَلَا يَعُدُّونَ نَقْضَ الْمَوَاثِيقِ ذَنْبًا وَلَا يُبَالُونَ بِهِ.

﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾[2] يَعْنِي: التَّوْرَاةَ، لِأَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ الْمُصَدِّقِ لِمَا مَعَهُمْ كَافِرُونَ بِهَا نَابِذُونَ لَهَا، وَقِيلَ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾[3]: الْقُرْآنُ، نَبَذُوهُ بَعْدَمَا لَزِمَهُمْ تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ.

﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[4]: أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُمْ فِيهِ شَكٌّ، يَعْنِي أَنَّ عِلْمَهُمْ بِذَلِكَ رَصِينٌ، وَلَكِنَّهُمْ كَابَرُوا وَعَانَدُوا وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، مُثِّلَ لِتَرْكِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ مَثَلٌ بِمَا يُرْمَى بِهَا وَرَاءَ الظَّهْرِ؛ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ وَقِلَّةَ الْتِفَاتٍ إِلَيْهِ.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ: هُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَقْرَءُونَهُ، وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَعَنْ سُفْيَانَ: أَدْرَجُوهُ فِي الدِّيبَاجِ وَالْحَرِيرِ وَحَلُّوهُ بِالذَّهَبِ، وَلَمْ يُحِلُّوا حَلَالَهُ وَلَمْ يُحَرِّمُوا حَرَامَهُ.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[5]

﴿وَاتَّبَعُوا﴾[6]: أَيْ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾[1]، يَعْنِي: وَاتَّبَعُوا كُتُبَ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ الَّتِي كَانَتْ تَقْرَؤُهَا.

﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[2]، أَيْ: عَلَى عَهْدِ مُلْكِهِ وَفِي زَمَانِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَانُوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ ثُمَّ يَضُمُّونَ إِلَى مَا سَمِعُوا أَكَاذِيبَ يُلَفِّقُونَهَا وَيُلْقُونَهَا إِلَى الْكَهَنَةِ، وَقَدْ دَوَّنُوهَا فِي كُتُبٍ يَقْرَءُوهَا وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ، وَفَشَا ذَلِكَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–، حَتَّى قَالُوا: إِنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: هَذَا عِلْمُ سُلَيْمَانَ، وَمَا تَمَّ لِسُلَيْمَانَ مُلْكُهُ إِلَّا بِهَذَا الْعِلْمِ، وَبِهِ تُسَخَّرُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالرِّيحُ الَّتِي تَجْرِي بِأَمْرِهِ.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾[3]: تَكْذِيبٌ لِلشَّيَاطِينِ وَدَفْعٌ لِمَا بَهَتَتْ بِهِ سُلَيْمَانَ مِنِ اعْتِقَادِ السِّحْرِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَسَمَّاهُ كُفْرًا.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾[4]: هُمُ الَّذِينَ ﴿كَفَرُوا﴾[5]: بِاسْتِعْمَالِ السِّحْرِ وَتَدْوِينِهِ.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[6]: يَقْصِدُونَ بِهِ إِغْوَاءَهُمْ وَإِضْلَالَهُمْ.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾[7]: عَطْفٌ عَلَى السِّحْرِ، أَيْ: وَيُعَلِّمُونَهُمْ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ، وَقِيلَ: هُوَ عَطْفٌ عَلَى ﴿مَا تَتْلُو﴾[8]، أَيْ: وَاتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ.

﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[9]: عَطْفُ بَيَانٍ لِلْمَلَكَيْنِ عَلَمَانِ لَهُمَا.

وَالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِمَا هُوَ عِلْمُ السِّحْرِ، ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ لِلنَّاسِ، مَنْ تَعَلَّمَهُ مِنْهُمْ وَعَمِلَ بِهِ كَانَ كَافِرًا، وَمَنْ تَجَنَّبَهُ أَوْ تَعَلَّمَهُ لَا لِيَعْمَلَ بِهِ؛ وَلَكِنْ لِيَتَوَقَّاهُ، وَلِئَلَّا يَغْتَرَّ بِهِ كَانَ مُؤْمِنًا:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّـرْ ـرِ وَلَكِنْ لِتَوَقِّيـــــهِ

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية .
2 سورة الْبَقَرَة، الآية .
3 سورة الْبَقَرَة، الآية .
4 سورة الْبَقَرَة، الآية .
5 سورة الْبَقَرَة، الآية .
6 سورة الْبَقَرَة، الآية .
7 سورة الْبَقَرَة، الآية .
8 سورة الْبَقَرَة، الآية .
9 سورة الْبَقَرَة، الآية .

كَمَا ابْتُلِيَ قَوْمُ طَالُوتَ بِالنَّهَرِ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[1].

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (عَلَى الْمَلِكَيْنِ): بِكَسْرِ اللَّامِ، عَلَى أَنَّ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِمَا عِلْمُ السِّحْرِ كَانَا مَلِكَيْنِ بِبَابِلَ، وَمَا يُعَلِّمُ الْمَلَكَانِ أَحَدًا حَتَّى يُنَبِّهَاهُ وَيَنْصَحَاهُ وَيَقُولَا لَهُ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾[2]، أَيِ: ابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ.

﴿فَلا تَكْفُرْ﴾[3]: فَلَا تَتَعَلَّمْ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ حَقٌّ فَتَكْفُرَ.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾[4]: الضَّمِيرُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾[5]، أَيْ فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنَ الْمَلَكَيْنِ.

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[6]، أَيْ: عِلْمَ السِّحْرِ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ حِيلَةٍ وَتَمْوِيهٍ، كَالنَّفْثِ فِي الْعُقَدِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُحْدِثُ اللَّهُ عِنْدَهُ الْفَرْكَ وَالنُّشُوزَ وَالْخِلَافَ، ابْتِلَاءً مِنْهُ؛ لَا أَنَّ السِّحْرَ لَهُ أَثَرٌ فِي نَفْسِهِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[7]، لِأَنَّهُ رُبَّمَا أَحْدَثَ اللَّهُ عِنْدَهُ فِعْلًا مِنْ أَفْعَالِهِ وَرُبَّمَا لَمْ يُحْدِثْ.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾[8]، لِأَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ بِهِ الشَّرَّ، وَفِيهِ أَنَّ اجْتِنَابَهُ أَصْلَحُ كَتَعَلُّمِ الْفَلْسَفَةِ الَّتِي لَا يُؤْمَنُ أَنْ تَجُرَّ إِلَى الْغَوَايَةِ، وَلَقَدْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ أَنَّ مَنِ اشْتَرَاهُ أَيِ اسْتَبْدَلَ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.

﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[9]: مِنْ نَصِيبٍ.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾[10]، أَيْ: بَاعُوهَا.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (الشَّيَاطُونَ)، وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: بُسْتَانُ فُلَانٍ حَوْلَهُ بَسَاتُونَ، وَقَدْ ذُكِرَ وَجْهُهُ فِيمَا بَعْدُ، وَقَرَأَ الزُّهْرِيُّ: (هَارُوتُ وَمَارُوتُ) بِالرَّفْعِ عَلَى "هُمَا هَارُوتُ وَمَارُوتُ" وَهُمَا

---

1 سورة الْبَقَرَة، الآية 249.

2 سورة الْبَقَرَة، الآية .

3 سورة الْبَقَرَة، الآية .

4 سورة الْبَقَرَة، الآية .

5 سورة الْبَقَرَة، الآية .

6 سورة الْبَقَرَة، الآية .

7 سورة الْبَقَرَة، الآية .

8 سورة الْبَقَرَة، الآية .

9 سورة الْبَقَرَة، الآية .

10 سورة الْبَقَرَة، الآية .

اسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ بِدَلِيلِ مَنْعِ الصَّرْفِ، وَلَوْ كَانَا مِنَ الْهَرْتِ وَالْمَرْتِ –وَهُوَ الْكَسْرُ كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ– لَانْصَرَفَا، وَقَرَأَ طَلْحَةُ: (وَمَا يُعْلِمَانِ) مِنْ أَعْلَمَ، وَقُرِئَ: (بَيْنَ الْمُرْءِ) بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا مَعَ الْهَمْزِ، وَ"الْمَرِّ" بِالتَّشْدِيدِ عَلَى تَقْدِيرِ التَّخْفِيفِ وَالْوَقْفِ، كَقَوْلِهِمْ: فَرَجٌ، وَإِجْرَاءِ الْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: (وَمَا هُمْ بِضَارِّي) بِطَرْحِ النُّونِ وَالْإِضَافَةِ إِلَى أَحَدٍ وَالْفَصْلِ بَيْنَهُمَا بِالظَّرْفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُضَافُ إِلَى أَحَدٍ وَهُوَ مَجْرُورٌ بِمِنْ؟

قُلْتُ: جُعِلَ الْجَارُّ جُزْءًا مِنَ الْمَجْرُورِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَثْبَتَ لَهُمُ الْعِلْمَ أَوَّلًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾[1] عَلَى سَبِيلِ التَّوْكِيدِ الْقَسَمِيِّ ثُمَّ نَفَاهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ لَوْ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِعِلْمِهِمْ، جَعَلَهُمْ حِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ كَأَنَّهُمْ مُنْسَلِخُونَ عَنْهُ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3]

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾[4] بِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ.

﴿وَاتَّقَوْا﴾[5]: اللَّهَ فَتَرَكُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ مَنْ نَبْذِ كِتَابِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ كُتُبِ الشَّيَاطِينَ.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[6]، وَقُرِئَ: (لَمَثْوَبَةٌ) كَمَشُورَةٍ وَمَشْوَرَةٍ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]: أَنَّ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَقَدْ عَلِمُوا، وَلَكِنَّهُ جَهَّلَهُمْ لِتَرْكِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أُوثِرَتِ الْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ عَلَى الْفِعْلِيَّةِ فِي جَوَابِ لَوْ؟

قُلْتُ: لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى ثَبَاتِ الْمَثُوبَةِ وَاسْتِقْرَارِهَا، كَمَا عُدِلَ عَنِ النَّصْبِ إِلَى الرَّفْعِ فِي "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ" لِذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: لَمَثُوبَةُ اللَّهِ خَيْرٌ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمَعْنَى: لَشَيْءٌ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ لَهُمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾[2]: تَمَنِّيًا لِإِيمَانِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ عَنْ إِرَادَةِ اللَّهِ إِيمَانَهُمْ وَاخْتِيَارِهِمْ لَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَيْتَهُمْ آمَنُوا.

ثُمَّ ابْتُدِئَ: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[3] كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا أَلْقَى عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ: رَاعِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْ رَاقِبْنَا وَانْتَظِرْنَا، وَتَأَنَّ بِنَا حَتَّى نَفْهَمَهُ وَنَحْفَظَهُ، وَكَانَتْ لِلْيَهُودِ كَلِمَةٌ يَتَسَابُّونَ بِهَا عِبْرَانِيَّةٌ أَوْ سُرْيَانِيَّةٌ، وَهِيَ "رَاعِينَا" فَلَمَّا سَمِعُوا بِقَوْلِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿رَاعِنَا﴾[4] افْتَرَصُوهُ، وَخَاطِبُوا بِهِ الرَّسُولَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَهُمْ يَعْنُونَ بِهِ تِلْكَ الْمَسَبَّةَ، فَنُهِيَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْهَا وَأُمِرُوا بِمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ ﴿انْظُرْنَا﴾[5] مِنْ نَظَرَهُ إِذَا انْتَظَرَهُ، وَقَرَأَ أُبَيٌّ: (انْظِرْنَا) مِنَ النَّظْرَةِ، أَيْ أَمْهِلْنَا حَتَّى نَحْفَظَ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: (رَاعُونَا) عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُخَاطِبُونَهُ بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِلتَّوْقِيرِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (رَاعِنًا)، بِالتَّنْوِينِ مِنَ الرَّعَنِ وَهُوَ الْهَوَجُ، أَيْ: لَا تَقُولُوا قَوْلًا رَاعِنًا مَنْسُوبًا إِلَى الرَّعَنِ رَعِينًا، كَدَارِعٍ وَلَابِنٍ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَشْبَهَ قَوْلَهُمْ: "رَاعِينَا"، وَكَانَ سَبَبًا فِي السَّبِّ اتُّصِفَ بِالرَّعَنِ.

﴿وَاسْمَعُوا﴾[6]: وَأَحْسِنُوا سَمَاعَ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَيُلْقِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَسَائِلِ بِآذَانٍ وَاعِيَةٍ وَأَذْهَانٍ حَاضِرَةٍ، حَتَّى لَا تَحْتَاجُوا إِلَى الِاسْتِعَانَةِ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَطَلَبِ الْمُرَاعَاةِ، أَوْ: وَاسْمَعُوا سَمَاعَ قَبُولٍ وَطَاعَةٍ، وَلَا يَكُنْ سَمَاعُكُمْ مِثْلَ سَمَاعِ الْيَهُودِ حَيْثُ قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، أَوْ: وَاسْمَعُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ بِجِدٍّ حَتَّى لَا تَرْجِعُوا إِلَى مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ؛ تَأْكِيدًا عَلَيْهِمْ تَرْكَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ.

وَرُوِيَ أَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ سَمِعَهَا مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ، عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ سَمِعْتُهَا مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ يَقُولُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، فَقَالُوا: أَوَلَسْتُمْ تَقُولُونَهَا؟ فَنَزَلَتْ.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾[1]: وَلِلْيَهُودِ الَّذِينَ تَهَاوَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسَبُّوهُ.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] مِنَ الْأُولَى لِلْبَيَانِ، لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا جِنْسٌ تَحْتَهُ نَوْعَانِ: أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكُونَ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾[3] وَالثَّانِيَةُ: مَزِيدَةٌ لِاسْتِغْرَاقِ الْخَيْرِ، وَالثَّالِثَةُ: لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَالْخَيْرُ الْوَحْيُ، وَكَذَلِكَ الرَّحْمَةُ كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[4].

وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَحَقَّ بِأَنْ يُوحَى إِلَيْهِمْ فَيَحْسُدُونَكُمْ، وَمَا يُحِبُّونَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ.

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾[5] بِالنُّبُوَّةِ.

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾[6] وَلَا يَشَاءُ إِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[7]: إِشْعَارٌ بِأَنَّ إِيتَاءَ النُّبُوَّةِ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾[8].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَيِّنَة، الآية 1.

[4] سورة الزُّخْرُف، الآية 32.

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[8] سورة الْإِسْرَاء، الآية 87.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهَ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]

رُوِيَ أَنَّهُمْ طَعَنُوا فِي النَّسْخِ، فَقَالُوا: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِخِلَافِهِ، وَيَقُولُ الْيَوْمَ قَوْلًا وَيَرْجِعُ عَنْهُ غَدًا؟ فَنَزَلَتْ، وَقُرِئَ: (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ)، وَمَا (نُنْسِخُ) بِضَمِّ النُّونِ مِنْ أَنْسَخَ، أَوْ نُنْسِأَهَا، وَقُرِئَ: (نُنْسِهَا) وَ(نُنَسِّهَا) بِالتَّشْدِيدِ، وَ(تُنْسِهَا)، وَ(تُنْسَهَا) عَلَى خِطَابِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ : (مَا نُنْسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا)، وَقَرَأَ حُذَيْفَةُ : "مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِكُهَا".

وَنَسْخُ الْآيَةِ: إِزَالَتُهَا بِإِبْدَالِ أُخْرَى مَكَانَهَا، وَإِنْسَاخُهَا الْأَمْرُ بِنَسْخِهَا، وَهُوَ أَنْ يَأْمُرَ جِبْرِيلَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– بِأَنْ يَجْعَلَهَا مَنْسُوخَةً بِالْإِعْلَامِ بِنَسْخِهَا، وَنَسْؤُهَا تَأْخِيرُهَا وَإِذْهَابُهَا لَا إِلَى بَدَلٍ، وَإِنْسَاؤُهَا أَنْ يُذْهَبَ بِحِفْظِهَا عَنِ الْقُلُوبِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ آيَةٍ يُذْهَبُ بِهَا عَلَى مَا تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ –مِنْ إِزَالَةِ لَفْظِهَا وَحُكْمِهَا مَعًا، أَوْ مِنْ إِزَالَةِ أَحَدِهِمَا إِلَى بَدَلٍ أَوْ غَيْرِ بَدَلٍ– ﴿نَأْتِ﴾[2]: بِآيَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا لِلْعِبَادِ، أَيْ: بِآيَةٍ الْعَمَلُ بِهَا أَكْثَرُ لِلثَّوَابِ أَوْ مِثْلِهَا فِي ذَلِكَ.

﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]: فَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْخَيْرِ، وَمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَعَلَى مِثْلِهِ فِي الْخَيْرِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، فَهُوَ يَمْلِكُ أُمُورَكُمْ يُدَبِّرُهَا وَيُجْرِيهَا عَلَى حَسَبِ مَا يُصْلِحُكُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَتَعَبَّدُكُمْ بِهِ مِنْ نَاسِخٍ وَمَنْسُوخٍ، لَمَّا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ مَالِكُ أُمُورِهِمْ وَمُدَبِّرُهَا –عَلَى حَسَبِ مَصَالِحِهِمْ مِنْ نَسْخِ الْآيَاتِ وَغَيْرِهِ، وَقَرَّرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾[2] –أَرَادَ أَنْ يُوصِيَهُمْ بِالثِّقَةِ بِهِ فِيمَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ مِمَّا يَتَعَبَّدُهُمْ بِهِ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ لَا يَقْتَرِحُوا عَلَى رَسُولِهِمْ مَا اقْتَرَحَهُ آبَاءُ الْيَهُودِ عَلَى مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ عَاقِبَتُهَا وَبَالًا عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِمْ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾[3]، ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[4]، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾[5]: وَمَنْ تَرَكَ الثِّقَةَ بِالْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَشَكَّ فِيهَا وَاقْتَرَحَ غَيْرَهَا، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[6].

رُوِيَ أَنَّ فِنْحَاصَ بْنَ عَازُورَاءَ وَزَيْدَ بْنَ قَيْسٍ وَنَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ: أَلَمْ تَرَوْا مَا أَصَابَكُمْ، وَلَوْ كُنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ مَا هُزِمْتُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى دِينِنَا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَفْضَلُ، وَنَحْنُ أَهْدَى مِنْكُمْ سَبِيلًا، فَقَالَ عَمَّارٌ: كَيْفَ نَقْضُ الْعَهْدِ فِيكُمْ؟ قَالُوا: شَدِيدٌ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ أَنْ لَا أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ مَا عِشْتُ. فَقَالَتِ الْيَهُودُ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَبَأَ، وَقَالَ حُذَيْفَةُ: وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا، وَبِالْكَعْبَةِ قِبْلَةً، وَبِالْمُؤْمِنِينَ إِخْوَانًا.

ثُمَّ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: "أَصَبْتُمَا خَيْرًا وَأَفْلَحْتُمَا"، فَنَزَلَتْ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾[7]؟ قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 138.

[4] سورة النِّسَاءِ، الآية 153.

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـ ﴿وَدَّ﴾[1] عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَنْ تَرْتَدُّوا عَنْ دِينِكُمْ، وَتَمَنِّيهِمْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَمِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهِمْ، لَا مِنْ قِبَلِ التَّدَيُّنِ وَالْمَيْلِ مَعَ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ وَدُّوا ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ، فَكَيْفَ يَكُونُ تَمَنِّيهِمْ مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ؟!

– وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـ(حَسَدًا)، أَيْ: حَسَدًا مُتَبَالِغًا مُنْبَعِثًا مِنْ أَصْلِ أَنْفُسِهِمْ.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾[2]: فَاسْلُكُوا مَعَهُمْ سَبِيلَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَمَّا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعَدَاوَةِ.

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[3] الَّذِي هُوَ قَتْلُ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَإِجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ وَإِذْلَالُهُمْ بِضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]، فَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾[5]: مِنْ حَسَنَةٍ صَلَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا.

﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[6]: تَجِدُوا ثَوَابَهُ عِنْدَ اللَّهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[7]: عَالِمٌ، لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ عَمَلُ عَامِلٍ.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[8]

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

الضَّمِيرُ فِي ﴿وَقَالُوا﴾[1]: لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالْمَعْنَى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارَى، فَلَفَّ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ؛ ثِقَةً بِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّ إِلَى كُلِّ فَرِيقٍ قَوْلَهُ، وَأَمْنًا مِنَ الْإِلْبَاسِ لِمَا عُلِمَ مِنَ التَّعَادِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَتَضْلِيلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾[2]، وَالْهُودُ: جَمْعُ هَائِدٍ، كَعَائِذٍ وَعُوذٍ، وَبَازِلٍ وَبُزْلٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: كَانَ هُودًا عَلَى تَوْحِيدِ الِاسْمِ وَجَمْعِ الْخَبَرِ؟

قُلْتُ: حُمِلَ الِاسْمُ عَلَى لَفْظِ "مَنْ" وَالْخَبَرُ عَلَى مَعْنَاهُ، كَقِرَاءَةِ الْحَسَنِ (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالُو الْجَحِيمِ)، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[3]، وَقَرَأَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: (إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا).

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ قِيلَ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾[4] وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾[5] أُمْنِيَّةٌ وَاحِدَةٌ؟

قُلْتُ: أُشِيرَ بِهَا إِلَى الْأَمَانِيِّ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ أُمْنِيَّتُهُمْ أَنْ لَا يُنَزَّلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأُمْنِيَّتُهُمْ أَنْ يَرُدُّوهُمْ كُفَّارًا، وَأُمْنِيَّتُهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ غَيْرُهُمْ، أَيْ: تِلْكَ الْأَمَانِيُّ الْبَاطِلَةُ أَمَانِيُّهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[6]: مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[7].

وَ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾[8]: اعْتِرَاضٌ، أَوْ أُرِيدَ: أَمْثَالُ تِلْكَ الْأُمْنِيَّةِ أَمَانِيُّهُمْ، عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، يُرِيدُ أَنَّ أَمَانِيَّهُمْ جَمِيعًا فِي الْبُطْلَانِ مِثْلُ أُمْنِيَّتِهِمْ هَذِهِ، وَالْأُمْنِيَّةُ أُفْعُولَةٌ مِنَ التَّمَنِّي، مِثْلُ الْأُضْحُوكَةِ وَالْأُعْجُوبَةِ.

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[9]: هَلُمُّوا حُجَّتَكُمْ عَلَى اخْتِصَاصِكُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 135.

[3] سورة الْجِنّ، الآية 23.

[4] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَة ، الآية .

[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] فِي دَعْوَاكُمْ، وَهَذَا أَهْدَمُ شَيْءٍ لِمَذْهَبِ الْمُقَلِّدِينَ، وَأَنَّ كُلَّ قَوْلٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ فَهُوَ بَاطِلٌ غَيْرُ ثَابِتٍ.

وَ﴿هَاتِ﴾[2]: صَوْتٌ بِمَنْزِلَةِ هَاءِ، بِمَعْنَى أَحْضِرْ.

﴿بَلَى﴾[3]: إِثْبَاتٌ لِمَا نَفَوْهُ مِنْ دُخُولِ غَيْرِهِمُ الْجَنَّةَ.

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[4] مَنْ أَخْلَصَ نَفْسَهُ لَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[5]: فِي عَمَلِهِ.

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾[6]: الَّذِي يَسْتَوْجِبُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾[7] كَيْفَ مَوْقِعُهُ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿بَلَى﴾[8] رَدًّا لِقَوْلِهِمْ، ثُمَّ يَقَعُ ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾[9] كَلَامًا مُبْتَدَأً، وَيَكُونُ ﴿مَنْ﴾: مُتَضَمِّنًا لِمَعْنَى الشَّرْطِ، وَجَوَابُهُ: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾.

وَأَنْ يَكُونَ ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾[10] فَاعِلًا لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: بَلَى يَدْخُلُهَا مَنْ أَسْلَمَ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾[11]: كَلَامًا مَعْطُوفًا عَلَى يَدْخُلُهَا مَنْ أَسْلَمَ.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[10] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[11] سورة الْبَقَرَة، الآية .

يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]

﴿عَلَى شَيْءٍ﴾[2]، أَيْ: عَلَى شَيْءٍ يَصِحُّ وَيُعْتَدُّ بِهِ، وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ، لِأَنَّ الْمُحَالَ وَالْمَعْدُومَ يَقَعُ عَلَيْهِمَا اسْمُ الشَّيْءِ، فَإِذَا نُفِيَ إِطْلَاقُ اسْمِ الشَّيْءِ عَلَيْهِ، فَقَدْ بُولِغَ فِي تَرْكِ الِاعْتِدَادِ بِهِ إِلَى مَا لَيْسَ بَعْدَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: أَقَلُّ مِنْ لَا شَيْءَ.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[3]: الْوَاوُ لِلْحَالِ، وَالْكِتَابُ لِلْجِنْسِ، أَيْ قَالُوا ذَلِكَ وَحَالُهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتِّلَاوَةِ لِلْكُتُبِ، وَحَقُّ مَنْ حَمَلَ التَّوْرَاةَ أَوِ الْإِنْجِيلَ أَوْ غَيْرَهُمَا مَنْ كُتِبَ اللَّهِ وَآمَنَ بِهِ أَنْ لَا يَكْفُرَ بِالْبَاقِي، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْكِتَابَيْنِ مُصَدِّقٌ لِلثَّانِي شَاهِدٌ بِصِحَّتِهِ، وَكَذَلِكَ كُتُبُ اللَّهِ جَمِيعًا مُتَوَارِدَةٌ عَلَى تَصْدِيقِ بَعْضِهَا بَعْضًا.

﴿كَذَلِكَ﴾[4]، أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الَّذِي سَمِعْتَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْهَاجِ، ﴿قَالَ﴾[5]: الْجَهَلَةُ ﴿الَّذِينَ﴾[6]: لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا كِتَابَ، كَعَبَدَةِ الْأَصْنَامِ وَالْمُعَطِّلَةِ وَنَحْوِهِمْ، قَالُوا لِأَهْلِ كُلِّ دِينٍ: لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهَذَا تَوْبِيخٌ عَظِيمٌ لَهُمْ، حَيْثُ نَظَمُوا أَنْفُسَهُمْ –مَعَ عِلْمِهِمْ– فِي سِلْكِ مَنْ لَا يَعْلَمُ.

وَرُوِيَ أَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَتَاهُمْ أَحْبَارُ الْيَهُودِ، فَتَنَاظَرُوا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: مَا أَنْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَكَفَرُوا بِعِيسَى وَالْإِنْجِيلِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَهُمْ نَحْوَهُ، وَكَفَرُوا بِمُوسَى وَالتَّوْرَاةِ.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾[7] بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[8]: بِمَا يَقْسِمُ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مِنَ الْعِقَابِ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ.

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .
[8] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

وَعَنِ الْحَسَنِ: حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَهُمْ أَنْ يُكَذِّبَهُمْ وَيُدْخِلَهُمُ النَّارَ.

﴿أَنْ يُذْكَرَ﴾[1]: ثَانِي مَفْعُولَيْ مَنَعَ، لِأَنَّكَ تَقُولُ: مَنَعْتُهُ كَذَا، وَمِثْلُهُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ﴾[2]، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يُحْذَفَ حَرْفُ الْجَرِّ مَعَ أَنْ، وَلَكَ أَنْ تَنْصِبَهُ مَفْعُولًا لَهُ بِمَعْنَى: (كَرَاهَةَ أَنْ يُذْكَرَ)، وَهُوَ حُكْمٌ عَامٌّ لِجِنْسِ مَسَاجِدِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَانِعَهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ مُفْرِطٌ فِي الظُّلْمِ.

وَالسَّبَبُ فِيهِ: أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا يَطْرَحُونَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ الْأَذَى وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ أَنْ يُصَلُّوا فِيهِ، وَأَنَّ الرُّومَ غَزَوْا أَهْلَهُ فَخَرَّبُوهُ وَأَحْرَقُوا التَّوْرَاةَ وَقَتَلُوا وَسَبَوْا، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ مَنْعَ الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ قِيلَ: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾[4]، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمَنْعُ وَالتَّخْرِيبُ عَلَى مَسْجِدٍ وَاحِدٍ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ أَوِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ؟

قُلْتُ: لَا بَأْسَ أَنْ يَجِيءَ الْحُكْمُ عَامًّا، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ خَاصًّا، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ آذَى صَالِحًا وَاحِدًا: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آذَى الصَّالِحِينَ، وَكَمَا قَالَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[5]، وَالْمَنْزُولُ فِيهِ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ.

﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾[6]، بِانْقِطَاعِ الذِّكْرِ أَوْ بِتَخْرِيبِ الْبُنْيَانِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُرَادَ بِ ﴿مَنْ مَنَعَ﴾[7]: الْعُمُومُ كَمَا أُرِيدَ بِمَسَاجِدِ اللَّهِ، وَلَا يُرَادُ الَّذِينَ مَنَعُوا بِأَعْيَانِهِمْ مِنْ أُولَئِكَ النَّصَارَى أَوِ الْمُشْرِكِينَ.

﴿أُولَئِكَ﴾[8]: الْمَانِعُونَ.

﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾[9]، أَيْ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْإِسْرَاء، الآية 59.

[3] سورة الْكَهْف، الآية 55.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْهُمَزَة، الآية 1.

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿إِلاَّ خَائِفِينَ﴾[1]: عَلَى حَالِ التَّهَيُّبِ وَارْتِعَادِ الْفَرَائِصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمْ، فَضْلًا أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَيَلُوهَا وَيَمْنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا.

وَالْمَعْنَى: مَا كَانَ الْحَقُّ وَالْوَاجِبُ إِلَّا ذَلِكَ لَوْلَا ظُلْمُ الْكَفَرَةِ وَعُتُوُّهُمْ.

وَقِيلَ: مَا كَانَ لَهُمْ فِي حُكْمِ اللَّهِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ أَنَّهُ يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُقَوِّيهِمْ؛ حَتَّى لَا يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ.

رُوِيَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى إِلَّا مُتَنَكِّرًا مُسَارَقَةً.

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يُوجَدُ نَصْرَانِيٌّ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَّا أُنْهِكَ ضَرْبًا وَأُبْلِغَ إِلَيْهِ فِي الْعُقُوبَةِ، وَقِيلَ: نَادَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَلَا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ".

وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: (إِلَّا خُيَّفًا)، وَهُوَ مِثْلُ صُيَّمٍ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي دُخُولِ الْكَافِرِ الْمَسْجِدَ، فَجَوَّزَهُ أَبُو حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَلَمْ يُجَوِّزْهُ مَالِكٌ، وَفَرَّقَ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَغَيْرِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ النَّهْيُ عَنْ تَمْكِينِهِمْ مِنَ الدُّخُولِ وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾[2].

﴿خِزْيٌ﴾[3]: قَتْلٌ وَسَبْيٌ، أَوْ ذِلَّةٌ بِضَرْبِ الْجِزْيَةِ، وَقِيلَ: فَتْحُ مَدَائِنِهِمْ؛ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَرُومِيَّةَ وَعَمُورِيَّةَ.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4]

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾[5]، أَيْ: بِلَادُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا لِلَّهِ هُوَ مَالِكُهَا وَمُتَوَلِّيهَا.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْأَحْزَاب، الآية 53.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾[1]: فَفِي أَيِّ مَكَانٍ فَعَلْتُمُ التَّوْلِيَةَ، يَعْنِي تَوْلِيَةَ وُجُوهِكُمْ شَطْرَ الْقِبْلَةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[2].

﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[3]، أَيْ: جِهَتُهُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا وَرَضِيَهَا.

وَالْمَعْنَى: أَنَّكُمْ إِذَا مُنِعْتُمْ أَنْ تُصَلُّوا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَدْ جُعِلَتْ لَكُمُ الْأَرْضُ مَسْجِدًا، فَصَلُّوا فِي أَيِّ بُقْعَةٍ شِئْتُمْ مِنْ بِقَاعِهَا، وَافْعَلُوا التَّوْلِيَةَ فِيهَا، فَإِنَّ التَّوْلِيَةَ مُمْكِنَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا يَخْتَصُّ [إِسْكَانُهَا] فِي مَسْجِدٍ دُونَ مَسْجِدٍ، وَلَا فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾[4] الرَّحْمَةِ، يُرِيدُ التَّوْسِعَةَ عَلَى عِبَادِهِ وَالتَّيْسِيرَ عَلَيْهِمْ، ﴿عَلِيمٌ﴾: بِمَصَالِحِهِمْ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ: نَزَلَتْ فِي صَلَاةِ الْمُسَافِرِ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ.

وَعَنْ عَطَاءٍ: عُمِّيَتِ الْقِبْلَةُ عَلَى قَوْمٍ فَصَلُّوا إِلَى أَنْحَاءَ مُخْتَلِفَةٍ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَبَيَّنُوا خَطَأَهُمْ فَعُذِرُوا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا لِلدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَلَمْ يُرِدِ الصَّلَاةَ.

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا) بِفَتْحِ التَّاءِ مِنَ التَّوَلِّي يُرِيدُ: فَأَيْنَمَا تَوَجَّهُوا الْقِبْلَةُ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[5]

﴿وَقَالُوا﴾[6] –وَقُرِئَ بِغَيْرِ وَاوٍ– يُرِيدُ الَّذِينَ قَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَعُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 150.

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿سُبْحَانَهُ﴾[1]: تَنْزِيهٌ لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَبْعِيدٌ.

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]: هُوَ خَالِقُهُ وَمَالِكُهُ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ الْمَلَائِكَةُ وَعُزَيْرٌ وَالْمَسِيحُ.

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[3]: مُنْقَادُونَ، لَا يَمْتَنِعُ شَيْءٌ مِنْهُمْ عَلَى تَكْوِينِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَمْ يُجَانَسْ، وَمِنْ حَقِّ الْوَلَدِ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْوَالِدِ، وَالتَّنْوِينُ فِي ﴿كُلٌّ﴾[4]: عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ: كُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: كُلُّ مَنْ جَعَلُوهُ لِلَّهِ وَلَدًا لَهُ قَانِتُونَ، مُطِيعُونَ، عَابِدُونَ، مُقِرُّونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، مُنْكِرُونَ لِمَا أَضَافُوا إِلَيْهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَاءَ بِمَا الَّتِي لِغَيْرِ أُولِي الْعِلْمِ مَعَ قَوْلِهِ قَانِتُونَ؟

قُلْتُ: هُوَ كَقَوْلِهِ: سُبْحَانَ مَا سَخَّرَكُنَّ لَنَا، وَكَأَنَّهُ جَاءَ بِـ ﴿مَا﴾[5] دُونَ ﴿مَنْ﴾[6] تَحْقِيرًا لَهُمْ، وَتَصْغِيرًا لِشَأْنِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[7].

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[8]

يُقَالُ: بَدُعَ الشَّيْءُ فَهُوَ بَدِيعٌ، كَقَوْلِكَ: بَزُعَ الرَّجُلُ فَهُوَ بَزِيعٌ، وَ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾[9]: مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ إِلَى فَاعِلِهَا، أَيْ: بَدِيعُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَقِيلَ: الْبَدِيعُ بِمَعْنَى الْمُبْدِعِ، كَمَا أَنَّ السَّمِيعَ فِي قَوْلِ عَمْرٍو:

---

[1] سورة الْبَقَرَة ، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الصَّافَّات، الآية 158.
[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيـــــعُ

بِمَعْنَى الْمُسْمِعِ، وَفِيهِ نَظَرٌ.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]: مِنْ كَانَ التَّامَّةِ، أَيِ احْدُثْ فَيَحْدُثُ، وَهَذَا مَجَازٌ مِنَ الْكَلَامِ وَتَمْثِيلٌ، وَلَا قَوْلَ ثَمَّ، كَمَا لَا قَوْلَ فِي قَوْلِهِ:

إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاعُ لِلْبَطْنِ: الْحَقِي

وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَنَّ مَا قَضَاهُ مِنَ الْأُمُورِ، وَأَرَادَ كَوْنَهُ، فَإِنَّمَا يَتَكَوَّنُ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ الْوُجُودِ مِنْ غَيْرِ امْتِنَاعٍ وَلَا تَوَقُّفٍ، كَمَا أَنَّ الْمَأْمُورَ الْمُطِيعَ الَّذِي يُؤْمَرُ، فَيَمْتَثِلُ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَمْتَنِعُ وَلَا يَكُونُ مِنْهُ الْإِبَاءُ، أَكَّدَ بِهَذَا اسْتِبْعَادَ الْوِلَادَةِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الْقُدْرَةِ كَانَتْ حَالُهُ مُبَايَنَةً لِأَحْوَالِ الْأَجْسَامِ فِي تَوَالُدِهَا، وَقُرِئَ (بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ) مَجْرُورًا عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي لَهُ، وَقَرَأَ الْمَنْصُورُ بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَدْحِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[3]: وَقَالَ الْجَهَلَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَقِيلَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَنَفَى عَنْهُمُ الْعِلْمَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ.

﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾[4] هَلَّا يُكَلِّمُنَا كَمَا يُكَلِّمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَ مُوسَى: اسْتِكْبَارًا مِنْهُمْ وَعُتُوًّا.

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾[1]: جُحُودًا لِأَنْ يَكُونَ مَا أَتَاهُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ آيَاتٍ، وَاسْتِهَانَةً بِهَا، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2]، أَيْ: قُلُوبُ هَؤُلَاءِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْعَمَى، كَقَوْلِهِ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾[3].

﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ﴾[4] يُنْصِفُونَ، فَيُوقِنُونَ أَنَّهَا آيَاتٌ يَجِبُ الِاعْتِرَافُ بِهَا، وَالْإِذْعَانُ لَهَا، وَالِاكْتِفَاءُ بِهَا عَنْ غَيْرِهَا.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[5]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾[6]، لِأَنْ تُبَشِّرَ وَتُنْذِرَ لَا لِتُجْبِرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَسْرِيَةٌ عَنْهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَغْتَمُّ وَيَضِيقُ صَدْرُهُ لِإِصْرَارِهِمْ وَتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَلَا نَسْأَلُكَ ﴿عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[7]: مَا لَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ أَنْ بَلَّغْتَ وَبَلَغْتَ جُهْدَكَ فِي دَعْوَتِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[8]؟!

وَقُرِئَ: (وَلَا تَسْأَلْ) عَلَى النَّهْيِ.

رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: "لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ"، فَنُهِيَ عَنِ السُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ الْكَفَرَةِ وَالِاهْتِمَامِ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: تَعْظِيمُ مَا وَقَعَ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا تَقُولُ: كَيْفَ فُلَانٌ؟ سَائِلًا عَنِ الْوَاقِعِ فِي بَلِيَّةٍ، فَيُقَالُ لَكَ: لَا تَسْأَلْ عَنْهُ، وَوَجْهُ التَّعْظِيمِ أَنَّ الْمُسْتَخْبِرَ يَجْزَعُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى لِسَانِهِ مَا هُوَ فِيهِ لِفَظَاعَتِهِ، فَلَا تَسْأَلْهُ وَلَا تُكَلِّفْهُ مَا يُضْجِرُهُ،

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الذَّارِيَات، الآية 52.
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[8] سورة الرَّعْد، الآية 40.

وَأَنْتَ يَا مُسْتَخْبِرُ لَا تَقْدِرُ عَلَى اسْتِمَاعِ خَبَرِهِ لِإِيحَاشِهِ السَّامِعَ وَإِضْجَارِهِ، فَلَا تَسْأَلْ، وَتُعَضِّدُ الْقِرَاءَةَ الْأَوْلَى قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ : (وَلَنْ تَسْأَلَ) وَقِرَاءَةُ أُبَيٍّ: (وَمَا تَسْأَلُ).

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[1]

كَأَنَّهُمْ قَالُوا: لَنْ نَرْضَى عَنْكَ، وَإِنْ أَبْلَغْتَ فِي طَلَبِ رِضَانَا حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَنَا، إِقْنَاطًا مِنْهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْ دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَحَكَى اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– كَلَامَهُمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾[2] عَلَى طَرِيقَةِ إِجَابَتِهِمْ عَنْ قَوْلِهِمْ، يَعْنِي أَنَّ هُدَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ هُوَ الْهُدَى بِالْحَقِّ، وَالَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى هُدًى، وَهُوَ الْهُدَى كُلُّهُ لَيْسَ وَرَاءَهُ هُدًى، وَمَا تَدْعُونَ إِلَى اتِّبَاعِهِ مَا هُوَ بِهُدًى، إِنَّمَا هُوَ هَوًى.

أَلَا تُرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾،[3] أَيْ: أَقْوَالَهُمُ الَّتِي هِيَ أَهْوَاءٌ وَبِدَعٌ.

﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[4]، أَيْ: مِنَ الدِّينِ الْمَعْلُومِ صِحَّتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الصَّحِيحَةِ؟

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[1]

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾[2]: هُمْ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ.

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾[3]: لَا يُحَرِّفُونَهُ، وَلَا يُغَيِّرُونَ مَا فِيهِ مِنْ نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ﴾[4] بِكِتَابِهِمْ دُونَ الْمُحَرِّفِينَ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾[5] مِنَ الْمُحَرِّفِينَ.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[6]، حَيْثُ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[7]

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾[1]: اخْتَبَرَهُ بِأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، وَاخْتِبَارُ اللَّهِ عَبْدَهُ مَجَازٌ عَنْ تَمْكِينِهِ عَنِ اخْتِيَارِ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: مَا يُرِيدُ اللَّهُ، وَمَا يَشْتَهِيهِ الْعَبْدُ، كَأَنَّهُ يَمْتَحِنُهُ مَا يَكُونُ مِنْهُ حَتَّى يُجَازِيَهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَقَرَأَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: (إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ): رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ وَنَصَبَ رَبَّهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ دَعَاهُ بِكَلِمَاتٍ مِنَ الدُّعَاءِ، فِعْلَ الْمُخْتَبِرِ هَلْ يُجِيبُهُ إِلَيْهِنَّ أَمْ لَا؟

فَإِنْ قُلْتَ: الْفَاعِلُ فِي الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ يَلِي الْفِعْلَ فِي التَّقْدِيرِ، فَتَعْلِيقُ الضَّمِيرِ بِهِ إِضْمَارٌ قَبْلَ الذِّكْرِ.

قُلْتُ: الْإِضْمَارُ قَبْلَ الذِّكْرِ أَنْ يُقَالَ: ابْتَلَى رَبُّهُ إِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا: ﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾[2] أَوِ ﴿ابْتَلَى رَبُّهُ إِبْرَاهِيمَ﴾[3]، فَلَيْسَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِإِضْمَارٍ قَبْلَ الذِّكْرِ:

– أَمَّا الْأَوَّلُ: فَقَدْ ذُكِرَ فِيهِ صَاحِبُ الضَّمِيرِ قَبْلَ الضَّمِيرِ ذِكْرًا ظَاهِرًا؛

– وَأَمَّا الثَّانِي: فَإِبْرَاهِيمُ فِيهِ مُقَدَّمٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ كَذَلِكَ: "ابْتَلَى رَبَّهُ إِبْرَاهِيمُ"، فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِيهِ قَدْ تَقَدَّمَ لَفْظًا وَمَعْنًى، فَلَا سَبِيلَ إِلَى صِحَّتِهِ.

وَالْمُسْتَكِنَّ فِي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾[4]: فِي إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ لِإِبْرَاهِيمَ بِمَعْنَى: فَقَامَ بِهِنَّ حَقَّ الْقِيَامِ، وَأَدَّاهُنَّ أَحْسَنَ التَّأْدِيَةِ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَتَوَانٍ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[5] وَفَّى الْأُخْرَى لِلَّهِ –تَعَالَى– بِمَعْنَى: فَأَعْطَاهُ مَا طَلَبَهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا، وَيُعَضِّدُهُ مَا رُوِيَ عَنْ مُقَاتِلٍ أَنَّهُ فَسَّرَ الْكَلِمَاتِ بِمَا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[6]، ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[7]، ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ﴾[8]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[9].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة]النَّجْم، الآية 37.

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية 126.

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية 128.

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية 129.

[9] سورة الْبَقَرَة، الآية 127.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْعَامِلُ فِي إِذْ؟

قُلْتُ: إِمَّا مُضْمَرٌ نَحْوُ: وَاذْكُرْ إِذِ ابْتَلَى، أَوْ إِذِ ابْتَلَاهُ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ، وَإِمَّا: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَوْقِعُ قَالَ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى الْأَوَّلِ اسْتِئْنَافٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ أَتَمَّ الْكَلِمَاتِ؟ فَقِيلَ: قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، وَعَلَى الثَّانِي جُمْلَةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِقَوْلِهِ: ﴿ابْتَلَى﴾[2] وَتَفْسِيرًا لَهُ، فَيُرَادُ بِالْكَلِمَاتِ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْإِمَامَةِ، وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ، وَرَفْعِ قَوَاعِدِهِ، وَالْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾[3].

وَقِيلَ فِي الْكَلِمَاتِ: هُنَّ خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ: الْفَرْقُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَالسِّوَاكُ، وَالْمَضْمَضَةُ، وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَخَمْسٌ فِي الْبَدَنِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَالِاسْتِنْجَاءُ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَقِيلَ: ابْتَلَاهُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ بِثَلَاثِينَ سَهْمًا: عَشْرٌ فِي بَرَاءَةَ ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[4]، وَعَشْرٌ فِي الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[5]، وَعَشْرٌ فِي الْمُؤْمِنُونَ: وَ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾[6] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[7]، وَقِيلَ: هِيَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ، كَالطَّوَافِ، وَالسَّعْيِ، وَالرَّمْيِ، وَالْإِحْرَامِ، وَالتَّعْرِيفِ، وَغَيْرِهِنَّ، وَقِيلَ: ابْتَلَاهُ بِالْكَوْكَبِ، وَالْقَمَرِ، وَالشَّمْسِ، وَالْخِتَانِ، وَذَبْحِ ابْنِهِ، وَالنَّارِ، وَالْهِجْرَةِ.

وَالْإِمَامُ: اسْمُ مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ عَلَى زِنَةِ الْإِلَهِ، كَالْإِزَارِ لِمَا يُؤْتَزَرُ بِهِ، أَيْ: يَأْتَمُّونَ بِكَ فِي دِينِهِمْ.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[8]: عَطْفٌ عَلَى الْكَافِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَجَاعِلٌ بَعْضَ ذُرِّيَّتِي، كَمَا يُقَالُ لَكَ: سَأُكْرِمُكَ، فَتَقُولُ: وَزَيْدًا.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية 131.

[4] سورة التَّوْبَة، الآية 112.

[5] سورة الْأَحْزَاب، الآية 35.

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْمَعَارِج، الآية 34.

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، وَقُرِئَ: (الظَّالِمُونَ)، أَيْ: مَنْ كَانَ ظَالِمًا مِنْ ذُرِّيَّتِكَ لَا يَنَالُهُ اسْتِخْلَافِي وَعَهْدِي إِلَيْهِ بِالْإِمَامَةِ، وَإِنَّمَا يَنَالُ مَنْ كَانَ عَادِلًا بَرِيئًا مِنَ الظُّلْمِ؛ وَقَالُوا: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفَاسِقَ لَا يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ، وَكَيْفَ يَصْلُحُ لَهَا مَنْ لَا يَجُوزُ حُكْمُهُ وَشَهَادَتُهُ، وَلَا تَجِبُ طَاعَتُهُ، وَلَا يُقْبَلُ خَبَرُهُ، وَلَا يُقَدَّمُ لِلصَّلَاةِ؟!

وَكَانَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ– يُفْتِي سِرًّا بِوُجُوبِ نُصْرَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ –رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا– وَحَمْلِ الْمَالِ إِلَيْهِ، وَالْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى اللِّصِّ الْمُتَغَلِّبِ الْمُتَسَمِّي بِالْإِمَامِ وَالْخَلِيفَةِ، كَالدَّوَانِيقِيِّ وَأَشْبَاهِهِ، وَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ: أَشَرْتُ عَلَى ابْنِي بِالْخُرُوجِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ ابْنَيِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ حَتَّى قُتِلَ، فَقَالَ: لَيْتَنِي مَكَانَ ابْنِكِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي الْمَنْصُورِ وَأَشْيَاعِهِ: لَوْ أَرَادُوا بِنَاءَ مَسْجِدٍ وَأَرَادُونِي عَلَى عَدِّ آجُرِهِ لَمَا فَعَلْتُ.

وَعَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ: لَا يَكُونُ الظَّالِمُ إِمَامًا قَطُّ، وَكَيْفَ يَجُوزُ نَصْبُ الظَّالِمِ لِلْإِمَامَةِ، وَالْإِمَامُ إِنَّمَا هُوَ لِكَفِّ الظَّلَمَةِ، فَإِذَا نُصِّبَ مَنْ كَانَ ظَالِمًا فِي نَفْسِهِ فَقَدْ جَاءَ الْمَثَلُ السَّائِرُ: مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ ظَلَمَ.

وَ﴿الْبَيْتُ﴾[2]: اسْمٌ غَالِبٌ لِلْكَعْبَةِ، كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾[3] مَبَاءَةً وَمَرْجِعًا لِلْحُجَّاجِ وَالْعُمَّارِ، يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُ ثُمَّ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ، أَيْ يَثُوبُ إِلَيْهِ أَعْيَانُ الَّذِينَ يَزُورُونَهُ أَوْ أَمْثَالُهُمْ، "وَأَمْنًا": مَوْضِعُ أَمْنٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[4]، وَلِأَنَّ الْجَانِيَ يَأْوِي إِلَيْهِ، فَلَا يُتَعَرَّضُ لَهُ حَتَّى يَخْرُجَ، وَقُرِئَ (مَثَابَاتٍ)، لِأَنَّهُ مَثَابَةٌ لِكُلِّ مِنَ النَّاسِ لَا يَخْتَصُّ بِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾[5].

"وَاتَّخِذُوا": عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ، أَيْ: وَقُلْنَا، اتَّخِذُوا مِنْهُ مَوْضِعَ صَلَاةٍ تُصَلُّونَ فِيهِ، وَهُوَ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِيَارِ وَالِاسْتِحْبَابِ دُونَ الْوُجُوبِ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أَنَّهُ أَخَذَ بِيَدِ عُمَرَ، فَقَالَ: هَذَا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ عُمَرُ، أَفَلَا نَتَّخِذُهُ مُصَلًّى! يُرِيدُ أَفَلَا نُؤْثِرُهُ لِفَضْلِهِ بِالصَّلَاةِ فِيهِ؛ تَبَرُّكًا بِهِ وَتَيَمُّنًا بِمَوْطِئِ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ، فَلَمْ تَغِبِ الشَّمْسُ حَتَّى نَزَلَتْ".

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 67.

[5] سورة الْحَجّ، الآية 25.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– اسْتَلَمَ الْحَجَرَ وَرَمَلَ ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ وَمَشَى أَرْبَعَةً، حَتَّى إِذَا فَرَغَ، عَمَدَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، فَصَلَّى خَلْفَهُ رَكْعَتَيْنِ، وَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1].

وَقِيلَ: مُصَلًّى مُدَّعًى، وَمَقَامُ إِبْرَاهِيمَ: الْحَجَرُ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمَيْهِ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْحَجَرُ حِينَ وَضَعَ عَلَيْهِ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُسَمَّى مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ سَأَلَ الْمُطَّلِبَ بْنَ أَبِي وَدَاعَةَ: هَلْ تَدْرِي أَيْنَ كَانَ مَوْضِعُهُ الْأَوَّلُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَرَاهُ مَوْضِعَهُ الْيَوْمَ.

وَعَنْ عَطَاءٍ (مَقَام إِبْرَاهِيم): عَرَفَةُ وَالْمُزْدَلِفَةُ وَالْحِمَارُ، لِأَنَّهُ قَامَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَدَعَا فِيهَا.

وَعَنِ النَّخَعِيِّ: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَقُرِئَ: (وَاتَّخَذُوا) بِلَفْظِ الْمَاضِي عَطْفًا عَلَى (جَعَلْنَا)، أَيْ: وَاتَّخَذَ النَّاسُ مِنْ مَكَانِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وُسِمَ بِهِ لِاهْتِمَامِهِ بِهِ وَإِسْكَانِ ذُرِّيَّتِهِ عِنْدَهُ قِبْلَةً يُصَلُّونَ إِلَيْهَا.

﴿عَهِدْنَا﴾: أَمَرْنَاهُمَا.

﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[2] بِأَنْ طَهِّرَا، أَوْ أَيْ طَهِّرَا، وَالْمَعْنَى طَهِّرَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَالْأَنْجَاسِ، وَطَوَافِ الْجُنُبِ، وَالْحَائِضِ، وَالْخَبَائِثِ كُلِّهَا، أَوْ أَخْلِصَاهُ لِهَؤُلَاءِ لَا يَغْشَهُ غَيْرُهُمْ.

﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾[3]: الْمُجَاوِرِينَ، الَّذِينَ عَكَفُوا عِنْدَهُ، أَيْ أَقَامُوا لَا يَبْرَحُونَ، أَوِ الْمُعْتَكِفِينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْعَاكِفِينَ الْوَاقِفِينَ يَعْنِي الْقَائِمِينَ فِي الصَّلَاةِ، كَمَا قَالَ: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[4]، وَالْمَعْنَى: لِلطَّائِفِينَ وَالْمُصَلِّينَ، لِأَنَّ الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ هَيْآتُ الْمُصَلِّي.

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْحَجّ، الآية 26.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]

أَيِ: اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَوْ هَذَا الْمَكَانَ.

﴿بَلَدًا آمِنًا﴾[2]: ذَا أَمْنٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[3]؛ أَوْ آمِنًا مَنْ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: لَيْلٌ نَائِمٌ.

وَ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾[4]: بَدَلٌ مِنْ (أَهْلَهُ)، يَعْنِي: وَارْزُقِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِهِ خَاصَّةً.

﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾[5]: عَطْفٌ عَلَى مَنْ آمَنَ كَمَا عُطِفَ.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾[6]: عَلَى الْكَافِ فِي (جَاعِلُكَ).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ إِبْرَاهِيمُ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ– الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى رُدَّ عَلَيْهِ؟

قُلْتُ: قَاسَ الرِّزْقَ عَلَى الْإِمَامَةِ فَعَرَفَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّ الِاسْتِخْلَافَ اسْتِرْعَاءٌ يَخْتَصُّ بِمَنْ يَنْصَحُ لِلْمَرْعَى، وَأَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ النَّصِيحَةِ الظَّالِمُ، بِخِلَافِ الرِّزْقِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا لِلْمَرْزُوقِ وَإِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ لَهُ، وَالْمَعْنَى: وَأُرْزَقُ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (وَمِنْ كُفْر): مُبْتَدَأً مُتَضَمِّنًا مَعْنَى الشَّرْطِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾[7]: جَوَابًا لِلشَّرْطِ، أَيْ وَمَنْ كَفَرَ فَأَنَا أُمَتِّعُهُ، وَقُرِئَ: (فَأُمَتِّعُهُ فَأَضْطَرُّهُ) فَأَلْزُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ لَزَّ الْمُضْطَرِّ الَّذِي لَا يَمْلِكُ الِامْتِنَاعَ مِمَّا اضْطُرَّ إِلَيْهِ.

وَقَرَأَ أُبَيٌّ: (فَنُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُ)، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ: (فَإِضْطَرُّهُ)، بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ)، عَلَى لَفْظِ الْأَمْرِ، وَالْمُرَادُ: الدُّعَاءُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ، فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ تَقْدِيرُ الظَّلَامِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْحَاقَّة، الآية 21.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

قُلْتُ: فِي ﴿قَالَ﴾[1]: ضَمِيرُ إِبْرَاهِيمَ، أَيْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَسْأَلَتِهِ اخْتِصَاصَ الْمُؤْمِنِينَ بِالرِّزْقِ: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ، وَقَرَأَ ابْنُ مُحَيْصِنٍ: (فَأَطُرُّهُ)، بِإِدْغَامِ الضَّادِ فِي الطَّاءِ كَمَا قَالُوا: اطَّجَعَ، وَهِيَ لُغَةٌ مَرْذُولَةٌ، لِأَنَّ الضَّادَ مِنَ الْحُرُوفِ الْخَمْسَةِ الَّتِي يُدْغَمُ هِيَ فِيهَا مَا يُجَاوِرُهَا، وَلَا تُدْغَمُ هِيَ فِيمَا يُجَاوِرُهَا، وَهِيَ حُرُوفُ "ضم شفر".

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]

﴿يَرْفَعُ﴾[3]: حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ، وَ﴿الْقَوَاعِدَ﴾[4]: جَمْعُ قَاعِدَةٍ، وَهِيَ الْأَسَاسُ وَالْأَصْلُ لِمَا فَوْقَهُ، وَهِيَ صِفَةٌ غَالِبَةٌ، وَمَعْنَاهَا الثَّابِتَةُ، وَمِنْهُ قَعَّدَكَ اللَّهُ، أَيْ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُقَعِّدَكَ، أَيْ يُثَبِّتَكَ، وَرَفْعُ الْأَسَاسِ الْبِنَاءُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا إِذَا بُنِيَ عَلَيْهَا نُقِلَتْ عَنْ هَيْئَةِ الِانْخِفَاضِ إِلَى هَيْئَةِ الِارْتِفَاعِ، وَتَطَاوَلَتْ بَعْدَ التَّقَاصُرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا سَافَاتِ الْبِنَاءِ، لِأَنَّ كُلَّ سَافٍ قَاعِدَةٌ لِلَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ وَيُوضَعُ فَوْقَهُ، وَمَعْنَى رَفَعَ الْقَوَاعِدَ: رَفَعَهَا بِالْبِنَاءِ، لِأَنَّهُ إِذَا وَضَعَ سَافًا فَوْقَ سَافٍ فَقَدْ رَفَعَ السَّافَاتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ مَا قَعَدَ مِنَ الْبَيْتِ –أَيِ اسْتَوْطَأَ–، يَعْنِي: جَعَلَ هَيْئَتَهُ الْقَاعِدَةَ الْمُسْتَوْطِئَةَ مُرْتَفِعَةً عَالِيَةً بِالْبِنَاءِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّسًا قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ فَبَنَى عَلَى الْأَسَاسِ، وَرُوِيَ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَنْزَلَ الْبَيْتَ يَاقُوتَةً مِنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ، لَهُ بَابَانِ مِنْ زُمُرُّدٍ: شَرْقِيٌّ وَغَرْبِيٌّ، وَقَالَ لِآدَمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: أَهْبَطْتُ لَكَ مَا يُطَافُ بِهِ كَمَا يُطَافُ حَوْلَ عَرْشِي، فَتَوَجَّهَ آدَمُ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَيْهِ

---

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

مَاشِيًا، وَتَلَقَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ، فَقَالُوا: بَرَّ حَجُّكَ يَا آدَمُ، لَقَدْ حَجَجْنَا هَذَا الْبَيْتَ قَبْلَكَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، وَحَجَّ آدَمُ أَرْبَعِينَ حَجَّةً مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَى مَكَّةَ عَلَى رِجْلَيْهِ، فَكَانَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ رَفَعَهُ اللَّهُ أَيَّامَ الطُّوفَانِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِبِنَائِهِ وَعَرَّفَهُ جِبْرِيلُ مَكَانَهُ، وَقِيلَ: بَعَثَ اللَّهُ سَحَابَةً أَظَلَّتْهُ، وَنُودِيَ: أَنِ ابْنِ عَلَى ظِلِّهَا لَا تَزِدْ وَلَا تُنْقِصْ، وَقِيلَ: بَنَاهُ مِنْ خَمْسَةِ أَجْبُلٍ: طُورِ سِينَا، وَطُورِ زِيتَا، وَلُبْنَانَ، وَالْجُودِيِّ، وَأَسَّسَهُ مِنْ حِرَاءٍ، وَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مِنَ السَّمَاءِ، وَقِيلَ: تَمَخَّضَ أَبُو قُبَيْسٍ فَانْشَقَّ عَنْهُ، وَقَدْ خُبِّئَ فِيهِ فِي أَيَّامِ الطُّوفَانِ، وَكَانَ يَاقُوتَةً بَيْضَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا لَمَسَتْهُ الْحُيَّضُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اسْوَدَّ، وَقِيلَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ.

﴿رَبَّنَا﴾[1]، أَيْ: يَقُولَانِ رَبَّنَا، وَهَذَا الْفِعْلُ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَقَدْ أَظْهَرَهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي قِرَاءَتِهِ، وَمَعْنَاهُ: يَرْفَعَانِهَا قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾[2]: لِدُعَائِنَا، ﴿الْعَلِيمُ﴾[3]: بِضَمَائِرِنَا وَنِيَّاتِنَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: ﴿قَوَاعِدَ الْبَيْتِ﴾[4]، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ؟

قُلْتُ: فِي إِبْهَامِ الْقَوَاعِدِ وَتَبْيِينِهَا بَعْدَ الْإِبْهَامِ مَا لَيْسَ فِي إِضَافَتِهَا لِمَا فِي الْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ مِنْ تَفْخِيمٍ لِشَأْنِ الْمُبَيَّنِ.

﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[5]: مُخْلِصَيْنِ لَكَ أَوْجُهَنَا، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[6] أَوْ مُسْتَسْلِمَيْنِ، يُقَالُ: أَسْلَمَ لَهُ، وَسَلِمَ، وَاسْتَسْلَمَ إِذَا خَضَعَ وَأَذْعَنَ، وَالْمَعْنَى: زِدْنَا إِخْلَاصًا أَوْ إِذْعَانًا لَكَ، وَقُرِئَ: (مُسْلِمِينَ) عَلَى الْجَمْعِ، كَأَنَّهُمَا أَرَادَا أَنْفُسَهُمَا وَهَاجَرَ، أَوْ أَجْرَيَا التَّثْنِيَةَ عَلَى حُكْمِ الْجَمْعِ، لِأَنَّهَا مِنْهُ.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾[7]: وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[8].

---

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية 112.

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

وَ﴿مِنْ﴾[1]: لِلتَّبْعِيضِ أَوْ لِلتَّبْيِينِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّا ذُرِّيَّتَهُمَا بِالدُّعَاءِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالشَّفَقَةِ وَالنَّصِيحَةِ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[3]، وَلِأَنَّ أَوْلَادَ الْأَنْبِيَاءِ إِذَا صَلُحُوا صَلُحَ بِهِمْ غَيْرُهُمْ وَشَايَعُوهُمْ عَلَى الْخَيْرِ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُقَدَّمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْكُبَرَاءِ إِذَا كَانُوا عَلَى السَّدَادِ كَيْفَ يَتَسَبَّبُونَ لِسَدَادِ مَنْ وَرَاءَهُمْ؟

وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْأُمَّةِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿وَأَرِنَا﴾[4]: مَنْقُولٌ مِنْ رَأَى بِمَعْنَى أَبْصَرَ أَوْ عَرَفَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَتَجَاوَزْ مَفْعُولَيْنِ، أَيْ وَبَصِّرْنَا مُتَعَبَّدَاتِنَا فِي الْحَجِّ، أَوْ عَرِّفْنَاهَا، وَقِيلَ: مَذَابِحَنَا، وَقُرِئَ: (وَأَرْنَا) بِسُكُونِ الرَّاءِ قِيَاسًا عَلَى فَخِذٍ فِي فَخْذٍ، وَقَدِ اسْتُرْذِلَتْ، لِأَنَّ الْكَسْرَةَ مَنْقُولَةٌ مِنَ الْهَمْزَةِ السَّاقِطَةِ دَلِيلٌ عَلَيْهَا، فَإِسْقَاطُهَا إِجْحَافٌ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِإِشْمَامِ الْكَسْرَةِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ : (وَأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ).

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾[5]: مَا فَرَطَ مِنَّا مِنَ الصَّغَائِرِ أَوِ اسْتَتَابَا لِذُرِّيَّتِهِمَا، ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾[6]: فِي الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، ﴿رَسُولا مِنْهُمْ﴾:[7] مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ وَهُوَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى أَخِي عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي".

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾[8]: يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ، وَيُبَلِّغُهُمْ مَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّتِكَ وَصِدْقِ أَنْبِيَائِكَ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾[9]: الْقُرْآنَ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾[10]: الشَّرِيعَةَ وَبَيَانَ

---

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[1] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[2] سورة النُّور، الآية 55.

[3] سورة التَّحْرِيم، الآية 1.

[4] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[8] سورة الْبَقَرَة، الآية .

[9] سورة الْبَقَرَة، الآية .

الْأَحْكَامِ؛ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾[1]: وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَسَائِرِ الْأَرْجَاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[2].

[10] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[1] سورة الْبَقَرَةِ، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَافِ، الآية 157.

محتويات الكتاب

مَحتويات الكتاب

كتاب تفسير الكشّاف

الجزء الأوّل

302 – 5

المقدّمة

14 – 7

1 – المؤلّف

10 – 9

أ – التّعريف به

9

ب – اعتزاله

9

ج – ثناء العلماء عليه

10 – 9

2 – مؤلّفاته

11 – 10

3 – من شعره

13 – 11

4 – التّعريف بالكتاب

13

كتاب تفسير الكشّاف الجزء الأوّل		302 – 17
مُقَدِّمَةُ التَّفْسِيرِ لِلْعَلَّامَةِ الزَّمَخْشَرِيِّ		22 – 19
– سُورَةُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ		40 – 23
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾		30 – 23
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾		35 – 30
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾		36 – 35
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾		40 – 36
– سُورَةُ الْبَقَرَةِ		302 – 41
﴿الم﴾		55 – 43
﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾		61 – 56
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾		65 – 62
﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾		68 – 65
﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾		71 – 68
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾		74 – 71

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾		87 – 79
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾		98 – 87
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾		105 – 99
– ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾		119 – 115
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا		124 – 120

لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾		
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾		128 – 125
﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾		133 – 129
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾		141 – 133
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾		151 – 141
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾		156 – 151
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ		157 – 156

فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾		
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾		162 – 159
﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾		164 – 162
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾		166 – 164
﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾		168 – 167
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ		170 – 168

أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾		
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾		172 – 171
﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾		174 – 173
﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾		175 – 174
﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾		175
﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾		177 – 176
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾		179 – 178
﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا		181 – 179

رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾		
﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾		182 – 181
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾		185 – 183
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾		186
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾		188 – 187
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ		196 – 189

لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾		
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾		198 – 197
﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾		200 – 199
﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾		201 – 200
﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾		203 – 202

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾		204 – 203
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾		206 – 204
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾		209 – 206
﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ		211 – 210

بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾		
﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾		212 – 211
﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾		216 – 213
﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾		219 – 217
﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾		220 – 219
﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ		224 – 221

الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يُعَلِّمُونَ﴾		
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾		226 – 224
﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾		229 – 227
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾		232 – 230

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾		235 – 232
﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهِ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾		236 – 235
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾		237 – 236
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾		238 – 237
﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾		239 – 238
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾		240 – 239
﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنَ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾		240
﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾		241

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾		246 – 241
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنَ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾		247 – 246
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾		251 – 247

محتويات الكتاب 322–305

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع